الدين والفلسفة والعلم

تطور الديانات منذ أقدم عصورها إلى الآن

مع الشرح والتحقيق

السيد محمود أبو الفيض المنوفي

الكتاب: الدين والفلسفة والعلم.. تطور الديانات منذ أقدم عصورها إلى الآن

الكاتب: السيد محمود أبو الفيض المنوفي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA



E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

المنوفي ، السيد محمود أبو الفيض

الدين والفلسفة والعلم.. تطور الديانات منذ أقدم عصورها إلى الآن

/ السيد محمود أبو الفيض المنوفي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥٢ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ١ – ٣٤ – ٦٨٢٣ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ١٠١٨٨ / ٢٠٢٠

الدين والفلسفة والعلم

تطور الديانات منذ أقدم عصورها إلى الآن





المقدمة الأولى

باسمك اللهم وبحمدك أبدأ، ثم بعونك وعنايتك أسير وأتجه؛ فأنت الغاية القصوى للوجود، وإليك نهاية كل ناطق وصامت. وأطيب الصلاة وأذكى التحيات أهدي إلى جميع أنبيائك ورسلك وسائر مختاريك من خليقتك.

وبعد.

فإني وإن كنت في مؤلفي كتاب الوجود، قد توخيت أثناء سياقه تذليل حدة الفلسفة، وتوعر عباراتها، وعمق قواعدها بما أضفيت عليها من أضواء الوجدان وأقياس البصيرة، وبعد أن صببت موضوعه في أسلوب من هدي الأدب وصفي شاعريته لتستسيغ عباراته الألباب في يسر وطلاوة.

بيد أن الكتاب لم يخرج مع كل ذلك عن أن يكون مجموعة حقائق مركزة وقواعد وجودية محلقة، وإن يسرتها للقراء أساليب اللغة، وهو بعد ما زال في ثوب ضاف من ثقافة عالية لا يستسيغها إلا أفهام الخاصة من الناس، الأمر الذي ارتأيت معه حاجة كتاب "الوجود" إلى هامش يحوى الجم من التبسيط الذي ييسر بمجمله ويوضح مفصله في تحليل ناقد متسع للمذاهب الفلسفية والعلمية؛ فإنها جميعا وإن تيسر فهمها على نفر من أولى الألباب سيما الأخصائيين من المشتغلين بالفلسفة أو التصوف أو الدين أو العلم أولئك المدربين على فهم بحوث كل منها، فإن تلك المباحث نفسها تعف وتعز على الكثيرين من الناس دون من ذكرت.

ولما كان غرضي الأول هو هداية الفكر العام وتوجيهه، وتيسير أمثال

تلك المباحث على سائر الأذهان، أو على الأقل أغلبها، استخرت الله في وضع كتاب يكون لمغلق تلك المسائل كالمفتاح أو كالمدخل، يلين من شمس تلك الحقائق ويسهل مفاهيمها أبسط فيه القول بسطا شارحا ليسلس في النهاية قيادها ويعم نفعها.

أو قل بعبارة أخرى، ليكون كدائرة معارف مصغرة تحوي تلك الحقائق مبسطة لتستوعبها الأذهان غير المدربة، وسميته "وحدة الدين والفلسفة والعلم" ليكون كهامش لكتاب "الوجود". وقد بحثت فيه عن نبع المعتقد منذ بدء الخليقة وتاريخ تفلسف العقل والكشف عن مواضع تطور العلم خلال تلك العصور السحيقة والمحدثة.

وقد درج الفلاسفة والدينيون وبعض العلماء الطبيعيين – من إسرائيليين ومسيحيين ومسلمين خلال الأدهار – على أن يوفقوا بين الدين والفلسفة أو بين العلم والدين، وقد بدأ ذلك التوفيق أو التقريب في عصر تحول الفلسفة اليونانية بالهجرة إلى الإسكندرية، وبدأ أمانيوس سيكاس وهو مسيحى مرتد، وكذا فيلون وأفلوطين وهما يهوديان – وأفلوطين مصري اشتهرت مدرسته باسم الأفلاطونية الحديثة، لأنها توفيق بين فلسفة أفلاطون وبين الدين.

وارتأى البعض أن الأفلاطونية نسبة لاسمه أفلوطين، وهذا لا يمنع أن عنصري الفلسفة الأفلاطونية الحديثة كان أحدهما دينى والآخر مثالي أفلاطوني؛ فكان أفلوطين وسيكاس في مصر، وجمبليكوس في سوريا، وبلوطارخ في أثينا. ومن المسيحيين في العصور الوسطى: ألبرتوس وأغسطينوس وجون سيكس أوريجين والقديس أوجستان والقديس توماس الأكويني والقديس برتاوسي، وغيرهم كثيرون.

وأما المسلمون: فمن فلاسفتهم الذين حاولوا التوفيق بين الفلسفة

والدين: الكندي، والفارابي، وابن سينا، وإخوان الصفاء في الشرق، والفقيه ابن رشد، وابن الطفيل، وأبو بكر بن الصائغ في الغرب.

وظل هؤلاء وأولئك يحاولون أن يوفقوا بين الفلسفة والدين وغيرهم يوفق بين العلم والدين، وهم كثيرون. أما نحن – وفي عصرنا الحاضر القرن العشرين – فنخطئ هذا الرأي ونجزم بذلك، لأن المعرفة العامة وهي تجمع في مفهومها القريب أو البعيد، كل ما يعرف من عالم الذات أو من عالم الموضوع: تكون المعرفة في الحقيقة كالكم المشترك بين سائر كفايات الإنسان للعرفان بالحس والعقل أو الوجدان وأيضا بين سائر نواحيها الدينية والفلسفية والعلمية.

وهذا بعض الدليل على أن الدين والفلسفة قد خرجا من نبع واحد ويصبان في مصب واحد وأن غايتهما لهدف واحد، وإن تغاير الأسلوب في كل منهما. وما العلم إلا التطبيق الموضوعي التجريبي لنظريات الفلسفة سيما في الرياضيات وعلم النفس والأخلاق والمنطق.

لكل هذا ولندلل على صحة نظريتنا الجديدة، ولنضيف هامشا "للوجود" وضعنا هذا الكتاب، وكان ذلك هو السبب في تسميته أيضا. وقد فصلناه في ثلاثة كتب: واحد يختص بتطور الدين، والثاني بتطور الفلسفة، والثالث بتطور العلم.

وما ذاك إلا لأن الثلاثة: الدين والفلسفة والعلم، تتمثل في نظرنا أغصانا ثلاثة نبتت في تربة التاريخ من أرومة واحدة هي الحقيقة الوجودية المطلقة التي في رحابها يتلاقى عالم المعتقد وعالم الفكر وعالم الموضوع متعرفين إليها، كل بحسب منهاجه. وهي في نفسها إزاء هذه الحالة تمثل هدفا ينظر إليه من زوايا ثلاث: عنونت بالدين والفلسفة والعلم.

وإذن فالتقريب لا يكون إلا بين متباعدين، والتوفيق لا يكون إلا بين متخاصمين، وأما التوفيق بين التوائم فعبث ضائع، والتقريب بين المتقاربين وهم خادع.

ولإثبات هذا الرأي أقدم كتاب لكل قارئ منزه عن التحيز والغرض والله هو الهادي لسواء السبيل ، وتحياتي لجميع قرائي.

السيد محمود أبو الفيض المنوفي

المقدمة الثانية

في التنازع بين الدين والفلسفة والعلم

وأيهما يسود الرأي العالمي وموقفنا إزاء ذلك

حسنات المدنية وسيئاتها

في الحق أن من يقارن بين عصرنا الحاضر وبين غيره من العصور السالفة، يدهشه ما أنتجته العقول والقرائح من الاكتشافات والاختراعات الحديثة، وتقدم الصناعة واتساع الثروة وتقريب الأبعاد بازدياد طرق المواصلات، وما كشف عنه العلم من أبحاث طريفة في ميدان الطبيعة والكيمياء والطب وسائر فروع العلم الأخرى، وما أماط عنه العلماء اللثام أخيرا من غرائب الكهربائية وعظم ما في طاقتها من قوة وما في الإشعاع من منافع بعيدة المدى عميقة الغور، وما أفاضته ألوان الحضارة المنبعثة عن كل ذلك على حياة الناس من وسائل الترف والبذخ والنعيم الظاهر وما خلقت فيهم من أساليب للمعيشة الجديدة تستهوي القلوب والأفئدة بما فيها من غواية وسحر.

كل هذا كان يكون جميلا جليلا، ورقيا أكيدا لو صحبه تقدم الإنسانية نفسها وتدعيم الإخاء للبشري على أسس صحيحة أو على الأقل لو نمت مع هذا التقدم صفات الإنسان الروحية والأدبية، كالحب والتعاون والتوحد، تلك المبادئ النبيلة التي لا بد منها لحفظ التوازن الاجتماعي بين غرائز النوع البشري العاتية، وقواه الأدبية، ثم توجيه قوى العلم والمعارف إلى خير الإنسان وإسعاده ونفعه الحقيقي مع وجود التقدم الظاهري.

ولكن من المؤسف المبكي أن كل ذلك التقدم المادي، سواء كان في دوائر العلم والصناعة، أو في السياسة أو أساليب المعيشة إن هو إلا تقدم آلي سطحي، يحيط بالظواهر ولا يلبس البواطن قد يشبع الأجساد، ولكنه لا يطفئ ظمأ النفوس والأرواح.

ألم تر معنا أنه يصحب كل ذلك التقدم وتلك الحضارة الفخمة المظاهر، الضخمة الدعايات، تأخر حقيقي للإنسان نفسه وتضييع لخصائصه العليا وانحطاط هائل في الأخلاق والآداب، وإهدار مريع للمروءة والعفة والأمانة والرحمة والشجاعة الأدبية اللائقة بالكائن الإنسان الاجتماعي بطبيعته وإحلال التنازع الوحشي على أسباب العيش ووسائل الترف ومفاسد الشهوات، محل تلك الصفات النبيلة!

ألا ترى أن الإنسان قد غدا يضحي بكل شيء من مواهبه الروحية في سبيل أنانيته الحيوانية، وصار يمجد المال كأنه معبوده الوحيد ومثله الأعلى.

ثم ألم تر أن كيان العائلة وهي دعامة المجتمع، قد انهار وتفككت أوصاله وتقطعت روابطه، ودب العداء والتنافر والتنازع بين أفراد العائلة الواحدة كأن لم يكن بينهم وشيجة من صلة، ولا تجمعهم أي رابطة من قربى.

وإذن فما فائدة الإنسان في أن يعيش في مجتمع مزعزع الأركان متداعي الأسس لا يجد لقلبه فيه سعادة ولا لأخلاقه فيه ضمانا، ولا لروحه حرية ولا لذاته وعواطفه أو فنه أي تقدير بين جنباته. وأي قيمة حقيقية لتقدم ظاهري مثل الذي يعيش فيه العالم، تتقلص في ظله سعادة الإنسان تقلصاً مخيفا كلما جد في تشييد صرح المدنية المموه.

وناهيك بعالم يريد أهله أن يعيشوا بغير إله ولا روح، ولا خلق، ولا يأبهون

لمسكة من فضائل أو استقامة لضمير أو سلوك، ونحن لو تأملنا في حياتنا الأرضية نجد أن عوامل أربعة تتنازع نفوسنا وأفكارنا في هذه الحياة الدنيا: الدين والفلسفة ثم العلم والمال.

فالدين والفلسفة قد خرجا من مهد واحد، ودرجا وتكونا مع التاريخ حتى إذا ما استفحلا وعظم شأنهما أخذا كل منهما طريقه ووجهته إلى الغاية المنشودة بحسب أسلوبه ومنهجه وظل هذا شأن الدين والفلسفة إلى أن تمخضت الفلسفة عن العلم، فشب وكبر وازداد بسطة ونشاطا ونجاحا، ولما صار هذا شأنه، عق أمه الفلسفة والتحق بخدمة المال.

وأما الديانات فقد كانت في عهد مؤسسيها وعصورها الأولى منار الهدى ومدارس للحب والسلام، وبواعث الطمأنينة في القلوب، إلى عالم الغيب، وقوة عظيمة تعيننا وتعزينا، في وسط ذلك الخضم المظلم الهائل الذي نسميه حياتنا الأرضية، وبعد أن مات مؤسسوها سار أتباعهم بسيرة صالحة تناسب نوعا ما سيرة هداتهم الأطهار وإن لم تتفق معها تماما.

ثم مضت عصور أولئك أيضا، وابتدأت عصور مقلديهم الذين انحطوا عمن تسلموا منهم أمانة الدين والهدى والإيمان والخلق، انحطاطا هائلا في جميع نواحي الحياة الروحية.

وهكذا انقضت عصورهم، وقام على آثارهم غيرهم، وجلهم يجتبي في نفسه بجد العالم المادي، وإن كانت أزياؤهم ونفوسهم تمثل لنا المجد الروحي. وبانقلاب مثل هذا يتسع طبعا سلطان المال، وتقوى سلطة شيطانه على النفوس وتضعف مدارك القائمين بشئون الديانات، ويصبح الدين – مع سمو جوهره وحقيقة مصدره – قضايا كلامية لا تجد لمسائلها وهوامشها المتسعة منطقا يبررها ولا إيمانا يسندها ولا عقولا تقبلها. وإن كانت من أعز الحقائق في

أصولها فتفتر همم الشعوب من هذه الجهة، وتقل ثقتها بالأديان – وإن كانت الأديان في نفسها حقائق صحيحة – وبأهل الأديان وإن كان الصادقون منهم أخيارا حقيقة.

وهذا ما هو واقع بالفعل في عصرنا الحاضر، فقد أصبحت تعاليم الأديان إلزاما بلا حجة ولا دليل وأصبح رجال الدين ضعاف الحجة أمام الملحدين، وانهارت أو تحولت أصول التعاليم والعقائد التي جاء بها مؤسسو الديانات إلى شروح لا تجدي، وأصبحت الرسوم والمظاهر الدينية يعتنى بها أكثر من إصلاح الأخلاق وطهارة القلب والفكر والعمل.

وذلك بسبب الأخطاء التي ارتكبها كهنة الديانات في عصور مختلفة وتغلب المظاهر على الحقائق والأخذ بالألفاظ دون المعاني، مع أن الغرض الحقيقي من هذه الرسوم والمظاهر هو أن تكون رمزاً لحقائق أغنى منها وأسمى. وهكذا أصبحت الأديان مجرد تقاليد وطقوس بلا روح ولا حياة على أيدي المتأخرين من حملتها الذين ينظرون للعرض دون الجوهر وللرمز دون الحقيقة.

أما الفلسفة، فقد كانت في عصورها الماضية البسيطة الخالية من الأنانية والكبرياء خير هاد للروح والعقل، وأفضل قائد إلى النور والكمال والحكمة وقتها كان الفلاسفة يدعون بناء المجد الروحي ويزودون العقول والألباب والنفوس بحاجتها المحتومة من المثل العليا والحكمة والحقائق الموجهة إلى إصلاح الحاضر وحسن المآل.

وأما الآن فقد أوقفت مباحثها راضية أو مرغمة على تزويد العلم بحاجته من الفروض التي يدعم بها نظرياته المادية البحتة بعد أن تضاءلت لتضخمه، وتهافتت متابعة له في ماديته وتنازلت له عن مركزها السامي كمعيار للفكر العام.

وأما العلم، فبعد أن كان بحثا حرا – مجردا من كل قيد في الكشف عن أسرار الطبيعة، وعما يمكن أن تنتجه للناس من منافع حيوية وإنسانية، قد اكتفى، في هذا العمر بخدمة المصانع والمعامل وتوسيع نطاق البحث الاقتصادي والصناعي والحربي!! بحيث صار هو الكاهن الأكبر لهيكل العجل الذهبي، والخادم المخلص للمال ولرجال الأعمال..!!

ولذا كان هو العامل المهم في تضييع حرمة الأخلاق والآداب لخضوعه لسلطان المال، فكان الممد للحروب والمجازر البشرية بما يبتكره من آلاته الجهنمية وأسلحته المبيدة المملكة وما فيها من طاقة ذرية وهيدروجينية. وسبب ذلك أن بعض العلماء المحدثين، الذين حادوا – تفانيا في طلب المال والجاه والمجد الزائف الزائل – عن طريق معلميهم الأبرار الذين جدوا وكدوا؛ فعبدوا الطريق، ووضعوا لهم النظريات الفلسفية، والقواعد العلمية التي كانت سببا في تقدم العلم الحاضر ومكتشفاته العديدة، وفتوحاته الكثيرة، وضحوا في سبيل ذلك بكل جهودهم وصحتهم بل وحياتهم أحيانا.

فلم ير أولئك التلاميذ الأحداث من أبناء القرن العشرين، في ذلك التراث العلمي الضخم إلا مجرد مادة خام أعدت لإشباع نهم الإنسان وجشعه المادي، وسواء عليهم خرب العالم بعد ذلك أو عمر، تقدمت الإنسانية نفسها أو تأخرت، ترقى العالم رقيا حقيقيا أو انحدر ما دامت بطونهم شبعى، وأجسامهم كاسية بأفخر الثياب وجيوبهم ملأى بالشيكات والسندات.

أقول: إن أولئك الذين لا أسميهم علماء حق قد استخدموا ما استغله العلم من قوى الطبيعة وثمراتها شر استخدام حيث قد وضعوه سلاحا ماضيا في أيدي ذوي المطامع من الأقوياء والانتهازيين والمخادعين الذين لا يعنيهم من أمر العالم ومن فيه إلا أطماعهم الشخصية، وأنانيتهم الفردية، وما العالم في نظرهم

سوى ميدان تنازع واستثمار فقط أو مجرد حقل اقتصادي لا موضع فيه للحب الإنساني ولا مكان للبر والرحمة.

ولما انحط العلم عن رتبته العالية على أيدي هؤلاء وهؤلاء وحاد عن غايته الحقيقية، فخدم الأهواء والمطالب البشرية فقد قوة إخلاصه وتمزق يقينه بنفسه وأصبح ينبوعا للشكوك في كل شيء حتى في قضاياه نفسها ومسائله الموضوعية الخاصة المتشعبة.

وأما المال فقد تبوأ في عصرنا الحاضر عرشا من الباطل والوهم وضع أساسه على أنقاض الدين والفلسفة والعلم، واتخذ له سلطانا وأعوانا من ضعف النفوس وتفكك الآداب، ووهن الإيمان، واختفاء الحياة الروحية وراء ستار التنازع والأغراض الشخصية وضياع الحقائق الأدبية.

وما المال باعتبار وظيفته الحقيقية إلا مجرد وسيلة يتوسل بها الإنسان إلى تأدية واجباته والوصول إلى غاياته السامية ومثله العليا، ورقي الإنسانية، وهو بهذه المثابة فضل يدخر ونعمة تؤثر.

والإنسان لا يمكنه أن يعيش معيشة سعيدة تحوطها الطمأنينة والحب، بغير قلب قوي، وضمير نقي، وعلم صحيح، ودين واضح، وإيمان مشجع، وهداة مرشدين من أعوان الخير والإيمان والرحمة، وقادة الأخلاق، والنور والهدى.

وكانت النتيجة من كل هذا أن وقف الغرب، وقد قارب الغاية من رقيه المادي، حيران أسفا وهو يسأل نفسه: ها نحن قد شيدنا المصانع والمعامل، وملأنا الأرض إنتاجا يزيد عن الحاجة، واستثمرنا أغلب المنابع الطبيعية الثروة، فأشبعنا البطون وسكنا القصور، وضخمها الثروات وأنلنا النفوس والغرائز جميع رغائبها، وقد سخرت لنا الأرض، وامتطينا متن الهواء والماء، وحملنا الأثير

رسائلنا، واستخدمنا الطاقة الذرية.. فماذا بعد كل هذا؟ وما المصير؟ وقد ضحينا في سبيل ذلك بكل إنسانيتنا العليا، وفنوننا الجميلة وعواطفنا الطيبة، ووجداننا الأدبي والروحي، وتراثنا الإنساني الذي خلفه لنا أسلافنا الأقربون بل وهنائنا العائلي، وسعادتنا الحقيقية وسلامنا الداخلي؟ فماذا.. فماذا إذن؟!

ووقف الشرق كذلك في مفرق الطرق بجانب أخيه الغرب متسائلا متحيرا: أنتابع السير وراء مدنية الغرب، على ما فيها من تنازع وعنف وقسوة، محتذين حذوها، ومقتبسين من وسائلها وأساليبها وقد فشلت تماما أمام أنظارنا في إحكام أمرها وضبط توازنها؟ أم تعود على أعقابنا إلى تراث آبائنا الروحي والديني وتقاليدنا الاجتماعية والخلقية والأدبية؟؟

وها أنت ترى معنا أن الإنسانية جمعاء قد أصبحت محتاجة احتياجا أكيدا بل ومتعطشة تعطشا صارخا إلى تعليم جديد شامل يبنى على الأسس والحقائق الإلهية والروحية القديمة متسع نواحي الأمل، يلزمنا به إحساس كل نفس بانطباقه عليها كقانون، وباحتياجنا إليه كمثل أعلى لا بد منه نسير وراءه في مدلهم تلك الحياة المشوشة النواحي، المتبلبلة الأفكار والمبادئ.. ينقذ الإنسانية من ورطتها ويجدد صلة السماء بالأرض، ويذكر الإنسان بمبادئه العليا وأصله النبيل، فيضيء بنوره القلوب، وينعش النفوس ويهدي إلى الطريق السوي على أن يكون أساسه الوجدان القلبي والمنطق العقلي، والتجربة جميعا من عقلية وحسية، وشعاره البلوغ بالنفس ما أمكن إلى أعماق الحقيقة الروحية مع الوضوح والجلاء والبساطة الفكرية، يشق طريقه المستقيم بين الدين والفلسفة والعلم والمال.

فيحتكم الدين باعتبار أنه حقيقة أزلية يستمد منها الإنسان غذاء عواطفه ووجدانه الأدبي. ويجل الفلسفة الصحيحة المستوعبة للحق باعتبار أنها نظام شامل يؤلف بين قضايا العلم المتشعبة ويوحد اتجاهاته في نظراته إلى الكون، ويبين

الرابطة القائمة بين الأسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها باعتبارها نقطة الصلة بين العلم والدين ورابطة نظام علم المعرفة.

ويقدر ذلك النظام العلم باعتبار أنه أسلوب تجريبي عملي يكشف للإنسان عن نظم الطبيعة وخواصها، ويمكنه من الاستفادة على قدر الطاقة من تلك الخصائص والنظم، على شرط أن لا يتحكم بأسلوبه الموضوعي في عقائد الناس ومثلهم العليا ومشاعره الأدبية.

ويخفف من سيادة المال على النفوس، ويرجعه إلى أصله ووظيفته كخادم أمين، ومساعد غير مستفيد، يعين صاحبه على سلوك الحياة الصحيحة ولا يستعبده لاسيما وأن "العلم" قد هدم بأبحاثه الذرية كيان المادية.

ولمثل تلك الغاية الجليلة التي هي مطلب كل قلب شريف، وأمل كل عقل سليم – يقدر معنى الحياة حق التقدير – وليكون التعزية الحقة لكل نفس تعيسة، قد رزحت تحت أثقال هذه الحياة القاسية التي أجدبت من الغذاء الروحي الذي يسعد النفوس ويساعدها.

نقول لأجل مثل هذه الغاية، قد وضعت تعاليمنا التي منبعها ومستمدها الحقيقي هو الإلهام، يدعمه المنطق العقلي، ويؤيده الواقع الملموس والمشاهدة الحسية.

لكل ذلك وضعنا كتابنا في تطور الدين والفلسفة والعلم منذ أقدم العصور إلى الآن، ليستبين الإنسان الرشد من الغي، وينظر لنفسه بنفسه في المعتقد والتفكير وأسلوب العلم.

فنحن نحترم الأديان جميعا، كحقيقة واحدة مقدسة لأنها العامل الأول في تخفيف ثقل الحياة على الناس ورفع كابوس الضغط المادي عن قلوبهم اللامع

ونفوسهم وتذكار جليل يذكرهم بماضيهم وحاضرهم ومآلهم.

ومبدؤنا هذا، يحتم علينا أن لا نتعرض للأديان أو تمسها إلا بمقدار ما تنفض عن حقيقتها الجميلة غبار الرياء والنفاق والخداع والتصنع، وندفع عنها قول الإلحاد ووحش السخرية والازدراء!!

ثم ندلل على وجود الله وأصالة الإيمان وحقيقة الروح ووجود الآخرة، بالدليل العلمي والحجة الواقعية والتجارب العقلية والعملية. وهذا نفسه هو موضع الديانات وغرضها الأعلى فالكتب المنزلة من عند الله لم تفعل أكثر من أنها قد فسرت الوجود الكوني وعبرت عنه بأسلوبها الخاص، ذلك الكتاب الإلهي العام "الوجود" والذي وضع الله ألفته وأبدعه بقدرته وتحسن تدبيره وكامل حياته وعلمه.

ولذا، أخذت الأديان جميعا منه أدلتها على وجود الخالق العظيم، وما يجب له قبل مخلوقاته من واجبات، وعلى هذا الأساس نفسه، وضعت الديانات قواعد عبادته ومعرفته ولنفس هذا الغرض وضعنا كتاب الوجود. وأما الفلسفة، فغرضنا من الكلام عنها، إنقاذها من مخالب الشك والحيرة والتناقض، وإرجاعها إلى مكانتها السامية التي فقدتها بخضوعها للعلم الحائد عن طريقه السوي، ووقفها أغلب مباحثها على خدمته وتدعيم قضاياه صوابا أو خطأ.

منهجنا في العلم ربط حلقاته بعضها ببعض وإنهاضه من ورطة التحيز والزيغ واتباع الأهواء، إلى مكانته السامية التي كان عليها من قبل، فيخدم الإنسانية ويضيء جوانب الحياة ويكشف عن مكنونات الطبيعة وأسرارها الخفية لخدمة الإنسانية وليس لمجرد التفرقة النفعية، وهذه هي وظيفة العلم الصحيح؛ فالعلم هو المنظار الوحيد الذي نرى به ظاهرات الوجود والمقياس الاستقرائي والاستنتاجي أيضا الذي نتوصل به إلى الكشف عن العلل والقوانين الخفية للطبيعة.

وإذن، يجب علينا أن نعرف للعلم دائما حده، وهو البحث في ظاهرات الوجود ومنافعها، بصرف النظر عن العلل والأسباب العليا، فليس له حق التدخل فيما وراء الطبيعة أو الروح – لأنه تجريبي موضوعي – وكذا كل ما هو معنوي أو روحي؛ فإن خرج العلم عن حدوده هذي فهو حينئذ يضل أو يضلل!! ويكون على الأقل مدعياً لأكثر من وظيفته ويكون مثله في ذلك كمثل رجل أراد أن يتكلم بلغة لا يعرفها ولم يتعلمها، فتكون كل محاولاته في التخاطب بها سلسلة من الأخطاء والأكاذيب والادعاءات.

وأما المال، فندعو إلى استخدامه كوسيلة – ووسيلة فقط – لسكان الأرض يعينهم على القيام بواجباتهم وأغراضهم الأدبية والمادية: من شخصية وعائلية واجتماعية وإنسانية عامة.

هذا، ولا أقول أني نبي يوحى إلي، أو أني المسيح أو المهدي المنتظر أو شيء من هذا كله، أو كما قلت في كتابي "الوجود" (المطبوع بمصر سنة ١٩٤٧):

إني لا أدعي إليك بأني أملك الحقيقة وحدي؛ فإن هذا مطلب لا يقول به إلا رجل دعي، أو رجل بعقله دخل أو من لا يقدر الحقيقة قدرها. فإن أحدا من الناس لا يملك الحقيقة وحده ولا يبتكرها ولا هي وقف على عقله أو مقصورة على فكره مهما عظم فكره أو جلت مواهبه، وإنما الحقيقة هي التي تملك سائر قلوب الناس وعقولهم، وتنبثق في روعهم انبثاقا يناسب استعدادهم ومواهبهم، وهي التي تتجلى إلى قلوب الناس، وتشع من أضوائها الخالدة على عقولهم جيلا بعد جيل، وفردا إثر فرد، متبعة في ذلك نظام ترقي الإنسانية وتدرجها إلى الكمال والحقيقة وهي التي تغمر بفيضها الجذاب جميع القلوب والأفئدة على السواء بحيث لا ترى كائنا من الناس، جاهلا أو عالما، ساذجا أو حكيما، إلا وفي مستقر فؤاده لمعة من حقيقة وعلى طرف لسانه كلمة من

حكمة قل نصيبه من ذلك أو كبر.

وبعد..

فهل مستبعد أنت أن تنظر السماء إلى الأرض بعين الإشفاق كرة أخرى فتجدد لأهلها كيان اجتماعهم الإنساني وعوامل حياتهم ورقيهم وتنتشلهم من هذه الفوضى المريعة، وتنقذهم من مخالب بشريتهم الحيوانية والرضوخ إلى أخس وأدنأ ما فيهم من غرائز؟

ومن للأرض غير السماء يا ترى، تتداركها إبان أزماتها، التي تسبق حتما كل تغيير جديد في سيرها إلى الترقي، وكل دور انتقال من حال إلى حال ومن عصر إلى عصر؟!

ومن للنفس الإنسانية ينتشلها من حيرتها وشكوكها وضلالها وسائر أسباب شقوتها غير السماء؟

ومن لها من منقذ سوى هداية مبدعها وبارئها الرحيم؟!

ومن لذلك العقل الضئيل المتشامخ، يهديه إلى الصواب، سوى ذلك المدد السماوي الذي يهبط مباشرة إلى ذاته الإنسانية، من ذات الوجود الكلي الأقدس، فيأخذ بيده إلى الحق الواضح؟

وأي منقذ لتلك البشرية التعيسة التي كلما بزغت لها شعاعة من نور أو يقين؟ أطفأتها كسف من ظلام التيهات، وغواشي المطالب الدنيئة، غير تعليم إلهي قويم نزيه متزن خلو من الغرض، يضيء لها جوانب الحياة ويهديها سبل السلام؟

وذلك لن يكون إلا في محيط المعتقد الحق والفلسفة السوية والعلم المستقيم.

ولا يعجبن أهل الغرب من قيام شرقي بإذاعة مثل هذا النور والحق؛ فتلك سنة

الشرق دائما تسير مع التاريخ وأدوار الانتقال العظمى جنباً إلى جنب.

ولا غرابة ولا عجب في أن يخلص بعض رجال الشرق في الحب والهداية لأبناء أخيه الغرب، فيبادله عطفا بكبريائه، ورحمة بقوته، وإحسانا بإساءته ونورا بظلامه، وتعاونا وإخاء بتنازعه وأنانيته!!

وقبل أن ندلي إليك بما هدينا إليه من فكر، وما ارتأيناه من رأي في حقيقة الدين والفلسفة والعلم، وشمول جوها جميعا كوحدة وجودية سامية ذات أضواء مختلفة، نرى أنه يجدر بنا أن نقدم لك بين يدي ذلك، تمهيدات أولية نستعرض فيها معا أفكار من تقدمونا في هذه البحوث، ويعتد برأيهم، سواء في الدين أو الفلسفة أو العلم، وذلك هو ما تصدينا له في كتابنا هذا وقد مر بك أن الكتاب الأول يختص بتحليل قواعد الديانات وتطورها والثاني يختص بالفلسفات، والثالث يختص بالعلوم.

ونبحث في الوقت نفسه عن منابعها الحقيقية، وعما عساه أن يكون بين الدين والفلسفة والعلم من صلة. ثم نلم إلماما وسطا يؤتي بالفائدة ولا يمل بتاريخ الديانات المعروفة لنا منذ القدم، وتطورها في سائر تقلباتها، وما زاد عليها من عقائد، وما اكتنفها من رموز وطقوس وأساطير. معقبين على ذلك بما يكشف عن وجه الصواب بقدر ما يسمح به المقام. ثم نفعل مثل ذلك بالفلسفة فنذهب بك إلى أبعد عصورها ونراقب ما تطورت إليه من أدوار ومدارس، وما زيد عليها من فكرات ونظريات، أو نقص أو تحول، ثم نناقش ما يعن لنا مناقشته من مذاهبها سواء في عصورها الأولى أو في عصرنا الحاضر.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى ميدان العلم فنشرف بك على تطوره خلال الدهور وما بلغه بأسلوبه الحديث، من تقدم وكشف وارتقاء وما بني على ذلك من نظم غير بها من معيشة الناس وعقائدهم وطرائق تفكيرهم!! ثم نتقدم صعدا معا إلى

حضارتنا الحالية التي شيدها لنا العلم الحاضر على أنقاض الدين والفلسفة ناظرين فيها بعين الباحث عن الحقيقة نفسها، الباحث الذي لا يتجانف ولا يتحيز، ولا تشغله قشور المظاهر عن الباب الحقائق، لنرى وإياك: هل العلم بحالته الراهنة ونهجه النفعي المحض، قد وصل بالناس إلى سعادتهم الحقيقية وتمدينهم الصحيح الذي يزعمه، وهل أغنى – بأساليبه ووسائله المعيشية المغرية – عن الدين والفلسفة في ذلك؟ فرفع من شأن إنسانيتهم وتسامى بذواتهم وزاد في ثقافتهم العقلية والأدبية؟!

أم أنه قد زاده شقاءً على شقائهم، وبلبلة وارتباكا فوق بلبلتهم وارتباكهم؟! وهل أكسبهم بعد نظر في عرفان حقائق الوجود وعلله وفي أصل الإنسان ومصيره؟ كما يدعي أيضا مما ليس في طوقه ولا هو من وظيفته؟.. أم حاد بهم عن حدود الفطرة ونعيم الروح، وهدى الوجدان ومنطق العقل السليم إلى سطوح الأشياء ومظاهرها وهوى الحواس ووحي الغرائز؟

كل هذا الجهد نفعله لغرض واحد: هو أن يلم القارئ لكتابنا هذا والمتابع والناقد معا وخصوصا الذين قرءوا كتاب "الوجود" – المطبوع في مصر سنة ١٩٤٧ – بحقائق تعاليمنا وآرائنا في كتابينا الوجود وهامشه في مجلداته الثلاثة، على ضوء المقابلة والموازنة والشمول في البحث.

وأخيرا.. تحيتي لكل فرد في الإنسانية وافق رأيه رأيي أو خالف اتجاهه اتجاهي، والسلام على من اتبع الهدى...

المؤلف

حدود المعرفة الإنسانية في محيط الكفايات الإدراكية

المعرفة هي المحيط الواسع الذي تشترك فيه كل العلوم وتقارب فيه سائر الكفايات وتتشابك.

وقد يظن الإنسان العادي ويعتقد أن الدين علم، وأن الفلسفة علم، وأن العلم علم، وهذا الاصطلاح لا يصدق تماما على الحقيقة، لأن الاصطلاح الجامع الذي تعارف عليه الدين، والفلسفة، والعلم هو المعرفة، فالعلم بالدين ضرب من المعرفة، والعلم بالفلسفة على أنواعها وفروعها هي أيضا ضرب من ضروب المعرفة، والعلم على شتى فروعه من طبيعية ورياضية ونفسية هو أيضا يعتبر في مجموعه ضربا من ضروب المعرفة الإنسانية.

وعلى هذا يتضح دون خفاء أو التباس أن المعرفة هي المحيط الواسع والميدان الذي يتلاقى فيه فروع الدين وأصوله وكذلك ضروب الفلسفة ومذاهبها وسائر قضايا العلم مهما تنوعت وتفرعت.

والوجود لدى الكفايات الإنسانية وبالأخص لدى العقل من ناحية معرفتنا عنه يقسمه العقل إلى وجود ضروري أو وجوبي، ووجود إمكاني أو وجود ممتنع، وبعبارة أخرى إلى واجب وممكن ومستحيل، وسمي العقل هذه الضروب للمعرفة فروضا.

الفرض الضروري:

فالفرض الضروري هو ما قام بنفسه، وتم به قيام غيره، فكان مقوما حقيقيا لنفسه أو لغيره.

الفرض الإمكاني:

والفرض الإمكاني هو الفرض الاحتمالي الوجود والعدم أي هو الفرض الذي يستوي فيه طرفا الوجودية والعدمية، ويسمى أيضا الفرض الجائزي أو الاحتمالي الخ.

الفرض الاستحالي:

والفرض الاستحالي هو الفرض الممتنع الوجود الذي لا يتصور الذهن وجوده ويكون حكم العقل عليه مطلق الاستحالة.

مجال النفي والإثبات:

ومجال نفي شيء أو إثباته، والحكم عليه بضرورية الوجود أو إمكانيته أو استحالته هو نفسه المجال الذي تقع فيه عمليات الكفايات الإنسانية.

الكفايات الإنسانية :

والكفايات الإنسانية ثلاث على التحقيق وإن جعلها العلم الأوروبي كفايتين والحس، والعقل، لولا أن الإنكليز منهم تكلموا عن الذوق الفطري وقالوا بالحاسة السادسة ويعنون بذلك مجال الوجدان.

١- كفاية الوجدان والبصيرة:

أو الشعور الفطري أو ما تسميه أنت من هذا القبيل، ويمكن أن تطلق عليه أيضا كفاية المعتقد.

٢- كفاية التأمل:

والكفاية الثانية هي كفاية الإدراك الذهني ويمكنك أن تسميها كفاية التأمل الفلسفي وهي الكفاية التي يقوم عليها الحكم العقلي نفيا وإثباتها، وأداتها المنطق ومجالها الحقيقي عالم الفلسفة.

٣- كفاية الإثبات:

وكفاية الإثبات العلمي هي الكفاية الحسية وأداتها في الإنسان حواسه الجنس وسميت كفاية الإثبات العلمي لأن العلم حسب تعريفه موضوعي احتمالي تجريبي لا يزيد فرضا إلا إذا أثبتته التجربة الحسية.

وعن هذه الكفايات الثلاث:

(١)كفاية المعتقد. (٢)كفاية التأمل . (٣)كفاية الإثبات العلمي.

تنتج ثلاث صور من المعرفة:

فعن كفاية الاعتقاد تنتج صورة الدين، وعن كفاية التأمل تنتج صورة الفلسفة، وعن كفاية الإثبات تنتج صورة العلم. وإذاً يكون الدين والفلسفة والعلم ثلاث صور وضعت لتدل على ثلاثة مناهج معينة من المعرفة الإنسانية، وإن كانت تجمعها جميعا أرومة واحدة وهي المعرفة وتنشدها هدفا واحدا هو الحقيقة وإن تغايرت المناهج والأساليب.

منذ جبل الإنسان على صورته الحسية، ومن غمرت هيكله صورته المعنوية فطر على أن يشرئب ويتسامى بنفسه ليستشرف على قوة أكمل من قوته، وصورة معنوية أكمل من صورته يدين لها بالخوف والحب والطاعة، وقد تكون

تلك العاطفة أسبق ما غرس في نفس الإنسان من عواطفه منذ بدأ التاريخ وتآلف المجتمع.

فكما أن الإنسان كائن اجتماعي بالطبع فهو كذلك كائن معتقد بالطبع، ومعنى ذلك أنه جبل على أن يكون ذا عقيدة في صحة شيء وفي بطلان آخر وحب احتفاظ الإنسان بكيانه الاجتماعي وكمال حياته الداخلية والخارجية دفعه ذلك إلى الموازنة بين ما يعيش فيه من ظواهر وما تستشرف نفسه إليه من حقائق تسود تلك الظواهر وتقودها وتسيطر عليها، وهذا يضطره ضرورة إلى الاعتقاد بصحة عدد ممتاز من الحقائق الوجودية التي يرجحها استقراؤه الوجود أو استنتاجه على حد سواء، وعلى هذا فلا بدع أن يكون الدين هو أقدم النزعات النفسية والعاطفية في الإنسان من حيث أنه دائم النزوع إلى التسامي – شعر بذلك أو لم يشعر – وحسبنا أنه ينشد في وجوده غاية.

إذا انصرفنا عن عالم المعتقد وولجنا عالم التأمل تبين لنا أن الإنسان كما هو كائن معتقد بالطبع واجتماعي بالطبع، فإنه أيضا متأمل بالطبع، على أن التأمل في نفسه لا يتصور نشوءه إلا عن معتقد أو لأجل اعتناق معتقد.

وهكذا قد يبدأ معتقد الإنسان معتقداً تقليدياً أي عن طريق تقليده لغيره من آبائه وأجداده غير أنه حين يشب ويتأمل في حقائق الوجود نفسها إن كان من أولى الوعي فيتبدى له التأمل متكشفا ومترقبا به في آن واحد، وهنا تبدأ منطقة الإثبات والنفي، فإذا اعترى الإنسان الشك في حقيقة شيء مما يعتقد وأخذ في ضروب التأمل يستعرض حينئذ المبادئ التي يقوم عليها اعتقاده ومقدماتها الفكرية، بغية أن يبني عليها نتائج يقينية ناشئة عن تأمله، وبذا يرسخ يقينه فيما يعتقد أو يشك، أو يأخذ في طريق يتلمس فيه ما يوفق به بين معتقده وبين استنتاجه أو استقرائه الناشئ عن تأمله أو قل يوفق بين تدينه وتفلسفه،

غير أنه في الواقع يعز عليه أن ينقي الدين، كما يعز عليه أن يلغي أحكام العقل فمن ثم يحاول المزج بينهما، وإنما هذا المزج في نفس الوقت جد خطير قد يتخطى دائرة مجرد المزج المستساغ إلى دائرة المزج بين الحق والباطل، وقد يؤدى شكه المؤقت إلى منطقة خطيرة من الشك المطلق، فيعود لا متدينا حقيقيا، ولا متفلسفا سويا.

ومن الحق أن يفكر الإنسان فيما يعتقد، بل هو الأجمل والأصح، وأما أن يخلط أو ينتهي إلى الشك المطلق فهذا أسوأ ما في الأمر، لأن الشاك مطلقا يشك في قيمة نفسه قبل أن يشك في حقائق الوجود، ولذا كان أكثر الشكاك من المتفلسفة ينتهون غالبا إلى اللا أدرية الماحقة للمنطق السليم ومعنى ذلك أنه يدري ولكنه لا يدري أنه يدري، وصدقني أن الشك في نفسه دين رجح صاحبه أن يعتنق دين الشك ويؤيده ويدافع عنه كأهل العقائد الصحيحة تماما. وأكبر منه وثنية وكفرا ذلك اللا أدري الذي جرد كيانه ولو نظريا من ذاته المدركة التي تدري لكونه اعتقد دينا لا أدريا فسله هل تدري أنك إنسان فيقول لك على الفور: "لا أدري؟!" "وهل أنت تدرك أنك تدرك؟" فيجيبك: "لا أدري". ولعلك حينئذ أن تجيبه أنك لا تدرك أنك مدرك ولا تدري أنك تدري فأنت معذور في جهل ما حولك من حقائق إذا كنت تجهل وجود نفسك وقيمة نفسك المدركة والتي وظيفتها في الوجود أن تدرك لتدري.

وثالث الكفايات هي كفاية الإثبات أو الحس أو قل التجربة الحسية فإذا شك الإنسان في نتيجة معتقده أو نتيجة تأمله جنح إلى الخبرة الحسية التي نشأ عنها الأسلوب العلمي الحديث وانحاز إلى الطريقة الإثباتية العلمية التي تستمد قوتها من وحي الحواس تحديدا لها عن وحي التأمل أو وحي المعتقد. والحواس كثيرا ما تخطيء وقليلا ما تصيب ولذا استعان الإنسان ليبلغ بحواسه أوسع مدى

بحواس آلية مساعدة كالميكروسكوب والتليسكوب والسبكترسكوب.

ومن المعلوم أن كفاية العقل أوسع مدى بالضرورة من كفاية الحس وكفاية الشعور الذاتي أو البصيري، وبعبارة الذوق الوجداني أو الفطري أصدق منهما وأوسع مدى لتعلقه بالعقل الباطن في الإنسان وهو العقل الأكبر الذي كانت كفاية الإدراك العقلي، وكفاية الإدراك الحسي عبارة عن فرعين متفرعان عنه.

والفرض الضروري لدى العقل هو الحد الذي يقصر العقل نفسه على التسليم به ليحتفظ بألفته العقلية عن طريق ذلك التسليم ثم يليه العلم الذي يضطره إلى التسليم مع العقل بصحة الفرض الضروري ولو أنه يعجز عن إثباته بطرقه العلمية المعروفة. والفرض الإمكاني يحتمل أن تكون له حقيقة موجودة في الخارج ويحتمل أن تكون له أية حقيقة.

على أنه يجب أن يعلم القارئ أننا لو قلنا أن جميع فروض العلم إلا القليل منها فروض إمكانية احتمالية بحتة لكننا من الصادقين.

هذا مع ادعاء العلم على حسب أسلوبه الذي حصر فيه نفسه أن كل ما لا تدركه الحواس لا يمكن أن يكون صحيحا، وذلك لتشبث العلماء في القرن التاسع عشر بأحكام الحواس الخمس تلك الأحكام الكلاسيكية التي طغت عليها موجات الطاقة الذرية وتحول المادة إلى إشعاع فجعلته هشيما كأن لم تغن بالأمس شيئا.

ولهذا يقول هربرت سبنسر: إن الحواس في الإنسان ناقصة لا تؤدى إلينا من الإدراك إلا ما يقوم مقام الفرض الإنساني الصرف في كثير من الحالات، ولقد عدد العلماء حقائق كثيرة نحن مجبرون على الاعتقاد بصحتها في حين أن العلم يعجز عن إثبات وجودها بل عن معرفة حقائقها أو عللها (الخفية) فمثلا

قانون الجذب والدفع الذي يزعم العلماء توقف وجود المادة عليهما، ولا شك أن الدفع والجذب حقيقتان طبيعيتان مقررتان (وجود المادة) صح علميا، لأننا إذا أخذنا جسما صلبا وأردنا أن نفصل بعض أجزائه عن بعضها فإنه يقاومنا وكذلك يقاومنا إذا أردنا أن نضغط بعض تلك الأجزاء مثبتا بذلك أنه يتركب من دقائق تتجاذب وتتدافع في آن واحد.

ومع ذلك فإننا لا نفهم كيف أن دقيقة واحدة تجذب أخرى في حين أنها تدفعها وتقاومها وإذن فما الحقيقة؟ ما العلة؟ ما الفاعل؟.. كل هذا في منطقه ما يجهله العلم.

ومع ذلك فإن الاعتقاد بذلك الفرض إلزامي في نظر العلم، ويقول العلم – برغم جهله للحقيقة عن هذه القاعدة – أنها فرض ضروري للعقل مقصور على التسليم به..

وإذن فالعلم مقصور أيضا على الإيمان، ولا أقول التسليم فقط بما يعجز العلم عن إثبات حقيقته. ويدافع العلم عن نفسه قائلا: إن كثيرا مما لا يمكن أن يدركه العالم من القوانين والنظم يجب أن يعتقد العالم بوجوده أن لولا هذا لتحلل هيكل النظام العلمي.

وإنا لنعجب كيف يتلكأ إنصاف العلماء في فرضية الإيمان بإله ينظم الكون ويرعاه ووجوده فرض ضروري بل وجوبي، محتجين بأن العلم لا يؤمن إلا بقانون الحواس الخمس حالة أن سائر الحقائق العلمية، ومنها الطاقة الذرية، إلا ينصب عليها قانون الحواس الخمس تماما، وإن ما كشفه العلم من حقائق الوجود لا يشبه لنا إلا بعض العلم عن الطبقة الظاهرية القشرية لبصلة تكونت من طبقات عديدة، وإن الوجود في الواقع وفي الحقيقة لأوسع في حقائقه وغرائبه وخفاياه من المجال الذي يسبح فيه الإدراك الحسي ومعه الإدراك العقلي

ومنطقاهما وأدواتهما جميعا.

فإذا كان ألفة العقل البشرى ومنطقه يتطلبان سببا أوليا للعالم المرئي، وإذا كان كل مستطاع العلم والعقل مجرد الكشف عن ظاهرات وقوانين كونية لا يدرك العلم ولا يدرك العقل حقائقها الأساسية، ولا مبعثها أو نبعها الأصلي حالة أن الألفة العقلية والاستقرار العلمي يقرران أن لا بد للعالم المرئي من علة أولية غير مرئية تنشأ عنها العلل الثانوية والقوانين الطبيعية كما لو كانت تنشأ عن إرادة عاملة منظمة.

فإذا كان ذلك كذلك، وإذا كان هو الرأي الأوحد الجامع للألفة المطلقة ألفة العقل وألفة الدين وألفة العلم؛ فإن في هذا من القوة ما يجعل تلك الحقيقة حقيقة قطري تساوق الوجود في منشئه وتلابس النفوس البشرية في صميم شعورها. وهذا نفسه ما يصوغ لنا أن نبدأ البحث بتحليل عاطفة التدين أو نشوء المعتقد في سائر الديانات منذ بزوغ فجر التاريخ إلى الآن.

مبحث في معنى الدين والتدين

إن التدين إذا أريد معناه الكلي هو الرضوخ والدينونة لعقيدة ما متوحدة أو لعدة عقائد مختلفة تستمد من معين واحد وإن تعددت أنهاره وجداوله بحسب نزعات الناس وألوان تفكيرهم، وما اصطلحت عليه الشعوب من الطقوس والتقاليد الدينية المختلفة. ولقنت البشرية منذ بدء الخليقة كلمات: الله، روح، دين، تقي، ثواب، عقاب.. حقيقة إلخ!!

فالدين بمعناه العام، هو ناموس أبدي مطلق كامنة بذوره في كل نفس حية مدركة، وهو يشمل في محيطه الواسع بذور كل ديانة وملة قديمة أو حديثة. وأساسه وحدة الخالق وخلود النفس والحب، وضبط معاملة الإنسان لأخيه على قاعدتي العدل والإحسان، ثم اعتقاد وجود الثواب والعقاب في عالم غير هذا العالم.

ولكل دين ظهر في الجامعة الإنسانية مهما كان نوع تعاليمه، وجهان من التعليم: وجه سري باطني، وآخر ظاهري طقسي. فأول ما عبد الإنسان إنما عبد الله الحق الواحد الأحد، على أبسط أشكال العبادة وأصفاها ثم تحدرت الديانات القديمة تدريجيا على أيدي رجالها متطورة من أعلى إلى أدنى، من توحيد خالص إلى وثنية وشرك بشيوع الرموز وإخفاء الحقائق، واختراع الطقوس المادية المبنية على استعارات وهمية وأحاديث خرافية مضافا إليها بعض الحقائق الدينية الأصلية اخترعها وارثو هذه الديانات من عند أنفسهم، ليموهوا الحقائق على عقول العامة والبسطاء بإخفاء حقيقة التدين وإصهار الرموز بدل الحقائق

النظرية.

وجميع الديانات، حتى القديمة منها المتصلة بأعماق التاريخ البشري، قد خرجت رجالا فضلاء تكونت مبادؤهم على توحيد الخالق والعمل الصالح فأدهشوا العالم بسمو أفكارهم وعظم أعمالهم ومتانة أخلاقهم وترفعهم عن صغائر عالمنا الأرضي إلى سماء المعرفة الحقة واليقين الصادق، والإيمان الخالص من شوائب الأوهام والأساطير. وبذروا بذور السمو الأدبي والرقي الروحي والحكمة والمعرفة الإلهيتين في أنحاء المعمورة إذ ذاك.

وكان غرضهم جميعا إرشاد الجامعة الإنسانية إلى طريق الحق والروح والخير والكمال، ومن أولئك: الأنبياء والرسل الذين كان يبعثهم الله منذ قام التاريخ بعثة الرسل للبشر حينا بعد حين كلما خبا نور الروح الإلهي وراء أقذار البشرية والرموز الكهنوتية، وكلما وضع مصباح [1] الروح تحت مكيال المادة، وطمست معالم القانون الأدبي، ليقيموا منار الهدى وينعشوا روح التعاليم الإلهية، وينقذوا التوحيد من براثن الشرك والأساطير؛ فعددهم لا يحصى لأنه كبير جدا متوال خلال الأدهار والعصور، ومن أخصهم وأعظمهم الرسل المكرمون: آدم، ونوح، وإدريس، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومُحَمَّد، سلام الله عليهم جميعاً، وأولئك أولو العزم من الرسل.

فمن الحكماء الذين كادوا لحكمتهم أن يكونوا أنبياء: حرسنا (كرشنا)، وبوذا، وهرمس، وزوروستر (زرادشت).

---

(1) وضع المصباح تحت المكيال كناية عن ستر الحقائق الإلهية بالرموز الطقسية ولذا قال المسيح عليه السلام (لا تضعوا المصباح تحت المكيال) .

ومن الفلاسفة: طاليس، وصولون، وسقراط، وأبيقور، وفيثاغورس وأفلاطون، وأرسطوطاليس.

وكل هؤلاء وأولئك يمثلون مدرسة واحدة تعمل لنشر تعليم واحد هو وحدة الله ووحدة المعتقد ووحدة الإنسانية، وترقية الروح إلى معارج القدس وتطهيرها من خبائث الصغائر الأرضية وذلك هو المحور الجوهرى الذي تدور حوله سائر تعاليمهم وإن اختلفت مواقع أنظارهم ومناهج تعاليمهم، فإن الغاية واحدة سواء جاء التعليم في شكل دينى رباني أو في شكل تعليم حكمي فلسفي ميتافينيتي. وتلك الغاية هي: إقامة المعتقد على التوحيد الخالص وديمومة العبادة للواحد الأحد بالروح والقلب وجوارح الجسد.

ألم تر أن سقراط العظيم، وهو معدود في عداد الفلاسفة، وكان شعبه معددا للآلهة، مات محكوما عليه ضحية تقرير توحيد الخالق الذي يرى ولا يرى وهو خلف كل تلك الأكوان والرموز والآلهة والأصنام، وإن كان لا تغيب ذرة من ذرات هذه الكائنات عن حضوره بعلمه وسلطانه وقهره لدى جميعها وجميعها مشهود له ومقدور.

وقد علموا جميعا بأقوالهم وأفعالهم أن التدين الحقيقي لا يقوم على الطقوس الحقيقية والرموز والترهات، وإنما يقوم على صفاء الروح ونقاء السريرة واتجاه النية وإخلاص العمل المعبود الحق، وكبح جماح النفس ومباينة أهوائها في الفرد والجماعة، ويقوم على الحب والتواضع وأعمال البر والإحسان والتسامح لسائر أفراد الإنسانية بعد تنزيه الله عن المماثلة والمشاكلة وأنات الزمان وحدود المكان، وبأن التضحية والقربان الحقيقي المقبول عند الله ليس إلا تضحية ميولنا الشريرة وأهوائنا المضلة وضبط النفس والسعي الحثيث إلى تكملنا الأدبي وتعلق أرواحنا بعالم أعلى لا تدنسه مقاذر أرضنا الفانية.

وذلك هو الدين الفطري المطلق والتعليم الإلهي الحقيقي الذي دارت حوله نجوم النبوة والرسالة، وأقمار الصديقية والولاية والحكمة، والذي يقوم في جوهره على توحيد الخالق وتنزيهه وطهارة النفس وصلتها بمبدعها، ثم حب الإنسان لأخيه الإنسان!! وذلك هو الناموس السرمدي الخالد الذي رن صداه قديما في أروقة المعابد والهياكل وبين جدران جميع مدارس الحكمة والمعرفة، والذي علم به جميع الأنبياء والرسل والأولياء والحكماء الإلهيين متحدثين متفاهمين، لا خلاف بينهم على المبدأ والغاية والحقيقة، ثم ظهر أخيرا جليا واضحا متواليا ومترقيا في رسالات إدريس وإبراهيم وموسى والمسيح ومُحَمَّد، ذات الكتب المنزلة والمظهر الكامل والحقيقة المشرقة.

ذلكم هو دين الله، الدين الحقيقي العام الذي بزغت عنه جميع الأديان والذي ستفنى فيه سائر مظاهر التعصب والتحيز، وهو المبدأ الذي كان منارا للإنسانية قديما وحديثا وإن تغايرت مناطق أو اتجاهات إشعاعها، وها قد تبين لك مما تقدم من القول الحق أن الأديان جميعها سلسلة واحدة مترابطة الحلقات في سلم الترقي وهي تمثل سيالا واحدا من النور لا لون له إلا الصفاء وإن تعددت المرايا التي يظهر على سطوحها وتعددت ألوان أطيافها، أو كتيار كهربائي واحد يضيء مصابيح عديدة، ولكل مصباح لونه الخاص به، أو قل كفيض من الماء لا لون له سوى الطهور والتضوؤ والإرواء والإحياء وإن كان في زجاجات مختلفة ألوانها!!

وكذلك يلونون الدين ظاهرا بحسب أمزجة الشعوب وتقاليدها وبيئتها، وبعبارة أوضح أن الدين في معناه المطلق وإن تنوعت طرائقه هو تعليم واحد يلبس صورا عدة بحسب تطور الإنسانية ورقي العقل البشري.

وكما أن الحقيقة المطلقة في المنطق السليم واحدة، وتحتها حقائق نسبية

متعددة، فكذلك الدين، وما هو بغريب عن حقيقة الحقائق، هو وحدة تعددت مظاهرها.

ومؤسسو الأديان جميعا وكذلك سائر الرسل والأنبياء بأسرهم، إنما كمائلة واحدة يمثلون عائلة واحدة ذات أفرع وأغصان، وذلك هو الواقع بالفعل "أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت، إذ قال لبنيه: ما تعبدون من بعدي؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون"

غير أن أتباع أولئك القادة والمشرعين العظام والرسل الكرام، قد قسموا العلم الديني إلى قسم جوهري سري يحتفظون به لأنفسهم، وآخر طقسي ظاهري رمزي يلقنونه لشعوبهم، وبذلك يكونون قد حادوا – إلا من هداه الله منهم وارتضى – عن سبيل معلميهم الأطهار، وانحطوا إلى حضيض الشرك والوثنية، وألهوا قوى الطبيعة بل ألهوا الأشخاص أمواتا وأحياء والتماثيل والحيوانات والهوام، وأنابوا أنفسهم عن الواحد الأحد، وادعوا حلوله فيهم دون توكيل أو تفويض من شريعة أنزلها "وما الله بغافل عما يفعل الظالمون".

وقد نسوا أو تناسوا تعاليم معلميهم السامية ولم يحفظوا الوديعة الدينية الروحية التي تسلموها نقية نظيفة من أسباب الفساد والخداع، وقد علمت أنهم قسموا الديانات إلى تعاليم سرية تحوي حقائق الوحدة وأسرار الروح، وأخرى ظاهرية تحوي الطقوس والتقاليد والرموز، وبذا فقد الدين بساطته الأصلية، وتوارث حقائقه خلف حجب الرموز وأصبحت نسيا منسيا!!.

وصارت التعاليم الدينية كأنها أرضية لا سماوية، وبشرية لا إلهية، تدور حول المادة وأسبابها، وحتى إذا عبد الله أو شكر لا يكون مقصود ذلك الكائن العابد المحجوب سوى إنماء النعم الحاضرة لديه في الدنيا أو الجزاء الطيب في الآخرة.

ومثل الدين في بساطته ونقاوته الفطرية كمثل الندى النقي الهابط من السماء على أعالي الأشجار، يظل نظيفا نقيا ما دامت تحمله أوراق نظيفة بعيدة عن غبار الأرض، فإذا سقط على الأرض أصبح وحلا مختلطا بالرغام. وكذلك الدين يكون طاهرا نقيا ما دامت تحمله نفوس طاهرة وقلوب نقية، فإن هبط إلى قلوب المغرضين وذوي المصالح الشخصية تلون بصبغات أرضية، وفترت حرارته، وخبا نوره ومال إلى الإسفاف وضروب النفاق والرياء بل وضروب الشرك والوثنية.

ومثل أهل المطامع من رجال الدين في ذلك كوارث ورث عن أبيه الذي كان صالحا تقيا كمية من الدواء عظيمة النفع في شفاء المرضى ورده للصحة السوية فأضاف عليه من عند نفسه – لطمعه وجشعه – مقدارا كبيرا من الماء يضاعف كمية الدواء أضعافا مضاعفة، ولكنه في الوقت نفسه يقلل من نفعه، وصار يبيعه طلبا للربح بعد أن كان مجانيا بمقادير مقدرة أثمانها وهو يزعم أن فيه الشفاء. ولم يدر أنه قد أصبح سائلا من السوائل لا فائدة فيه ولا نفع، وإن كان لا يضر فهو لا ينفع، بل الضرر هنا مؤكد، وقد ضاعت قيمته الدوائية لما أضيف إليه من سائل غريب عنه.

فماذا نصنع لو أردنا الإصلاح؟

الجواب كلمة واحدة، وواحدة فقط وهي: أن قطر الدواء ثانية لتخليصه من السوائل الغريبة عنه التي قد لا تضر ولا تنفع، ولكن المحقق ضررها بحالة أكثر من نفعها، وحسبك أنها إضافات غريبة عن روح التدين الحق؛ فكل من يقدر التدين الحق من عالم أو متابع يجب أن يفهم ويلم بنتائج هذه الكلمات. والأرض لا تخلو على كل حال من صالح أو من مصلح. والدين لا يفنى من

الأرض ولا يضعف في جوهره وحيويته مهما حاربه أو عمل على هضمه أو إضعافه المبطلون.

في وحدة الدين والفلسفة والعلم

الدين: الدين على أنه كائن مطلق من كل لون أو حيز أو صبغة خاصة، هو أقدم النزعات السامية في الإنسان، لأنه ألصقها جميعها بذاته وأقدمها ملازمة لتاريخه ثم أعمقها غورا في وجدانه، وأقواها رسوخا في جبلته. قد فطر الإنسان على أن يدين بعقيدة ما، وإن جهل مصدر تلك العقيدة. وعندما فتحت عينا الإنسان على هذا العالم لأول مرة ورأى عظمة السماء ولألاء النجوم، وزر الشمس، وضوء القمر، وسعة الأرض، وسموق الجبال، وجلال البحار، وتعاقب الليل والنهار، فكر في عجائب الحياة والموت ورهبة المصير، فأدهشه كل ذلك وأخذ بلبه.

ولما لم يقو على تعليل تلك الأسباب بعقله الساذج ولا الوصول إلى حقيقة مبدعه ولو بخياله، وشعر بضعفه وضآلته إزاء تلك العظمة والقوة، خر ساجدا لمبدع هذا الوجود وخالقه ومنشئ نظامه، وعبده عبادة مهمة على أبسط أشكال العبادة وأقربها إلى الفطرة معترفا بأن ما يعبده إنما هو فوق عقله وإدراكه، وإن غير وجدانه وقلبه تيار الشعور بوجوده وجودا مطلقا دون قيد أو تحديد أو رؤية!

فأول عبادة الإنسان للخالق كانت عبادة بسيطة فطرية قلبية مطلقة عمادها الوجدان ومظهرها الخشوع، لأنه كان يعبد قوة مجردة خفية، منزهة عن الحدود والكيفيات، ويجد في الاستئناس بها حماية وقوة وفي البعد عنها ضعفا وضآلة وحيرة. كان ذلك قبلما صنع لإلهه تماثيل وأصناما تمثله ظاهر أعلى

الأرض ويتخيل معبوده متحيزا فيها فيطمئن إليها ويتشفعها زلفة لمعبوده الأعلى الحقيقي، ويتمثل ذلك في شخصيات حية وكائنات غير حية أو في أرواح الأموات التي يعتقد باطلا أنها تتقمص وتتناسخ ترقيا في أجسام الحيوانات والهوام والحشرات المتعددة.

وخلاصة القول في هذا المقام أن الإنسان في أول الأمر عبد إلها حيا غير منظور ثم فلسف في خصائص ذلك الإله وحول ذاته أو جعل له هيكلا مجسدا يحل فيه فكان هذا سبب سائر ضروب الوثنية وأشكالها. فالدين على إطلاقه في فطرة الإنسان أقدم من العلم ومن الفلسفة وألصق منهما بشعوره ووجدانه، بل قل إن الفلسفة والدين هما فرعا شجرة واحدة تربيتها المعتقد، ثم النظر، ثم البحث عن طريق الدين، أو النظر، ثم البحث ثم الاعتقاد[٢] من طريق الفلسفة، وجذورها التأمل، وجزعها اليقين [٣]. ولا مشاحة في أن العلم، وهو وليد الفلسفة، ناشئ عن البحث فالتجربة فالاعتقاد أيضاً.

وأنت أينما اتجهت بفكرك متأملا في هذا الوجود تجد هواتف الدين في مركز الصدارة، ثم الفلسفة وألوان منطقها عن يمينك، وتجد العلم، وتفاريع تجاربه عن يسارك؛ فمغرس الدين نوازع الوجدان وانعطافاته، ثم لمح البصيرة – وبذور الفلسفة التأمل بالفكر – وأهدافها التثبيت العقلي.

وعلى هذا يكون الدين والفلسفة قد تسلما من أوليات الوجود وبداهته، قضاياهما الأساسية في شكل تصور واعتقاد، ثم أيقن كل منهما بعد التأمل بما اعتقد؛ فالاعتقاد في الواقع كم مشترك بين الدين والفلسفة وهو وإن اعتبر بداية

---

(٢) الاعتقاد هو التصديق الناشئ عن التصور، فالترجيح الذي يليه الحكم ضرورة.

(٣) اليقين هو سكون الذات لأسباب الحكم المستقرة في الذهن أي المعتقد.

في الدين فإنه يعتبر أيضا نهاية لمناهج الفلسفة لاسيما فيما وراء الطبيعة. وهما يشتركان أيضاً في اليقينية الغائية العامة الناشئة عن نتائج المعتقد ونهايات أبحاث الفلسفة العليا في حقائق الوجود وفي سببه الأول. وفوق هذا وذاك فإن منبع الدين والفلسفة واحد، وإن تغاير الأسلوب والاتجاه، فقد اتجه الدين من باطن الوجود إلى ظاهره واتجهت الفلسفة من ظاهر الوجود إلى باطنه.

ومعنى ذلك أن المتدين استنبط من مشاهد هذا الوجود أوليات أدت به إلى الاعتقاد بصانع له، فاعتقد بوجود الصانع أولا، ثم ذهب يعلل بذلك كل مصنوع. والفيلسوف استنتج من تلك الأوليات نفسها أن لهذا الوجود نظاما دقيقا يشعر بأن لا بد من علة أولية له، فذهب يبحث عن تلك العلة راجعا من ظاهر الوجود إلى باطنه، فواحد اعتمد على منطق الوجدان ، والآخر اعتمد على منطق العقل، ليعللا حقيقة واحدة.

والعلم وهو وليد الفلسفة وثمرة من ثمرات نظرياتها وأبحاثها، وإن كان أسلوبه الذي اشتقه لنفسه من مقدماتها ونتائج قضاياها يغاير أسلوبها تراه هو الآخر يحاول أن يطبق أسلوبه الحسي التجريبي على حقائق الكون وعلله.

ثم إن غرض الدين والفلسفة واحد وإن اختلف أسلوبهما من حيث أن غرضهما أن يرتقيا بالإنسان إلى الكمال، وأن يكفلا له الراحة والهناء، وأن يغرسا في نفسه الأمل والألفة الناشئين عن اعتقاده بعلة سامية، تنظم عالمه وترعاه، وتسن له القوانين والشرائع، وتحفظ كيانه النفساني والجسماني، فالدين والفلسفة يجتمعان في أن كلا منهما يطلب الحكمة والفضيلة فإذا كان الدين قد وضع اللاهوت والتشريع في الطرف الباطن من موضوع البحث المطلق لوجود..

وإذا كانت التزمت العلوم التجريبية ظواهره وعلائق تلك الظواهر فقد

توسطت الفلسفة بينهما بالرياضيات وما بعد الطبيعة وعلم النفس والأخلاق وذلك لإشباع كفايات الإنسان الثلاث: كفاية البصيرة، وكفاية العقل، وكفاية الحس.

فأول كفاية إنسانية ظهرت في الوجود إنما هي كفاية البصيرة وهي الفطرة التي شملت الكائنات جميعا كلا على قدر قسطه، وهي جاع القلب والوجدان ونبع الإلهام والذوق وهي ما تعبر عنه العلوم الحديثة بالعقل الباطن.

ومنذ أقدم الأجيال السحيقة في التاريخ عبد الإنسان الله عبادة مجردة إلا فلسفة ولا علم ولا منطق، سوى منطق الفطرة، وهذا دليل على أصالة الكفايات القلبية الذاتية فيه وأنها المصدر الفكري لجميع كفاياته.

كما أن نفس الإنسان أقرب الكائنات الوجودية إليه فن الحق أن تكون أقرب إليه من سائر الأشياء الخارجية الموضوعية. وعلى نتائج الكفايات السالفة من الحس والعقل، والإلهام أو الوجدان ومضافا إليه الوحي، يتكون الدين والفلسفة والعلم، وذلك كله محيط المعرفة العامة.

وحتى الفن، لو نظر إليه من جهة أصله أو منبعه من محيط المعرفة، نجد أنه هو التعبير الصادق عما ينطوي عليه الدين والفلسفة والعلم من وحدة وألفة واتساق بأسلوبه الذاتي الخاص.

ويكون الفن هو المظهر الكامل لما أبدع الدين من وحيه، والعلم من خبرته، والفلسفة من عميق فكرتها، فهو اللغة الفصحى المرنة التي يتفاهم بها الدين والفلسفة والعلم. أو قل هو لغة الجمال والجلال ممتزجين في أسلوب واحد، هو الفن.

فإن سلمنا أن المعتقد الديني هو إلهام ذاتي وجداني ناشئ عن علل بعيدة

عن مشاعرنا العقلية والحسية، وإن الفلسفة والعلم هما عبارة عن نظام عقلي حسن قائم على التأمل الذهني والتجربة الحسية، وأن نظام الطبيعة كلها وطاقتها الذرية الإشعاعية قائمة على كائنات لا تحس ولا تلمس إلا أن يدركها العقل بوسائله المنطقية والعلمية. وقد صارت الحتمية في الكائنات ومعها الصدفة في سجل الخطأ الذي صارت إليه العناصر الأربعة: التراب والماء والنار والهواء!

فتصرف الطاقة الوجودية اليوم احتمالي إمكاني دون ضرورة، ولا مقياس ولا صدفة ولا تخمين للبصير، كما كان يفعل في القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وكل هذا يدل على إرادة عليا كاملة مصرفة للوجود لها تمام الحرية في مصائر ما يحدث في الوجود من طاقة وما تتوجه إليه القوة من أهداف!.

ولو تأملنا ذلك لعلمنا جيدا أن عالم الذات، وعالم الموضوع هما شكلان متغايران لحقيقة واحدة هي الإدراك الإلهي المطلق والقدرة العليا التي تصرف خصائصها. إما إلى نور مشع تكون الأشياء أصل في تكونها أطيافا له، وإما نور مدرك يتصور تماما الكيفيات والخصائص التي قام عليها تكون الأشياء في شيئيتها الظاهرية التي ترى عليها ثم يظل خلقها يدفعها إلى الأمام.

وفي عالم الذات أيضا ترى أن ظاهرات الشعور الوجداني والإدراك العقلي ثم الحسي كلها كفايات متوحدة في الذات الإنسانية وفي محيط الكون وعليها قام علم المعرفة العامة الحديث.

ولذا قررنا في كتاب "الوجود" مخاطبين أهل المدارس الفلسفية المثالية، وكذلك أنصار المدارس الفلسفية الواقعية في عصرنا قلنا: إن العقل والشيء حالتان من حالات الوجود عابرتان وهما متقابلتان متضايفتان متكاملتان، وفي تقابلهما وتضايفهما وتكاملهما الدليل القطعي على القصور الذاتي في كل منهما على حدته، أو فيهما معا، عن أن يكون أحدهما أو كلاهما علة أولية لهذا

الوجود؛ وإذن فعلة الوجود الحقيقية مع وجود تلك النظم الفلسفية المتعددة من قديمة وحديثة مازالت بكرا لم يطمثها فكر بعد!!

وقد جبل الإنسان على أن: يعتقد فيفكر، أو يفكر فيعتقد! على أن أول ما يثير الشعور الديني أو النظر الفلسفي السليم عند الإنسان ذي البصيرة الفطرية أو العقل الراجح: نظره في عالم الحس وإدراك عناصره ورؤية ما يعتبرها من استحالة أو تغيير أو زوال، فيتوجه فكره إلى معرفة العلة الأولى الثابتة التي تسبب تصريف هذه الكائنات وتحويلها، إلى غايتها المقدرة لها وتدبير أحداثها الواقعة فيها، فيتحسسها المدرك البصير في كل شيء ولم يبحث في قلبه الرهبة والاحترام.. وفي كل شيء دقيق خفي يبعث في له التعظيم والتقديس.

ولذا يرى الباحث الجد في الطبيعة أن أصغر الذريرات الذرية على نظام إلى كأكبر الأجرام والمجرات السماوية، فيرى الشمس مثلا إذا أشرقت وأرسلت ضوءها على الكائنات الأخرى، ويتأملها فإذا هي تسير في قبة زرقاء لا يمسها حادث ولا يقف في طريقها مانع، ثم يهتدي إلى النجوم المتلألئة وهى شموس أكبر، في السماء تسبح إلى غاية لا يدرك طرفه مداها؛ فيطمئن إليها معظما، ويعتقد أنها لا تزول ولا تتغير، وأنها تدبر كل ما يجري تحت إشباعها في عالمه، فإن ارتد بصره عائدا إلى الأرض رأى الذرة الذرية على نفس النظام وكأنها من الشموس أيضا.

وقد يخطئ معايير التفكير الصحيح فيعبد الشمس نفسها، أو يخطئ الطريق إلى الحقيقة المطلقة والعلة الأولى، فيخلع العلية على الطبيعة أو النجوم أو الأشخاص الحيوانية أو الشخصيات العليا الإنسانية التي تدب فيها الحياة، لكونه يبهره ما في هذه العوالم من أفاعيل معقولة يحدوها ويحفزها التدبير والاتساق، ولم يدر أن كل هذه الخصائص العليا المثيرة للإعجاب هي مجرد

نشاط الخصائص لذات سامية نزيهة أعظم من كل هذه الكائنات مجتمعة، فيعبد الشمس أو النجوم أو الأشخاص، ويقيم الأنصاب رموزا لها، أو يؤله السلبية في مجموعها، أو يقول بالصدفة أو الضرورة، أو يعزو كل ذلك لقوة مجهولة لا يعرفها.

ولا يزال ذلك الإنسان غير السوي في إدراكه والذي لم يؤت هدى تلقائي من نور ربه يتوجه بالعبادة من ظاهرة إلى ظاهرة من ظواهر الطبيعة حتى يعلم في النهاية بأن هذا كله ضلال. ويهتدي إلى أن المعبود بحق هو ذات إلى عام لا يدرك بالحس، ولا يحويه زمان ولا مكان، فيقول في النهاية مع إبراهيم الذي وفى: إني لا أحب الآفلين.. "إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين".

وذلك لأن عالم الحس جميعه بما اشتمل عليه من آيات قدرة الله وعنايته وحياته وإرادته وعلمه لا يكون كل ذلك الوجود الكوني إلا مجرد مظاهر مختلفة لآيات قدرته ومظهر سلطانه.

وهكذا، وعلى هذا النحو، ينشأ الدين بالمعتقد، وتنشأ الفلسفة بالبحث والتحقيق، وينشأ العلم بالاختبار والتجربة، وينشأ الكفر والشرك أيضا بالحياد عن طريق الصواب في الحكم الاعتقادي أو التفكيري أو التجريبي العلمي.

والدين في نفس الإنسان، لكونه يلامس أدق عواطفها، يتغلغل في مستقر يقينها، وهو أقرب إلى ذاته من الفلسفة ومن العلم وهو أرسخ فيها ثبوتا وأشد منهما تأثيرا عليها.

فالعقائد التي مصدرها الإلهام البصيري التلقائي أو اليقين الاعتقادي هي ذات تأثير وسلطان عظيمين بالفطرة على الجنس البشري فهي التي تقود الفكر،

ولو بغير شعور منه، وهي التي تعين مصير التاريخ وتقيم الحضارات أو تلاشيها.

ولكم بذل النوع الإنساني قديما، ومازال يبذل في سبيل الدين، من التضحيات العظيمة في النفوس والأهل والمال، مقودا بحكم العاطفة الدينية ما لم يبذل أقله للفلسفة ولا للعلم!

ثم إن لعالم الإيمان منطقه الذاتي وسننه وأسلوبه، كما أن لكل من الفلسفة والعلم منطقه وأسلوبه الخاص به كذلك، وهذا هو موضع التغاير البادي ظاهرا في أجواء الدين والفلسفة والعلم.

والواقع أن لا ثمة إلا حقيقة واحدة، ينظر إليها من زوايا ثلاث ذات طرائق مختلفة وألوان متغايرة، وهي الهدف الأعلى الدين والفلسفة والعلم.

وكثيرا ما حاول العلم أن يخضع قضايا الدين وقضايا الفلسفة لأسلوبه الحسي الموضوعي، فلم يفلح ولن يفلح مادام متشبثا بقانون الحواس الخمس، اللهم إلا إذا ارتفع العلماء بأفكاره عن حتمية الحواس وقيودها التي تحصر تفكيره في عالم الموضوع، إلى سماء الواجدان المحلق فوق آفاق العقل الذهني المعروف، والوجدان هو مسكن الدين الحقيقي وعشه، مسترشدين بأضواء الفلسفة الصحيحة ومدى الذوق السليم.

والفلسفة الصحيحة هي الكم من المعلومات الحقيقية الأولية والغائية لا يتحيز لكفاية واحدة من كفايات الإنسان، بل يشملها جميعا متابعا في ذلك لقواعد علم المعرفة الحديث.

ثم إن من واجبات الفلسفة أن تأخذ نتائج تلك الكفايات بعد أن وضعت لها المبادئ والأوليات فتحللها تحليلا غائيا حرا على قدر الطاقة البشرية مستعملة منطق الكفايات الثلاث في وقت واحد وقوة واحدة متوازنة، أي

منطق الحس ومنطق العقل ومنطق الوجدان أو البصيرة أو قل منطق القلب، وبعبارة أخرى منطق عقل العقول، العقل الباطن، كما ذكرنا في كتاب "الوجود" فارجع إليه.

قال "السير جيمس جينز" وهو من أساطين علم عصرنا الحاضر في وصف طريقة العلم الحسي التجريبي التحكمية في التماس حقائق الوجود: "لقد حاولنا أن نبحث فيما إذا كانت العلوم الحديثة عندها ما تقوله عن مسائل صعبة معينة، ربما كانت إلى الأبد بعيدة عن منال العلم التجريبي، ولا نستطيع أن ندعي أننا لمحنا أكثر من بصيص ضعيف من النور، وربما كنا واهمين تماما في لمح هذا البصيص بالتجربة الموضوعية، فإننا ولا شك قد اضطررنا إلى أن نجهد أعيننا إجهادا عظيما قبل أن نظفر برؤية شيء ما، ولذا فليس مغزى كلامنا أن العلم عنده قول فصل يلقيه بل بالعكس ربما كان خير ما نستطيع أن نقوله: إن العلم قد عدل عن إلقاء الأقوال جزافا كما في الماضي، فإن نهر المعرفة قد تعرج في اتجاه سيره مرارا وتكرارا وجز عن إخضاع قضايا الدين والفلسفة لأسلوبه الحسي. وإن العلم المادي كلما تقدم في أحداثه التي تتزايد وتتضخم يوما بعد يوم، يرى أن أكثر قضاياه وضوحا تخفي في طواياها جيشا عظيما من الأسرار ومازال هذا شأنه، كلما وصل إلى منطقة من مناطق البحث. وخيل له فيها أنه بلغ الغاية بدت له مناطق أخرى بعيدة المدى تتصل في حقيقتها ووجودها بعالم المعتقد الذي هو عالم الوجدان والإيمان".

وواقع الأمر أن المشرف البسيط على نقاط الاتصال بين الدين والفلسفة والعلم يرى أنها جميعا جزء لا يتجزأ لدائرة واحدة، مركزها الحقيقة المطلقة وأقطارها فروع المعرفة العامة، ومحيطها سائر فروع العلم على تعددها كما بينا ذلك مرارا.

والنتيجة أن المعتقد أول الفلسفة، وسيكون آخر العلم، وتكون الفلسفة هي الميدان الذي سوف يلتقي العلم والدين متضامنين متصافين يوما ما في رحابه الروحي الإدراكي.

وعلى الترتيب يكون: العلم أول الدين، لأن الله لا يعرف إلا بالعلم ولا يعبد إلا بالعلم، ويكون الدين آخر العلم، إذا وصل إلى التوحيد اليقيني لفروعه الكثيرة، فيؤمن بالمنظم المبدع، وتكون الفلسفة هي منطقة التلاقي بينهما.

لأن الفلسفة في أعلى قضاياها تتصل بعالم الوجدان، كما أن العلم في أعلى قضاياه يلامس آفاق الفلسفة من حيث أن آخر وأرفع قضايا العلم معادلات رياضية عقلية، وأعلى آفاق الفلسفة معتقد يقيني "ميتافيزيقي" فحيث ينتهى العلم من بحوثه، وحيث تبدأ الفلسفة وظيفتها في لم شتات قضايا العلم وتوحيد نظرياته ونتائجها، وحيث تنتهي وظيفة الفلسفة في إدماج الكائنات في سلسلة عامة من علم المعرفة، تحدث اليقينية الفلسفية والعلمية وتبدأ وظيفة اليقين الديني: أي الإيمان والمعتقد، ولذلك كانت مصادر المعرفة العامة هي الكفايات التي تجمع بين الدين والفلسفة والعلم.

وقد قدمنا أن الأصل في نشوء الدين – على أبسط أشكاله وأنقاها أو أعبرها – هو الاعتقاد الناشئ عن تأمل الإنسان في هذا الوجود البديع وعلته. و نقول الآن إن هذا التأمل نفسه قد قاد فريقا من المفكرين تدريجيا إلى التفلسف العقلي واستعمال المنطق كمعيار للفكر بسبب ميل الإنسان إلى الحصر والتحديد في موضوع بحثه، فأخذ يستقصي وحدات الكائنات ويستقريه مفهوماتها ويتفحص علها محكما وجهي المنطق العقلي (استقرائه واستنتاجه) حتى يتبين التعليل الصحيح لعلل الكائنات قريبة أو بعيدة، وسبب وجودها الأولى، بينما أخذ العلم في تقصى ظواهر الكائنات بالخبرة الموضوعية آملاً في

أن يصل إلى خصائصها وقوانينها وعللها الخفية.

وفي ظاهر التدين لما مال الإنسان – بالنسبة لقرب وجوده من الحس والمجسات – للتكيف مع معبوده في حالة تتفق ومشاعره الحسية البحتة ابتدأت بذور الدين الوثني أو الرمزى وتعددت الطقوس والنذور، ومن جهة الفلسفة المادية البحتة قد تولدت أيضا النظرة المادية للكون إذ ذاك وكانت بذوره في المدارس السفسطائية الأولى والتي لا نسميها فلسفية، ومعها الأدرية.

ولما اتسع مدى الحواس عند الإنسان وكثرت مطالبه المادية، استعمل التجارب الحسية العديدة للاستفادة من خواص الأشياء ومنافعها، فاستجابت له. وبالتوسع في تطبيق تلك التجارب وتصنيف وحدات الطبيعة البادية له، عرفت النواميس وولد العلم الحديث الذي قال فيه نيوتن: "إن من أخذ من هذا العلم بأطراف الشفاه، أبعده عن الله، ومن غب منه غباً قربه إليه".

هذا ونحمد الله في عصرنا الحاضر حمدا جزيلا إذ جعل الإشعاعات النورية الذرية تطيح بكيان الكتلة المادية وتشتت ثباتها الذي كان يزعمه العلماء بددا، ذلك الكيان الذي ظل طوال القرون: السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر، حجة المادية في ثبات وجود المادة بل في تأليهها. وهاكم أخيراً قد هدم الصنم بقدرة الله الذي يقود قياد المادة وقوانينها والذرة والأشعة ومصادرها، وقد وجد كل من فيض قدرته ويتحول بمحض مشيئته، فالحمد لله على حدوث المعجزة الكبرى من الآن إلى أبد الآبدين.

الديانة البرهمية

قبل أن نتكلم في تطور الديانات ننبه القارئ إلى أن أولهما أو أقدمهما غورا في طوايا التاريخ: الديانة البرهمية، كما أننا ارتأينا أن ننبه القارئ أيضا إلى

أننا قد قسمنا بحثنا في الدين عموما إلى عهدين – العهد الأول: ديانات القدماء من الكهان والحكماء، والعهد الثاني: في شكل نبوة أو رسالة عهد بها إلى نبي مرسل لأمة بعينها أو لسائر الشعوب والأمم.

وسنقسم كل عهد إلى ثلاثة أدوار:

١- دور العبادة النقية، حيث كان يعبد الله وحده دون شريك أو وسيط.

٢- ثم دور الرموز والطقوس.

٣- ثم دور الأصنام والشرك الخفي أو الظاهر.

فالدور الأول دور ابتداء وقوة مؤسسة على صريح الحق ونقاء العبادة من الشوائب والغايات المدنسة لها، والدور الثاني وهو وضع الحقائق خلف السطور والحجب لكي تظل الشعوب دائما تحت تأثير السرية الكهنوتية، والدور الثالث طور الفتور الديني وظهور الشرك في ضروبه الخفية المستترة والظاهرة الواضحة.

وما وقع في الدين من أدوار، وقع مثله تماما في العلم والفلسفة. وبما أننا بصدد الكلام على الديانة البرهمية فنقول:

قد ورد في الفصول القديمة من كتاب الفيدا ذكر لإله اسمه "برهما سباتي" ومعنى هذه الكلمة في اللغة السنسكريتية القديمة: رب الصلاة، أو الذي له الصلاة والذي يحقق الرغبات ويجيب الدعاء ويتصرف في كل الشئون السماوية والأرضية ولا يكون ذلك إلا للإله الحق.

وعلى هذا ف "برهما سباتي" أو "برهمة" فقط أو "زيوس" الخفي اسم للإله الموجود بذاته الذي يستمد منه كل شيء وجوده، وهو الأصل الأزلي لكل كائن لا تدركه الحواس، وقد يدرك العقل بعض صفاته.

وكان الهنود على حسب نصوص كتب (الفيدا) وهي أقدم الكتب في الدنيا وأقدم الكتب المقدسة عند الهنود، يعتقدون بأن هناك روحا عاما منشأ في جميع الكائنات، وقد صدرت الموجودات كلها عنه وهو يحفظها بقدرته ويمسك السموات أن تقع على الأرض أو أن تزول. ولولا القدرة الإلهية لذهبت هذه الموجودات ولم يبق منها أثر.

وعليه؛ فالله عند قدماء البراهمة إله واحد متصرف لا شريك له، صدرت الأشياء جميعا عن وجوده وسرى منه الروح في جميع الكائنات: الجماد والنبات والحيوان، على درجات مختلفة.

وقد ورد في أسفار الفيدا أيضا ما معناه:

"إنني أنا الله، نور الشمس، وضوء القمر، وبريق اللهب، ووميض البرق، وصوت الرياح. وأنا العرف الطيب ينبعث في الأرجاء، والأصل الأزلي البديع للكائنات، وأنا حياة كل موجود، وإني صلاح الصالح، لأني الأول والآخر والحياة والموت لكل كائن".

فلسفة الديانة الهندية

ويعتقد قدماء الهنود وأتباع الفيدا، أن جميع الكائنات التي صدرت عن الموجود الأول مستحيلة متغيرة، وحركة التغيير فيها مستمرة دائما، ولجميع الأشياء دورة محدودة إذا انتهت عند أخرها بدأت سيرها من جديد، وأن الإنسان أحد هذه الكائنات فيعرض له ما يعرض لها، وروح الإنسان ومضة من نور الله انفصلت عنه إلى أجل محدود ثم تعود إليه متى جاء الأجل كالقطرة من الماء تصعد من البحر وترتقي في السماء وتنتقل من جهة إلى جهة ثم تسقط على قمم الجبال وتجري في الأنهار ثم ترجع إلى أصلها الذي عنه نشأت ومنه نبعت.

فغاية كل إنسان في الحياة، الاتصال بالله والرجوع إليه والفناء فيه، والطريق إلى ذلك العبادة الدائمة، وعدم التوسع في مطالب الجد، والتكفير عما يقترف من الآثام بالندم والصوم والإعراض عن زخارف هذه الدنيا الفانية.

وفلسفة كتب الفيدا التي بنيت عليها الديانة البرهمية الهندية هي أقدم الفلسفات والديانات على الإطلاق، وأقدم الكتب هو كتاب الفيدا المقدس ولم يعرف حتى الآن بالضبط بدء تاريخ أسفار الفيدا، وإنما من المحقق أن هذه الأسفار أقدم من التوراة بآلاف السنين، بل منذ زمن لا يقل عن ٣٠ ألف سنة كان يتكلم عن أسفار الفيدا ككتاب قديم العهد جدا.

ويتألف كتاب أسفار الفيدا من أربعة أسفار وهي:

١- الريجا فيدا.

٢- السامة فيدا.

٣- الباجورا فيدا.

٤- الأثارا فيدا.

وتلك الأسفار أجزاء الكتاب المقدس للبرهمية الهندية وهو تاريخها معا. وقد وجدت أسفار الفيدا مكتوبة بلغة خصوصية تدعى باللغة الفيدية، وهي أقدم سائر اللغات الهندية التي كتبوا بها كتبهم المقدسة. والتعاليم الدينية في أسفار الفيدا على غاية من البساطة كما تقدم فإنها أولا تعلم بوحدة الله. وهو العلة الأولى المدعوة زيوس - وإن وجد زيوس أيضا عند اليونان - فلعل هذه من تلك، أي الجوهر النقي غير المرئي، وتعريفه في الفيدا القيوم بذاته، الموجود في كل الكائنات، والذي يجيب الرغبات ولا تجوز إلا له الصلاة، وهو بهذا المعني (برهمة).

وقد شرح مانو الفيلسوف الهندي أقوال الفيدا هذه قائلا: الكائن بنفسه الذي لا يمكن أن تصيبه الحواس المادية، بل يعلم بالروح فقط وهو الكائن السرمدي الذي لا يمكن للعقل أن يدركه على ما هو عليه تماما، وفي قوله لا يمكن إلا للعقل أن يدركه على ما هو عليه تماما يريد الماهية أو كنه الذات، وطبعا لا يصل إليه العقل تماما إلا إذا أحاط الكائن الجزئي بالكائن الكلى وهذا مستحيل.

وقد روى كلوكا الكاهن والفيلسوف الهندي وهو من أشهر مفسري الفيدا "أن المشتركين"، أي في الأسرار، مع تقديمهم القرابين لبعض قوى الطبيعة المتعددة لم يكونوا يعتقدون إلا بإله واحد فقط مبدع وعلة الكائنات، وهو أزلي غير هيولي وحاضر موجود في جميع الأنحاء بغير انتهاء، منزه عن كل قدر وهو الحق بالذات، ونبع كل عدل وحكمة المدير للكل والمرتب للنظام العالم، لا شكل له ولا صورة ولا وسع ولا حد، ولا اسم له إلا المستحق للعبادة برهما".

وكان من عادة البراهما تمان وهو الكاهن الأكبر للدين البرهمي عند امتحان أحد المشتركين أو التلاميذ المرشحين لإحدى الدرجات العليا أن يقول له:

"تذكر يا بني أنه لا يوجد سوى إله واحد فقط، رب الكل وعلة الكائنات، والواجب على كل برهمي في مثل مركزك أن يعيده في باطنه، وإن أخف ذلك عن غيره، واعلم أيضا أن هذا سر يجب كتمه عن العامة والجمال، وإن أطلعت عليه أحدا غير المشتركين في السر الأعظم يحل بك البلاء العظيم"

وسبب ذلك أن الديانات، لما أخذت في الانحدار حسب الأدوار التي قدمناها لك، كتم الكهنة حقائقها واحتفظوا بها لأنفسهم كسر لا يطلع عليه غيرهم. وأما العبادة الخارجية فكانت عند الهنود القدماء مقصورة على قربان النار فقط يشعلها كل صباح رب البيت الذي هو الأب والكاهن معا، ولا يريد بالنار العبادة وإنما يصعد معها صلواته كل مساء إلى الله لأنه وفد من طبيعة الصعود فيها أنها تصعد إلى السماء حاملة صلواته معها. ثم يلقي إلى النار قربانه بعد أن يحمله صلواته وهو شراب مختمر وأقراص من الدقيق فتلتهما النار.

(١) الكائن الإلهى (٢) مقابلة الإساءة بالإحسان (٣) القناعة (٤) الاستقامة (٥) الطهارة (٦) كبح جماح الحواس (٧) معرفة الكتب المقدسة – أي الفيدا (٨) الصبر (٩) الصدق (١٠) اجتناب الغضب.

وهي الوصايا العشر للدين البرهمي الهندي.

وأما ذبائح الحيوانات وتحريم ذبح بعضها وغير ذلك من الإضافات فلم تظهر إلا بعد زمن مديد لما وضعت الطقوس وتزايدت الرتب الكهنوتية، ففرضت على الشعب حينئذ ذبح الحيوانات وتقديم بعضها أو تحريم أكل اللحوم بتاتا، وهذا الطقس نفسه ظهر بعد ذلك عند المصريين في الديانة

المصرية وبعده عند العبرانيين.

وكانت العادة عند السكان الأصليين من الهنود أن يختلي بعض الصالحين الهنود المخلصين في الغابات وقريبا من شواطئ الأنهار لأجل الاعتكاف للتفكر وعبادة الإله الحق ثم يفسرون لتلاميذه أسفار الفيدا وما فيها من تعليم سري، ويكاشفونهم بعض قوى وأسرار الطبيعة.

وهو أبرز كهنة الهنود، وقد تربى عند أولئك النساك، وقد ولد حوالي سنة ٤٨٠٠ ق.م، وهو فيلسوف حازم قضى حياته في تهذيب معاصريه وإرشادهم، وبعد موته بزمن أراد أتباعه أن يجعلوا لتعاليمه زيادة نفوذ ومكانة، فربطوه بسبب مع الألوهية، وألبسوا حياته حللا خرافية ضافية الذيول، ولم يكن خرسنا (كرشنا) في الحقيقة سوى فيلسوف مصلح قد جد في تهذيب بني عصره ونهيهم عن شرورهم وبشرهم بخلود النفس وحرية الإنسان ووجود الثواب والعقاب في حياة أخرى.

إن الجسد، الهابطة إليه النفس شيء زائل؛ إنما النفس الخفية عن النظر سرمدية.

لما ينحل الجسد بالموت، فإن كانت الحكمة متغلبة على النفس، تطير إلى الأقطار العلوية التي يعاين فيها الأتقياء العليَّ ويدركون كماله وأما إن كان الهوى متملكا لها فترد ثانية إلى الأرض.

إن من رام بلوغ الكمال، عليه أن يكتسب على الوحدة التي هي أجل من الحكمة، ويلزمه أن يتعالى إلى الكائن الأسمى الذي هو فوق النفس والفهم والمستقر في كل منا.

إن في باطنك صديقا إلهيا لا تعرفه لأن الله مستقر في باطن كل امرئ

ولكن قل من يعرف أن يجده، فالإنسان الذي يضحي برغائبه وأعماله للكائن الأسمى ينال بهذه التضحية والكمال والسعادة المعرفة، لأن من يجد في ذاته سعادته وفرحه ونوره أيضا فهو مع الله، فاعلموا إذن أن النفس التي وجدت الله تعتق من المولد والموت والشيخوخة والألم، وتشرب من ماء الخلود!

ومن تعاليمه أيضا:

من ليس له سلطة على حواسه ليس بكفء للقيام بواجباته، ومن الواجب أن نعدل عن أموال ولذات لا يسوغها الضمير.

إن علم الإنسان بطلان وأعماله الصالحة وهمية وإن لم تكن راجعة إلى الله.

على الصديق أن يرغب في الأعمال المؤسسة على مبدأ محبة القريب وهي ترجيح وزن في القسطاس السماوي كل ما عداها من أعمال و أقوال.

ويعني بمحبة القريب: كل إنسان من نوعه أي قرابة الإنسانية، كما يتقوى الجسد بالعضلات، كذلك تتقوى النفس بالفضيلة.

كما أن الأرض تعطي الغذاء لمن يشق باطنها بالمحراث، هكذا يجب علينا أن نقابل الإساءة بالإحسان.

مهما صنعت من الخير إلى الأشرار فلا يكون صنيعك إلا كمن يسطر حرفا على صفحات الماء، إنما الواجب أن تصنع الخير لمجرد الخير، وثواب الإنسان ليس في هذه الحياة.

لما نموت فأموالنا تبقى في المنزل، وأهلونا يرافقوننا حتى القبر وأما فضائلنا ورذائلنا فتتبعنا إلى الحياة الأخرى.

ليعلمن الصديق ما يجب تفضيله على كل شيء وهو احترام نفسه وحب أخيه.

فليحذرن الغيبة والخداع والنميمة، ولتكن يمينه مبسوطة دائما إلى المعوزين ولا يفتخر فقط بحسناته، وليحذرن حياته كلها من إيذاء أحد بوجه من الوجوه فإن من محبة الإنسان لأخيه وحمايته وإسعافه تنشأ الفضائل الأكثر قبولا عند الله.

وجاء في كتاب الفيدا في الفصل الثاني ترجمة (سير ادوين أرنولد):

"إذا عكف الإنسان على حاجات البدن فهنالك يبدأ الميل إليها، ومن الميل تتولد الرغبة، ومن الرغبة تولد نيران الشهوة المفترسة، والشهوة تولد الطيش والتهور، وبذلك تخون الإنسان الذاكرة فيقضي على الأغراض النبيلة، ويتقوض بناء العقل فيفنى الغرض والعقل والإنسان".

والديانة الهندية قد اجتازت في تطورها ثلاثة أدوار على حسب ما ذكرنا:

الأول: دور التوحيد الخالص وهو دين قدماء الهنود الذين انحدروا عن الأصل السامي (نسبة إلى سام بن نوح معلمهم ومرشدهم وراثة عن أبيه).

الثاني: دور الكهنة البرهميين والرموز الطقسية وفيه نشأ الثالوث الهندي: برهما، وفشنو، وسيفا، وفي خلاله أيضا ظهر خرسنا (كرشنا) وذلك بعد انقضاء أزمنة طويلة على الدور الأول.

الثالث: دور الشرك والوثنية، وفي آخر هذا الدور نشأت البوذية، ولنوضح لك هذه الأدوار بعض التوضيح.

(١) ففي الدور الأول كانت الديانة الهندية على غاية البساطة في أشكال العبادة القادرة على أناشيد الريجا فيدا (وهي أقدم أسفار الفيدا)، وكانوا لا يعرفون لهم إلها إلا الواحد الأحد تحت إرشاد بعض العباد والحكماء المخلصين، يعبدون القيوم ويسبحونه دون البحث عن كيفية وجوده أو ماهية جوهرة.

(٢) وفي الدور الثاني ظهر الكاهن على مسرح الحياة، فأنشأ الطقوس والرموز وأحدث الثالوث الهندي البرهمي: برهما فشتو سيفا، على اعتبار أن فشتو وسيفا إلهان أو قوتان نشأتا عن برهما.

وقدمنا أن برهما، اسم الله عز وجل في اللغة السنسكريتية الهندية، لا كما يظن الأوربيون أنه اسم لمؤسس الديانة الهندوكية، فبرهما عند الهنود الأصليين هو الإله الموجود بذاته لا تدركه الحواس وقد يدركه العقل.

أما رئيس الديانة فاسمه عندهم براهما تما، ومن هنا حدث اللبس، فبرهما – حتى مع وجود الثالوث – هو مصدر الكائنات كلها التي لا حد لها، وهو الأصل الأزلي المستقل الذي خلق العالم، ومنه يستمد العالم حياته، وهو الجوهر. وليست الروح الإنسانية إلا شعلة من نيرانه المقدسة، وإليه مصيرها (وهو كناية عن العملة الأولى التي لها الفعل والعبادة).

فتفسير برهما، الإله الخالق، وفشنو القوة الحافظة أو الإله الحامي للخليقة وسائسها المعمر (كناية عن الحياة) وسيفا القوة التي تلاشي أو المفني المعيد أو المحول (كناية عن القوة المطورة).

ومن هنا نشأ مذهب التقمص الذي دخل بعد ذلك في ديانات ومذاهب كثيرة، ولا يؤمن البراهمة إلا بإله واحد مثل في هذه الأسماء ويعتبرونها صفات مختلفة له، ولكن ما يجب ملاحظته هنا أن هذا التثليث الهندي ليس له أثر في الكتب الهندية المقدسة الأولى المسماة بالفيدا بل ولا توجد العناصر المكونة له.

فسيفا ليس له ذكر فيها، وقد أطلقوا هذه الكلمة فيما بعد على القوة المستترة التي تلاشي الكائنات واحدا بعد الآخر، أي أنها حلت محل كلمة (ورترا) المستعملة في كتب الفيدا المقدسة. وكانت تطلق على الروح الموكلة بالرياح

التارة والهوجاء.

أما فشتو ومعناها الداخل فهي تمثل الموقف الأعلى للشمس أي وقت الزوال حيث تخترق أشعتها كل جسم بشري، وترى إلى أعرق جهاتها وهم يمثلونها بالحياة وسريانها في الأجسام.

ولم يكن المعتقد إلا كما أعلنته البراهمة الأولون، أنه لم يكن من الأزل إلا الذات الطاهرة التي لا حد لها ولا شكل، وهي التي أطلقوا عليها اسم (برهما) أي المعبود.

ومن معاني (برهما) عندهم: الصلاة (أي الذي لا توجه الصلاة إلا إليه) ولذلك يرى البراهمة أن الصلاة قوة دونها كل شيء، وهي صالحة للتأثير على كل شيء.

وكتب (ماندرا ماسترا) أي (الشريعة) تعترف بالوهمية برهما وحده، وتعتبره موجد الكون ومعدمه، ولا ذكر فيها للإلهين الآخرين لا فشنو ولا سيفا. وعلى هذا أيضا سائر كتب الفيدا المقدسة، والظاهر أن هذه العقيدة قد ظهرت في الدور الثاني للديانة الهندية وهو دور الرموز كما مر. وأما مسألة الروح فقد عرفت في البرهمية الأولى أنها روح الكائن الأزلي. أما في دور التثليث فقد اتجهت إلى النقص أو التناسخ عقيدة الناسخ وعقيدة التناسخ مضمونها أن الروح خالدة، لا بمعنى أنها موحدة الخلود، بل بمعنى أنها لا تفنى فقط، وذلك بتقمصها جسدا جديدا كلما بلي جسدها القديم دورا بعد دور، لتثاب في الأرض أو تعاقب، ولكنها لا تدرك أنها كانت حية قبل هذه الحياة، وهي عقيدة باطلة دللنا على عدم صحتها في كتاب الوجود. وسنتكلم عنها في هذا الكتاب بعد البوذية.

فخلود الروح عنده خلود غير مدرك لها إلا أن تصل إلى درجة النقاء، ولذا

يكلف البرهمي نفسه أنواع الشدائد وأشكال البلاء في حياته، بما فوق الطاقة لكي يكفر عما وقع منه في تجسد سابق أو عما سيقع منه في تجسد مستقبل، وهو دائم الاكتئاب والخوف، كثير الهموم، لا أمل له حتى في الموت لأن الموت نفسه في نظره ليس مخلصا له من شقاء الحياة!!

(٣) ثم اتسع نفوذ الكهنة فأنشئوا الامتيازات والاختصاصات ووضعوا نظام الطبقات. وقصروا على أنفسهم وعلى المشتركين (تلاميذهم) معرفة الحقائق العلوية وتوحيد الله، وستروا الحقائق عن الشعب جنح إلى الشرك و تعدد الآلهة – وهذا هو الدور الثالث – وفيه طوق الكهنة الناس محيط عظيم من الأساطير والرموز وفرضوا عليهم فروضا لم تكن، وأنواعا كثيرة من العبادة والتقاليد الجديرة بأن تسمى مسرحية. كل هذا بغية إبقاء الشعب على حال من الجهل والغفلة ليتوصلوا بهذه الطرائق إلى تسلم زمامه والاستعلاء عليه من كل ناحية، فانحط الشعب الهندي بفقده الحقائق الدينية والعبادة الخالصة، وانحدر وأسف على عبادة الأشخاص والتماثيل والحيوانات

وأما الطبقات التي وضع نظامها الكهنة فهي:

١– طبقة البرهما تمان وهم الكهنة والعلماء.

٢– طبقة الخاترياس وهم رجال الحرب وحماة الأوطان.

٣– طبقة البانيان وهر الزراع والتجار.

٤– طبقة السودراس وهم أرباب الحرف والمهن الدنيئة وهم المنبوذون.

الديانة البوذية

لما خيم الجهل والخمول على الديانة الهندية ونشرت الوثنية لواءها في ربوعها وتعددت الشيع وتغيرت نظم الديانة وفقدت روحها الذي بثه فيهم سام بن نبي الله نوح عن شيث وإدريس فأضاعوها لما طال عليهم العهد، ضلوا السبيل الإلهي المرسوم، وتطوروا متحدرين إلى أن وصلوا إلى دور الوثنية والتجسيم والتشبيه فظهر آخر هذا الدور، ساكياموني أو سيزارسا جوتاما (بوذا) بديانته المزعومة، والواقع أن البوذية ليست في نفسها ديانة إلهية أو وضعية ولكنها فاسفى برهمي مذهب فلسف مشتق من الفلسفة الأصلية للديانة البرهمية مع زيادة أو نقصان بعض القواعد.

فمثلا أن الديانة البوذية لا تشير إلى إله خالق سوى النرفانا، والنرفانا معناها: الإطلاق الطبيعي. أو المطلق أو الأصل أو المتسامي أو بوذا نفسه، ولم تتكلم عن إله صراحة بخلاف الديانة البرهمية التي تقول بإله، بل بوحدة ذلك الإله!

دعائم مذهب البوذية وفلسفته

تقوم دعائم الفلسفة البوذية على أربع قواعد هي:

١- الألم من لوازم الوجود.

٢- الرجوع إلى هذه الدنيا مرة أخرى سببه اتباع الشهوات والنقائص في حياة سابقة (تناسخ).

٣- الخلاص من الشرور والنقائص هي الوسيلة الوحيدة للنجاة من العودة إلى الأرض في تقمص جديد بعد الموت.

٤- يجب على المرء أن يبعد عن نفسه العقبات التي تحول بينه وبين الخلاص من شهواته. ولزوم الطيبة والشفقة والحب والتسامح ولين العريكة، والإقلاع عن الرغبات الثمينة والإضراب عن الضروريات المهمة حتى عن الحياة نفسها متى كانت مبذولة في سبيل تخليص الغير. (إغراق في الانكماش والترهب. وأما وجوب الإحسان إلى الغير فهو صفة إنسانية مشكورة، والمفروض هنا تحريم الطيبات من الرزق الحلال)

وما الشر الأعظم عنده إلا الجهل، ومنه يصدر العذاب، والشقاء وهذا صحيح، فما انحدرت النفس إلى عالم الماديات إلا لبلوغ الكمال (وهذا المبدأ صحيح أيضا وإن كان مناقضا للتقمص) ولا تمتلك ناصية الكمال إلا بالعلم والمحبة. وإن العلم والمحبة هما العاملان الجوهريان في الكون وبامتلاكهما يصل الإنسان إلى (النرفانا) أي (يفنى في الروحية البوذية المطلقة الكاملة) والنرفانا في عرفهم عبارة عن بلوغ النفس الكمال الأسمى وانطلاقها من أسر المادة واجتماعها الأدبي بالنرفانا أي المطلق أو بوذا نفسه.

وما بوذا نفسه إلا مخلوق محب للزهد ومتطلب للكمال، ولم يدع يوما أنه إله أو ابن آلهة. ولكن مبالغة الأتباع هي التي صنعت من بوذا إلها ومن مذهبه دينا.

ولد جوتاما مؤسس المذهب البوذي في منتصف القرن السادس قبل المسيح ومن بيت من بيوت الملك في الهند وابن أمير (كابيلافاستو) واسمه الحقيقي (سيزاراسا) أو (ساكياموني جوتاما).

وسمى ساكياموني أي المتبتل من عائلة ساكيا، وعاش عيشة ترف وتزوج وهو في السنة التاسعة عشرة من عمره، وكانت آماله وقواه متجهة منذ نعومة أظفاره إلى التكمل في الأخلاق والعادات، وكان يجيش بصدره من الهموم على حالة العالم مالا يجيش بصدر سواه، وزادت هذه الأفكار حتى صارت لا تتركه في منامه.

ولما بلغ التاسعة والعشرين من عمره، أخذ يتأمل في حالة بني قومه، وما صاروا إليه من الذل والهوان، وما أحدثه كهنة البراهمة من التغيير في الدين، رغبة في التسلط فأراد الإصلاح، وأراد التفرغ له فعافت نفسه العظمة الدنيوية ومجد السلطان الزائل، وسئمت نفسه ملاذ هذه الحياة الفانية، فغادر بلاط أبيه وانزوى متوغلا في الغابات الكثيفة، وبينما هو جالس ذات ليلة تحت شجرة من أشجار الغابة التي لجأ إليها، وقالوا إنها شجرة تين، فاض عليه العلم وانكشفت له كثير من أسرار العالم ومن ذلك الوقت لقب بوذا أي العالم المستنير، ومن ثم عاد إلى مخالطة الناس وله من العمر إذ ذاك خمس وثلاثون سنة وأخذ يعلم الناس وينشر مبادئه بينهم واستمر على ذلك حتى تبعه خلق كثير. وقد مات بوذا في الثمانين من عمره وأحرق جسده بعد موته بثمانية أيام

خلاصة تعاليم بوذا

كان بوذا يقول "كما أنه لا فرق بين جسم الأمير وجسم المتسول الفقير، كذلك لا فرق بين روحيهما، كل منهما أهل الإدراك الحقيقة والانتفاع بها وتخليص نفسه"

وساكيا موني يدعو إلى سلوك "الممر الأوسط" بين التلذذ والزهد الخالص في الدنيا الذي يدعو إليه البراهمة، ويقول: إن لهذا الممر ثمان شعب هي: النظر

الصحيح، والإلهام الصحيح، والتفكير الصحيح، والسرور الصحيح، واللفظ الصحيح، والسير الصحيح، والحياة الصحيحة، والجهد الصحيح"

ويقول بوذا إن للحقيقة أربعة أركان هي:

(١) الرغبة غير المستكفية تؤلم.

(٢) الرغبة أصل الألم.

(٣) لاستئصال الألم يجب نبذ الرغبة.

(٤) لأجل منع الألم يقتضى إتباع الممر الأوسط.

وليس في تعاليمه شيء عن الله أو عن تقديم قرابين فقد اهتم بنشر المحبة وأشار إلى رفع الألم (ومن قواعد هذا المذهب وحواشيه تشتم رائحة الأبيقورية اليونانية في اللذة والألم).

وبوذا لا يسلم بفكرة خلود النفس، ولو أنه يقول بالتقمص (وهذا تناقض في مذهبه) وكل ما في الأمر أن الرغبة تنتقل في الحياة الأخرى من شخص إلى آخر، وهذا ما يسمونه (كرما) وكان يلقى تعاليمه شفاها بالرغم من أن الكتابة كانت معروفة في ذلك الوقت. وقد جمع تلاميذه أقواله خلال الستمائة سنة التي تلت مماته من أفواه المحدثين والرواة وأثبتوها بلغة (بالي) لأن السنسكريتية كانت قد انقرضت واعتبروا هذه الكتب كتبهم الدينية، ونجد الآن أغلبها مطبوعا، وشيئا كثيرا منها مترجما.

ومن اللطائف التي تروى أن بوذا أرسل تلميذا له إلى قبيلة هندية تسمى (سورنا بارنتا) فأراد اختباره قبل أن يذهب فسأله قائلا إذا اتفق يابورنا ووجه إليك أحدهم ألفاظا بذيئة خشنة وقحة، فإذا أنت قائل؟

فأجابه التلميذ: "أشكرهم لأنهم لم يضربوني".

فقال بوذا: "وإن ضربوك أو رموك بالأحجار"

فأجاب: "أشكرهم لأنهم لم يضربوني بالعصي أو بالسيف"

فقال بوذا "وإن ضربوك بالعصي أو بالسيوف"، فأجاب "أشكرهم لأنهم لم يحرموني الحياة نهائيا"، فقال بوذا "وإن حرموك الحياة"، فأجاب "أشكرهم إذ خلصوا روحي من سجن هذا الجسد السيئ بلا كبير ألم!"

فقال بوذا عند ذلك : "أحسنت يا بورنا بما أوتيت من الصبر والعزم والحزم والثبات. فاذهب إلى القبيلة وأقم فيها، وكما وصلت إلى الساحل فأوصلهم معك، وكما تعزيت فعزهم معك، وكما وصلت إلى مقام (النرفانا) الكاملة فأوصلهم أيضا معك"

التقمص أو تناسخ الأرواح

قدمنا أن الديانة البرهمية، وكذلك البوذية، وبعدهما المصرية والكلدانية والزرادشتية، كلها تقول بتقمص الأرواح أو تناسخها بعد الموت. ومعنى ذلك أن الروح بعد أن يموت الشخص، تحل في كائن آخر أعلى إن كان صالحا بارا، وأدنى إن كان شريرا شقيا وربما وصل به التناسخ بالتدلي عن درجة الإنسان إلى درجة الحيوان.

ومعنى ذلك أن تقمص روح الشرير في جسد حيوان من الحيوانات الدنيئة أو الرفيعة، كالأبقار والثيران، فإن كانت أحط طبقة حلت روحه في حيوان دنيء. وقد يكون من الحشرات أو الهوام كالجعران أو الثعبان والقط وغير ذلك، فإن كان صالحا تقمصت روحه جسما أرقى، وهكذا يظل الروح يتقمص جسما

بعد جسم وينسخ صورة بعد صورة، إلى أن يصل لدرجة النقاء.

كل هذا، والمخلوق لا يعرف ولا يتذكر الصورة السابقة له: أكانت روحه تتقمص حيوانا أو إنسانا، فإذا كمل عرف ذلك عند تكشفه لروحه الحقيقية سافرة.

هذا في الديانات القديمة، أما في الديانات الحديثة المنزلة فقال بالتقمص بعض أحبار اليهودية وبعض المذاهب المسيحية.

وأما في الإسلامية، فقد قالت بذلك الطائفة الإسماعيلية الشيعية على تعدد فرقها، خصوصا الاثنى عشرية أو الإمامية التي تقول بالإمام المعصوم والتي تقول بالمهدي المنتظر، ومن أولئك جماعة إخوان الصفاء وأتباع الحسن الصباح ويمثل الإسماعيلية في العصر الحاضر: أغا خان، ومنهم الطائفة البهائية البابية.

ويحتج من يقول بالتناسخ من المسيحيين، بقول المسيح عليه السلام وإن في بيت أبي منازل كثيرة، وهذه الآية لا تفيد التناسخ بل بالعكس تفيد قانون التطور والترقي وتحتج له. وهذا قانون شامل لكل كائنات الطبيعة لا يجحد وجوده إنسان متهور، وهو نفسه القانون الذي تقول به الشرائع المنزلة، حيث إنها تقول بترقي الأرواح بعد الموت إلى عوالم أرقى ودرجات مختلفة.

فمعنى "في بيت أبي منازل كثيرة"، أي درجات من السمو متعددة حتى تصل الروح إلى الكمال المنشود دون أن تلجأ للرجعة إلى رغام الأرض الموت والحياة مراراً.

ومن يقول بالتناسخ من الفرق الإسلامية يحتج بقول الله تعالى في القرآن "كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون"

وهذه الآية أيضا تدل على الأطوار التي يمر فيها المخلوق في تكوينه

وإنشائه بعد أن كان عدما ومواتا فالله يقول: كنتم أمواتا، أي معدومين، والعرب تقول ذلك في الأرض المرات التي لا حياة فيها وهذا هو الطور الأول فأحياكم: بالحمل والولادة بعد أن كنتم أجنة في بطون أمهاتكم وأخرجكم إلى الدنيا، وهذا الطور الثاني ثم يميتكم، وهذا الطور الثالث ثم يحييكم إلى البعث والنشور، وهذا الطور الرابع والأخير.

١- كنتم أمواتا.

٢- فأحياكم بالخلق.

٣- ثم يميتكم بالخروج من الدنيا.

٤- ثم يحييكم إلى البعث والنشور في عالم أعلى من هذه الأرض.

وكل هذا إن دل على شيء إنما يدل على ترقي الأرواح أطوارا مختلفة وهو ما قالت به الكتب المنزلة، وهو نفسه القانون الطبيعي.

وأما التقمص فهو أكبر فرية وخطيئة أصيبت بها الإنسانية لأنه يقال: إذا كان التقمص في النهاية يجمع في الكمال بين موسى وفرعون وبين المسيح ويهوذا الإسخربوطي، وبين مسيلمة الكذاب ومُحَمَّد رسول الله؛ فمعنى هذا أنه لا لزوم لديانات ترشدنا وتهدينا سواء السبيل حيث يتساوى في النهاية الناقص بالكامل ويتعالى عدل الله عن ذلك.

وأما من جهة الأخلاق فعلى مقتضى هذا المذهب لا لزوم لها، لأن الشرير يقول لك وأنت خير: كن خيرا أنت وحدك، ولك أن تطمئن على مصيرى أنا حيث سأقف بجانبك يوما في مرتبة واحدة من السمو والكمال بعد أدوار متعاقبة من التقمص وبالعودة إلى الأرض.

وما هي الأرض يا ترى؟

أليست هي محل الخطيئة وهي التي أنزل الله آدم إليها عقوبة له أو تجربة على الأقل؟؟

أليست هي البرميل القذر المليء بالأوحال الذي يجب على الروح أن تتطهر منه؟؟

فإن تطهرت: كيف يا ترى ترغب في العودة إلى ما تطهرت منه من الرجس ثانية بعد النظافة والنقاء!؟

وإذا كانت أدوار ترقي الروح بالتجارب والاختبارات تشابه تماما نظام الترقي المدرسي والتطور في سني الدراسة وهو تشبيه تام المطابقة فتعتبر الدنيا مرحلة ابتدائية والموت مرحلة إعدادية أو ثانوية، والحياة الروحية السماوية المرحلة العليا والأخيرة. فكيف تستسيغ أنت أن تأمر واحدا انتهى في سلك التعليم العالي أن يرجع ثانية ليترقى إلى مرحلة التعليم الابتدائي!؟

وإذا سوغ لك عقلك ذلك فكيف يسوغ له عقله هو أن يطيعك وأن يرجع إلى تلك العلبة الضيقة بالنسبة له وهي المدرسة الابتدائية؟

وبعبارة أوضح كيف يرجع إلى برميل الأحشاء من خرج من بطن أمه إلى برميل أكبر اسمه الدنيا وقد تسامى إلى رحاب السماء الواسعة، وترقى بما نال من تجاربه الشخصية وكشف عنه الغطاء؟؟ ذلك الذي يقول الله له: "لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"

أقول: أمؤمن أنت أن مثل ذلك الشخص يرضى أن يرجع إلى الظلام ثانية حتى وإن أمره الله نفسه؟ ذلك الإله الحكيم الذي رتب السنن، سن الترقي، وشرف ذلك الإنسان بترقيته متطورا إليه ثانية..

وأما الأرض فيقول الله تعالي فيها القول الحق: «منها خلقناكم وفيها نعيدكم، ثم إلينا ترجعون"، ومعنى نعيدكم هنا ترابا بأجسادكم كما خلقناكم، وإلينا ترجعون بأرواحكم ولا رجعة بعد ذلك، وبناء على هذا وذاك أقول أيضا لمعتنقي مذهب تناسخ الأرواح:

هل ضاقت رحمة الله، وضاقت قدرته سبحانه، عن أن يخلق أرواحا بعدد الأجسام المخلوقة خصر خلقه للأرواح في كم محدود يحله أجساما لخلعه بعد على أجسام أخرى، أم ماذا؟!

الحق أن عقيدة التناسخ ممدة ومسوغة لفكرة الحلول، فلم يحل الإله بي تنزهت ذاته وعلت عن ذلك علوا كبيرا، في أجسام بشرية كأجسام الأحبار والملوك والعظماء أو صنمية كما في التماثيل من أحجار وخشب وبرونز، وغير ذلك ليسوغ كهنة الديانات لأنفسهم ذلك الحلول ويجعلوه شريعة يمتازون بها أو يعطونها امتيازا لكل من يدعي أن الله يحل فيه وفيمن شاء من أتباعه!

ومثلنا على ذلك، فئة من أمثال الذين قالوا: أنا الله وأنا الحق وما في الجبة غير الله، كالحلاج وغيره وحتى محيي الدين لولا أن تخلص من ذلك بحجة أنه كان في غير حالة سكر!! – على اعتبار أن – المأخوذ العقل لا يكلف ولا يحاسب في الشريعة الإسلامية.

وهذا هو تعليقنا على عقيدة التقمص التي اعتنقها كثير من صغار الأولياء قوم أخذوه عن متقدمي الفلاسفة من معتقدي ذلك الضرب الحلولي من وحدة الوجود، على أن الوجود المطلق من الحلول والتحيز وحدة حقيقية مركزها الله وإليه مآلها وهو بذاته منزه عن كل كائن من كائناتها ولو كان روحا نورانيا!!

ديانة قدماء المصريين

كان التاريخ المصري القديم إلى ما قبل القرن التاسع عشر غامضا كل الغموض، لا يتراءى في أعماقه السحيقة في القدم إلا معلومات ضئيلة خاطئة، تناقلها الناس في الشرق والغرب عن كتب الإغريق الذين تربوا في مصر، وعلى أيدي حكمائها فأبت أنفسهم أن يظهروا في تاريخهم أصحاب الفضل عليهم من المصريين!! وزد على ذلك قلة المصادر وتحجب اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية) وراء طلاسمها ورموزها الشتيتة وحروف كتابتها التي كانت مجهولة.

ولكن ما أن جاءت سنة ١٧٩٩م إلا وبدأ الستار يرفع عن الحقيقة حينها عثر شامبليون الفرنسي على حجر رشيد وحل ألغاز الهيروغليفية ورتبها، وجعلها سهلة التناول لغيره من علماء الآثار من الأوروبيين وغيرهم.

وهنا نذكر بالفضل عالما بالآثار المصرية ولعله أول من يبحث في هذا الموضوع من المصريين المحدثين، هو أحمد كمال (باشا) وكان في طليعة الباحثين وألف في ذلك عدة كتب وقد سبقه في ذلك الكاهن المصري القديم دمانيتون الذي كان مرجعا مهما للأوربيين في بحوثهم سيما دلالته على مواطن البرديات التي وزعت على متاحف ومعاهد أوربا وأمريكا بعد ذلك!!

وبعد أن اشتغل جم غفير في هذا البحث كشف العلماء عن حقيقة المصريين ودينهم وشرائعهم ومدنيتهم وعاداتهم وتقاليدهم وآدابهم، بما عثروا عليه في مصر من الوثائق التاريخية التي وجدت مكتوبة على أوراق البردى ومن الكتابات والنقوش التي تحلى واجهات المعابد والمسلات والأعمدة وأغطية النوواويس (التوابيت) وما في باطنها من مخطوطات وجدت مع الموتى.

وبعد البحث والمقارنة والمقابلة بين تلك الكتابات والنقوش وأيضا ما جاء في مذكرات مانيتون، أكد العلماء أن المصريين الأوائل كانوا على عقائد قديمة تدعو إلى التوحيد الإلهي قبسوه عن الرسل الذين أرسلهم الله مع تطور الزمن، كنوح وسام بن نوح، وقبل ذلك في المصريين الأوحد إدريس عليه السلام الذي قيل إنه ولد بمصر بإدفو، وقيل بمنف وقيل إنه ولد ببابل وهبط هو وأتباعه (الحورشوس) أو أتباع حوروس ليدعو المصريين إلى عبادة الله الواحد الأحد.

وبما أن آسيا هى منبت الجنس البشرى ومنبع العقيدة: عقيدة التوحيد التي لقنها آدم لأبنائه الذين منهم شيث ونوح وسام وإدريس عليه السلام، فقد قبست مصر من ذلك شيئا كثيرا على يد نبيها إدريس عليه السلام (حوروس القديم).

ثم إن إدريس هو نفسه خانوخ، بالعبرية وفي العربية أخنوخ، وفي المصرية حوروس، أو "هوروس"، وباليونانية "هرماكيس"، ثم عرب بهرمس، ولكن إدريس هو الاسم الذي سماه الله به في كتبه المنزلة.

وقد يسمى "أغتاذي مون" المصري، ولعل هذا اسمه عند الرومان، حينما كان البطالسة في مصر. والذين قالوا إنه ولد ببابل يؤيدون حجتهم بأن آبائه كانوا فيما بين النهرين: دجلة والفرات.

ومعنى بابل بالسريانية: النهر، ولما وصل إدريس وأتباعه إلى مصر أو النيل فقالوا: بابليون، أي نهر كنهركم! وأسموا مصر بابليون، حتى هبط إليها مصرايم بن حام النازل بعد الطوفان فكها وهو نفسه مينا، أو رميناس، أول ملوك العائلات بعد حكم الكهنة.

وقد أمر إدريس في وقته – كرسول من الله – المصريين بعبادة الله والزهد

وحب والعدل والإحسان، وحرم الحمر، وأكل الخنزير، وكان قربانه البقول والذبائح، وكل باكورة من النبات والحنطة والفواكه والرياحين.

أما نسبه فهو إدريس بن برد بن مهائيل بن قينان بن آنوس بن شيث بن آدم عليهم السلام.

وكان إدريس هذا نبيا مرسلا تام القامة حسن الوجه كث اللحية حلو الشمائل والتخاطيط عريض المنكبين ضخم العظام قليل اللحم براق العينين أكحلها، متأنيا في كلامه كثير الصمت وإذا مشى نظر إلى الأرض إلا إذا دعا الله نظر إلى السماء.

وكانت مدة إقامته بالأرض اثنين وثمانين سنة ثم رفع إلى السماء وكان مكتوبا على خاتمه الصبر مع الإيمان بالله يورثان الظفر، وعلى منطقته التي يتمنطق بها (حزامه) وحفظ فروض الشريعة من تمام الدين، و تمام الدين من كمال المروءة، والمروءة خاصة الإنسان العارف، وكان مكتوبا على مصلاه السعيد من نظر لنفسه، ومكانة الله عنده وشفاعته عند ربه تنحصر في أعماله الصالحة، ومن أقواله: "حياة النفس في الحكمة، ومواتها في الجهل"

وقد أكد أغلب العلماء أن المصريين الأوائل قد هبطوا من آسيا، وقال بعضهم إن أصلهم من الحبشة وقال غيرهم: إن المصريين نبتوا مصريين. وإنما كان لهم اتصال بالهند والكلدان وشمال إفريقيا وجنوبها وإن كانت صلتهم مع الأحباش قديمة.

والذي يعنينا هنا هو: إذا لم يكن المصريون قد هبطوا من آسيا (وهو الرأي المرجح) تلك القارة التي هبط منها جميع أبناء آدم، فالذي نؤكده ونرجحه ويرجحه معنا علماء الآثار والتاريخ والمستندات والوثائق، أن الدين الأصلي

للمصريين قد هبط إليهم من آسيا، وهو دين التوحيد، الذي حمله له إدريس وأتباعه "الحورشوس" قبل عصر "مينا" بأدهار طويلة لاسيما وأن دين التوحيد كان موجودا في الهند قبل أن يوجد في مصر بأدهار أيضا، وحسبك أن آتون إله اخناتون هو أقدم الآلهة المصرية وأولها.

وإني لآخذ على علماء المصرولوجيا "علم الآثار المصرية" الأوربيين أنهم لم يراعوا فيما كتبوه تاريخ تطور النبوة والرسالة منذ آدم على يد أبنائه سيما نوح وسام وإدريس.

فإن قالوا: إن هذا ليس من اختصاصنا. قلنا لهم: إنكم بحكم دينكم المسيحي الروحي داخلون بالضرورة في هذا البحث لاسيما وأن المصريين القدماء من الأمر التي لها دين قديم والدين أقوى شيء لدى الإنسان. ودليلنا أن الدين برموزه وطقوسه كان أقدس قيمة وأعظم وأبرز أثرا في كل ما بحثوه من آثار للمصريين. فكيف يقولون: إن هذا ليس من اختصاصنا!؟

والدين أيضا هو الحجر الأول الذي تؤسس عليه المدنيات والحضارات بحكم فلسفة التاريخ لاتصاله بأعماق النفس البشرية.

وقد كان لمصر دينها وعلومها ومعارفها ونظامها قبل سنة ٤٥٠٠ ق. م على التاريخ الكبير أو الصغير القائل بأقل من ذلك، وهو بدء تاريخ العائلات؛ أي قبل نظام الحكم الملكي فيها بأزمان طويلة كما تطورت مع العصور الحجرية والنحاسية والطوفان وغير ذلك.

وكان يحكمها إذ ذاك أتباع "هوروس" وذلك العهد الذي يسمى بعهد الكهنة أو حكومة الكهنة، وكان مركزها إدفو وكان لهم مدرسة بجانب أبي الهول، غير التي كانت في عين شمس، وصا الحجر.

وقد أثبت البحث الدقيق أن مصر قبل الملك مينا – أول ملوكها– كانت تملك مجموعات من التأليف والعلوم السرية والمعارف الرياضية والطبيعية والطبية الشيء الكثير، وأنه كانت لها تقاليد دينية ثابتة بالكتابة. وكانت لها نظم سياسية واجتماعية وأدبية أرجعها بعضهم إلى ثلاثين ألف سنة والبعض إلى سبعة آلاف سنة قم، وأنهم أخذوا نظام دينهم عن نبيهم "هرمس" كما قدمنا وقيل عن الهنود القدماء قبل هرمس لقدم أسفار الفيدا، التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ثلاثين ألف سنة قبل المسيح.

وقد وجدت كلمة "أتباع حوريس" في بعض نصوص الأهرام التي شيدت في عهد الأسرة الخامسة. وإن كان العالم "موريه Moreh " أثبت أن حوريس المقصود في قصة حورس ليس حوريس إدفو القديم الذي لا شك في وجوده قبل وجود الأسر، وقبل حوريس بن إيزيس الذي قيل إنه المقصود بقصة حوريس بن إيزيس المشهورة.

وسبب هذا الالتباس أن حوريس بن إيزيس والمتصل بالعائلات الملوكية، قد اتخذ أبواه – أوزيريس وإيزيس – اسم حوريس تيمنا باسم حوريس القديم، والذي رفع إلى السماء.

فلسفة الديانة المصرية القديمة

وكان المصريون يعرفون الله الواحد الأحد، وكانت عبادتهم له بالصمت والرهبة احتراما وتوقيرا، وكان وصفه عندهم: فرد أزلي خالق، كان قبل كل شيء ويبقى بعد كل شيء، لا بداية له ولا نهاية، خالق الأرواح في الأشباح يمضي الزمان وهو باق، لأنه هو الإله الذي لا اسم له وقد سماه المصريون القدماء آتون "Aton " ولهذا الاسم معنيان: معنى خفي وهو أصل كل شيء قام به الوجود ومعنى ظاهري، وهو الأتوم الذري المعروف الذي تكونت به السموات وما فيها من شموس والأرض وما فيها من مخلوقات فإذا اتجه أتوم للوهب والإعطاء سمي (رع) وإذا ظهر بارزا مثاله (الشمس) سمي آمون، فظهر آمون ثم رع ثم أتوم الخفي..

ووجد في هرم سقارة المدرج من الوثائق ما يدل على أنهم كانوا يعتقدون في إله ذي صبغة خفية لأنه غير منظور.

ووجد أيضا في هيكل إيزيس بصا الحجر نقش قديم يتضمن الكلمات الآتية: أنا كل شيء كان، وكل شيء كائن، وكل شيء سيكون، وحال على من يفني أن يزيل النقاب الذي تنقب به وجه من لا يفنى".

قال العلامة ماسبيرو Maspiro من أساتذة كلية فرنسا: "وكان إله المصريين الأول عالما بصيرا لا يدرك، موجودا بنفسه، حيا بنفسه، حاكما في السموات والأرض لا يحتويه شيء، فهو أب الآباء، وأم الأمهات، لا يفنى ولا يغيب، يملأ الدنيا وليس له شبيه ولا حد، ويوجد في كل مكان".

ويدعي بعض العلماء الذين كان عليهم بالمصرولوجيا القديمة سطحيا غير ناضج: أن قدماء المصريين كانوا يعبدون آلهة متعددة ومن بينها صنوف من الكواكب، كالشعرى المانية والشمس والجوزاء وغيرها، بل وأكثر من هذا قالوا: إنهم كانوا يعبدون الحيوانات كالبقر والعجول والقردة والقطط والتماسيح، ولم يعلموا أنها كانت رموزا مجازية تدل على حقائق وصفات إلهية.

وقد وقف أولئك العلماء عند الرموز ولم يعدوها إلى أسرار الديانة المصرية وهي أن عوام المصريين القدماء لم يعبدوا هذه الأشياء لذواتها، وإنما جعلوها رمزا لذلك الإله القادر الذي حلت على زعمهم روحه وظهرت آثاره فيها.

وهذا من فعل الكهنة في دور من أدوار الديانة المصرية، وهو الدور الرمزي المعدد للآلهة، ويدلل على ذلك ما ورد في صلواتهم وأناشيدهم من الأدعية التي يوجهونها إلى الإله حيث يقولون: "يا مولاي ويا سيدي إنك خلقتني وصورتني، وجعلت لي عينا أبصر بها آثار قدرتك وآذانا أسمع بها أناشيد تقديسك".

وقد ورد في إحدى أوراق البردي المحفوظة في تورينو على لسان الإله الأعظم: لقد خلقت السماء والأرض وما بينهما، وأنا هو الدائم بعد فناء كل شيء، والذي يعلم كل شيء – وهنا وفي "الأمانتي" – الجنة أو السماء – حيث تمكث الأرواح في ناحية الغرب، أي الآخرة.

ومن صلوات الكهنة بين تلاميذه في العبادة السرية: "هو الله، الواحد الأحد، الذي لا شريك له"

فهل يعقل أن قوما يصدر عنهم مثل هذه الصلوات والأدعية، بل مع قول إله المصريين عن نفسه الذي مر بك، أن يقال في حقهم إنهم كانوا يعبدون

النجوم والحيوانات؟!

ونحن نقول لأمثال أولئك: إنما هذه رموز صنعها الكهنة ليستروا بها عن الشعب الوجه الصحيح للحقائق، وسيتضح ذلك للقارئ فيما يأتي هنا من أبحاث.

وقيل إن المصريين القدماء قبل إدريس – هورمس – انحدروا من شعب هندى منقرض وهو الجنس الأحمر الذي من سلالته هنود أمريكا، ومن آثار أولئك الهنود أبي الهول، وهذا الرأي حققه العلماء ليبا ونجون Libn Uungon وسافيل Safiei وروزال Rowasil وجوباتنفيل Gobunifil .

وجاء في كتاب خطي مكتوب باللغة الهيروغليفية اكتشف حديثاً – وتاريخه قبل المسيح بأربعة آلاف سنة أي في عهد الدولة الرابعة – أن أبا الهول كان مطمورا تحت التراب ومنسيا منذ أجيال عديدة، فاكتشف في العصر المذكور وليس كما توهم بعض المؤرخون من أن أبا الهول أقيم في عهد بناة الأهرام بل كان مطمورا فكشفوه.

ووضع أبو الهول على شكل له جسم ثور وصدر سبع ورأس امرأة إشارة إلى القوة والصبر واللطف – وهو تمثال هرمس أو إدريس – أو رمز للحكمة أو للنيل في فيضانه الحاصل دائما والشمس في برجي الأسد والجوزاء"

وكان هرمس – إدريس عليه السلام – قد بلغ في الحكمة والعلوم الإلهية والطبيعية والفلك مبلغا عظيما حتى ألهه المصريون فيما بعد، وهو الذي علمهم المساحة والفلك وباقي العلوم الرياضية وعلم الوحدة الإلهية والطبيعيات وله في ذلك مؤلفات احتفظ بها الكتبة ككنز سري تحت أيديهم.

العلوم السرية عند الكهنة المصريين

كان الكهنة يلقنون تلك الفلسفات والعلوم الهرمسية – للمشتركين فقط – الروحية السرية لتلاميذ الكهنة، تلقينا شفويا فيعلمونهم التوحيد وسر الروح وشيئا من أسرار الطبيعة وعلم الفلك ويأمرونهم بكتم تلك العلوم عن العامة، وجعلوا كتب هرمس أسفارا مقدسة لهم.

وكان الطالب أو المشترك بعد أن يقضي سنين طويلة ويمر في تجارب شتى حتى يجوز الامتحان، يطلع على السر، فيذهب به الكاهن ليلا إلى سطح الهيكل أو المدرسة – أثبت المؤرخون أن ذلك الهيكل هو الموجود الآن بجانب أبي الهول المسمى باسم الكنيسة وكان مطمورا فكشف على يد الأستاذ عبد الفتاح حسن الأثري المصري المعروف – ليقص عليه رؤيا هرمس قائلا: "رأى هرمس يوما وهو في حالة انخطاف روحي الكون والعوالم متجلية أمامه، والحياة منتشرة في باطن كل شيء فصاح به صوت النور الأقدس المالك للكون جميعه، وكاشفه بالسر قائلا: إن النور الذي رأيته هو الروح الإلهي الحاوي سر كل شيء والمتضمن رسوم كل الكائنات. أما الظلمة فهي العالم المادي العائش فيه بنو الأرض، والضياء المتدفق من الأقاصي هو العقل الإلهي، باتحادهما تكون الحياة، وأما روح الإنسان فوضعها على وجهين الأول: اعتقالها في المادة حين تشبثت بها، والثاني ترقيها في النور إذا أدركته ووصلت إليه بالمعرفة. والأنفس هي بنات السماء وسفرها تجربة لها في التجسد تفقد ذكر منشئها السماوي، ولاعتقالها بالمادة وسكرها بنشوة الحياة تنحدر كغيث"

"ناري إلى أقطار العذاب والهاوية والسجن الأرضي العائش أنت فيه الآن"

"تحسب الحياة الإلهية أضغاث أحلام وتتيقظ من هذه النومة إذا اكتحلت" "بصرتك بنور المعرفة وعودت نفسك طريق السمو الروحي".

"إن النفس الشريرة تبقى معتقلة في الأرض بأغلال شهواتها ورغباتها الأرضية". "إنما الأنفس الفاضلة ترقى متطايرة إلى الأفلاك العلوية لتحظى برؤيا المعاني الإلهية وتتشبع منها بقوة ما امتلكته من الاختبارات والمعارف" "والإرادة الفعالة المكتسبة في وسط الآلام والشدائد والجهاد بإرادتها المتحررة" "وتصبح هي ذاتها نيرة لامتلاكها النور الإلهي في جوهرها وأفعالها فثبت إذن قلبك يا هرمس، وسكن روعك عند نظرك إلى الأنفس الصاعدة في معارج الأفلاك العلوية توصلا إلى المبدأ الأول الذي منه يبدأ وفيه ينتهي كل شيء منذ الأزل: ثم سبَّحت الأفلاك هاتفة معا: الحكمة، الحب، العدل، البهاء، العظمة، العلا، الخلود".

وكان يردف الكاهن الأكبر كلامه قائلا:

"تأمل يا بني هذه الرؤيا تجد فيها سر كل شيء وكلما توسعت في إدراكها اتسعت لديك حدودها واتسعت معرفتك ثم اعلم بأن ناموسا نظاميا واحدا يغمر العوالم كلها، إن الحقائق العظيمة مستورة تحت حجاب السر ولا يكاشف بمعرفتها التامة إلا من جاز في التجارب التي جزنا فيها". "وإن من الواجب أن تقاس الحقيقة على قدر مبلغ العقول، فلا يجوز إفشاؤها للضعفاء لئلا يتهوسوا بها، ولا للأشرار لئلا يتسلحوا بها للشر؛ فاحفظها إذن في صدرك وانشرها بلسان أعمالك وليكن العلم قوتك، والناموس سيفك، والصمت درعك".

أصل الديانة المصرية وعقيدة الخلود

كان الكهنة المصريون يعتقدون أن الإنسان مركب من أربع طبائع أو خصائص (الجسم) وهو يضم ظله ويبقى معه في قبره مادام لا يتحلل (والظل) يحوي (النفس) التي تمثل بعد الوفاة أمام محكمة الدينونة الإلهية حيث يحكم أوزوريس وتكون النفس غلافا (للكاه) وهو الشرارة الإلهية والروح التي أوجدت في الحياة لتكون صديقا باطنيا لنصح الشخص وتقوية النفس ومساعدتها ولسانها الضمير؛ فيزن أوزوريس مبلغ اعتدال هذه النفس واستقامتها أو زيفها ونقصها.

وهذه الشرارة الإلهية تترك النفس بعد الوفاة، ولن تتصل بها إلا وقت الاتحاد بالمبدأ الأسمى، أو وقت الدينونة للثواب أو العقاب فتلوم النفس إن كانت مخطئة وتسرها إن كانت تقية، ولم تكن عند المصريين فسحة الزمن التي بين الميلاد والموت شيئا مذكورا حيال الحياة الآجلة المستقبلة للكائن الإنساني.

وكان المصريون يعتقدون أنه لا بد من أن أوزوريس رمز الخير المقيم في أماني، وهي سماؤهم التي توجد وراء مغيب الشمس يدين ابنه الميت قبل أن يدخله إلى السعادة الأبدية بالانضمام إلى علة العلل، وهي عندهم الإله الأول الذي هو مصدر كل حي ومرجع كل صالح من الأحياء؛ فإن وجد أن سيئاته أكثر من حسناته رده (بزعمهم) إلى الأرض ليكفر بواسطة أدوار التقمص من حيوان إلى حيوان، عن الذنوب التي ارتكبها عندما وصل إلى أعلى درجة من المخلوقات وهي درجة الإنسان، فإن وجد صالحا أدخله (الأماني) السماء:

وعقيدة التناسخ هذه أخذها المصريون عن الهنود كما قدمنا، وإليك بعض ما جاء في كتاب الموتى ما تدافع به الروح عن نفسها أمام محكمة أوزوريس بعد الموت.

"أيها الإله العظيم، ورب الحق، أتيت ملتمسة نعمتك إني أعرفك وأعرف اسمك؛ فأنت أبي أوزوريس: إله الخير ومدبر الأنفس. وأعرف الأربعين إلها (رمز) الجالسين معك في ديوان الحق لمعاقبة الأشرار وأنتم يا معلمي الحق دعوني أن أعرفكم لأني لم أرتكب شرا خفيا ضد قريبي ولا أحزنت أحدا ولا كذبت على أحد، ما أتيت عملا رديئا، ولم تكن بيني وبين الشر مخالطة، ولم يترتب على عملي وجود خائف أو فقير أو متألم أو تعس... إلخ"

وكان المصريون يعتقدون أن أجداده وأسلافهم (شسوهور) إنما أوتوا أصول دينهم وقوانينهم من الحكمة الإلهية مباشرة على لسان نبيهم هوروس أو هرمس وهو إدريس عليه السلام أو خانوخ بالعبرية وهرماكيس باليونانية كما تقدم.

وقد يفهم من التاريخ أن الهراميس ثلاثة:

١- في مصر: باسم هرمس الكبير غير هوروس بن ايزيس الذي اتخذ اسمه فيما بعد.

٢- وواحد في اليونان باسم هيرماكيس وكان يسميه القدماء إسكايبازيس

٣- وواحد في الفرس باسم هرمز.

والحقيقة أن الجميع شخص واحد بعبارة هرمس واحد وهو هرمس المصري أو إدريس النبي المثلث الحكمة لكونه أوتي النبوة والعلم والحكمة.

وللمؤرخين رأيان في هذا التعدد: رأي يقول بأن سبب التعدد هو اسم هرمس الذي انتقل مع تعاليمه إلى الفرس واليونان والكلدان، ورأي آخر يقول أن بعض تلاميذ هرمس الذين تفرقوا على تلك الأقطار لقبوا أيضا بالهرامسة تبعا لمعلمهم والرأي الأول هو الأرجح وإن كان الرأيان جائزين. ورسول الله إدريس

هو أول من نظر في الرياضيات ودون الكتب واستلهم الطبيعة والحقيقة أسرارهما، وكان طبعا يعلم بإله واحد له صفات ثلاث: الوجود – الحكمة – الحياة.

ومن قوله: «أول ما يجب على المرء الفاضل في طباعه تعظيم الله ثم شكره على معرفته، وبعد ذلك فلناموس – الشريعة – عليه حق الاجتهاد، والدأب على الطاعة وللسلطان عليه حق الانتصاح والانقياد، ولنفسه عليه حق الاجتهاد والدأب في تهذيبها وطلب السعادة الحقة ولخلصائه عليه حق المودة والبذل، فإذا أحكم هذه المبادئ لم يبق عليه إلا كف الأذى عن العامة، وحسن المعاشرة بسهولة الخلق"

ومن صفات الله الثلاث (الوجود، الحكمة، الحياة) اشتق المصريون في العصر الثاني لتطور الديانة (عصر الرموز) اسم آتون، ورع، وآمون. هم بمعاني: الخفي، والواهب أو المعطي والظاهر في الشمس وفي باقي الطبيعة. وما زالوا يشتقون على تمادي الزمن، حتى صارت الوحدانية ثالوثاً والثالوث تاسوعا، عدا آلهة ثانوية منسوبة إلى هذا التاسوع. وذلك نفس ما فعله البراهمة في الديانة البرهمية، فصار برهما الفيدا وبتاح الهرمية شيئا واحدا هو نفس: آتون، ورع، آمون في مقابل: برهما وفيشنو وسيفا.

التاسوع المصري

١- أتوم – آتون: الإله الخفي الذي لا يظهر إلا بصفاته وهو نور الأنوار..

٢- رِع: الذي تشخص فيه النور فصار عطاء وخلقا (الخلق والرزق)..

٣- آمون: ظهور القدرة المشرقة في الشمس، وهو مظهر رع الذي يوصل عطاءه إلى المخلوقات (وفي النهاية صار صنما لطيبة)

أما الثالوث الثاني المشتق من الثالوث الأول فهو:

٤- نيت: الأثير العام.

٥- نوت: السماء بأفلاكها وكواكبها والهيولة العامة.

٦- شو: الجو أو الشحنة الكهربائية الموجبة ويتبعه "تفنوت" الشحنة السالبة وهو نفس رمز "فيشنو" في الديانة البرهمية!!

أما الثالوث الأخير من التاسوع فهو:

٧- إيزيس: بمعنى الحياة مطلقا أو الروح تخصيصا.

٨- أوزوريس: بمعنى التعبير أو الماء أو الازدهار.

وهو نفسه الذي سيحاسب الموتى لينمي عالم الغروب أو "الأمانتى" الجنة أو السماء.

٩- سيت: المدمر أو الفناء أو التلاشي والجدب أو عدم سريان الكهرباء (يضاف إلى هذا الثالوث حوروس بن إيزيس بمعنى الخصب أو النيل، ويوجد للنيل عنده أسماء أخرى وهوروس أيضا بمعنى اتصال الروح

بالمادة، وهو نفس سيفا الرمز الهندي للتدمير والفناء كما أن فيشنو، للتعمير والتكوين وهما كناية عن مظاهر التحول في الطبيعة.

والهنود والمصريون كانوا يجعلون من تلك القوى الطبيعية أو الإلهية آلهة تتصل بالألوهية العليا، وبذا يكون لديك تسعة آلهة وضعها الكهنة المصريون وإليك آلهة أخرى ثانوية.

١- هاتور أو هنريت: بمعنى الطبيعة في الناس وفي الأشياء.

٢- نيسبر نشر: النظام أو القوانين الطبيعية.

٣- بوتاشيت: الفيض الشمسي أو العام.

٤- تنحييت: الأطياف الانعكاسية.

٥- توت: العلم أو الكهرباء في معناها العام.

٦- معت: الحكمة. وفي معنى آخر التيار الكهربائي الأول معنوي والثاني ظاهري.

٧- بتاح: مرادف رع في الثالوث الأول وهو بمعنى القدر.

٨- تيفون: وهو إله الشر ورمزه الثعبان.

ولما كانوا يقولون بالحلول والتقمص ألهوا كثيرا من أرواح أجدادهم وآبائهم وأيضا أرواحا حلت في أجسام الحيوانات والهوام، وذلك في الدور الثالث للانحدار الذي سنتكلم عنه. وإليك إحدى صلواتهم التي يمكنك أن تتبين منها أفراد التاسوع المصري إذا دققت في معانيها، وإن كانوا في النهاية يرجعون كل ذلك إلى الإله الحق الواحد الأحد الذي لا تراه الأبصار وإن تشبعت بنوره البصائر: "الخضوع لك يا من اسمه رع إذا أشرق، وأوزوريس إذا أغرب. يا من توج ملكا على الآلهة. أنت ملك السموات.. أنت ملك الأرض. أنت خالق كل

شيء يعيش على سطح الأرض وما اختفى في باطنها. أنت الإله الأوحد – أتون – الذي له الوجود الأزلي. أنت الذي خلقت الأرض وصورت الإنسان وبنيت قبة السماء المائية وكونت حابي – وسخرته لحوريس – إله النيل بقدرتك (جبت) الأرض تخرج زرعا ونخيلا. أنت الأبدي الواحد الذي خلق نفسه بنفسه".

وكانت مصر قبل عصر مينا ذات حضارة ودين وفلسفة وعلم وكان لها جامعات كبرى إحداها في عين شمس، والثانية في صان الحجر، والثالثة (في تل العمارنة) في العهد الملوكي أسسها إخناتون حين ثورته التي أراد بها إرجاع العبادة إلى آتون والتخلص من الأصنام ومن كهنتها أيضاً.

وكان يدرس في تلك الجامعات (العلوم الإلهية) (متيد الحيزك) Melhal fhiszice والطبيعية (والفيزيك fhsizice حتى العلوم الكهربائية المصرية القديمة والذرية، فضلا عن العلوم الفلكية وبقية الرياضيات والعدد، وعلى الميقات والأزياج الفلكية والطب ومنه التحنيط المشهور عن المصريين والذي ثبت بالأدلة الدامغة في التاريخ أن ديموقريطس اليوناني تعلم في مصر وأخذ منها نظرة الجزء الذي لا يتجزأ (الذرة) وسماها آتوم الاسم الذي أخذه الفرنج عن ديمقريطس وقد سبق المصريون اليونان والأوربيين في هذا لدرجة أن جعلوا اسم إلههم الأول آتوم، لم يصل إلى سره أحد إلى الآن.

وكان الكاهن المصري هو الكاهن والمعلم والمدرس وأما عميد الجامعة فكان رئيسا للكهنة وكان المشتركون في الأسرار الكهنوتية يتلقون اللاهوت والفلسفة وعلوم الطبيعة مختلطين قبل أن يفصل اليونانيون علوم الفلسفة واستقلال البحث العقلي بالمنطق الأرسطوطالسي أو الإدراك العقلي عموما وقبل أن يفصل أرسطو العلوم الطبيعية خصوصا وهو أول من تكلم من اليونانيين في الفيزيك أو العلوم الطبيعية، عن مجموع الفلسفة بمعنى أنه في عصره

صنع ما صنعه فرنسيس بيكون في عصر النهضة العلمية الحديثة.

وإن كان أرسطو في غالب أمره يعتمد على الاستنتاج، وأما بيكون فكان كل معتمده على الاستقراء والتجربة. وأعظم فلاسفة اليونان الذين ينعتونهم بالحكماء السبعة وأولهم طاليس، قد تلقوا علومهم في مصر وأقاموا فيها للتعلم عن حكماء المصريين حقبة من الزمن متفاوتة الطول والقصر، ومن أولئك صولون، وطاليس، وأفلاطون، وفيثاغورس، وإيدوكس وديموكريت، وليكورج.

ومن الفنانين والعلماء: أورفيس أشهر موسيقي يوناني، ويقال إن موسيقاه كانت تستوقف الوحوش، وموزي الشاعر والموسيقي اليوناني، والشاعر هوميروس، وغيرهم كثيرين من الشعراء والعلماء الذين سنتكلم عنهم في الكلام عن الميثولوجيا اليونانية أو ديانة اليونانيين القدماء..

ويقول تيودور الصقلي:

"يؤكد الكهنة المصريون استنادا إلى كتبهم المقدسة، أنهم شاهدوا في بلادهم: أورفيس، وموزي، وميلامبوس، ويدال، ثم الشاعر هومير، وليكورج الإسبرطي، وصولون الأثيني، وأفلاطون الفيلسوف. ويذكر الكهنة المصريون أيضا فيثاغورس ابن جزيرة ساموس، وإيدوكس الرياضي، وديموكريت ابن مدينة أبديرا، وابنوبيدان ابن جزيرة صافوس"

ذلك ما قاله تيودور، أما بلوتارك فبعد أن بين في الفقرة التاسعة من كتابه (إيزيس وأوزوريس) أن كلمة "زفس" تتفق في معناها مع الإله الأول المصري. ونحن نقول إنه نفس الإله الهندي المختفي وراء الكون المتطور. يقول بلوتارك في الفقرة العاشرة, وقولنا عما أخذه اليونانيون القدماء عن مصر يؤكده العلماء اليونانيون المتنورون أنفسهم وهم صولون وطاليس وأفلاطون وأيودكى وفياغورس

وذلك أن هؤلاء اليونانيين المتنورين كانوا قد زاروا مصر وعاشوا فيها على أوثق اتصال بكهنتها.

ومن ذلك أنه يقال: إن أدوكس تلقى العلم على يد شو نوفيس والمنفيسي، وإن صولون تلقاه على يد شونيس في سايس – صالحجر – وأن فيثاغورس اتصل بأنينوفيس في هليوبوليس. ويجب أن ننبه هنا على أن الجامعات المصرية القديمة والعلماء الذين اتصل بهم فلاسفة وعلماء اليونانيين كانت تعاليمها سرية لا يطلع عليها الشعب والواقع تحت الرموز والطقوس وإنما يطلع عليها المشتركون في الأسرار والمشتركون فقط بعد امتحانات واختبارات جمة.

وقلنا إن ذلك نفسه هو ما دفع سواد الشعب المصري القديم إلى الشرك والوثنية دون أن يدري. وقد ظن المصريون المتأخرون الذين أعقبوا حكم الكهنة، أن التماثيل الرمزية التي أقيمت لأتون أو رع أو آمون، على هذا الاعتبار، آلهة مختلفة فعبدوها (وأما أصلها فصفات إلهية لا آلهة)، وصار بعد ذلك لكل مدينة من المدن المصرية آلهتها فكان موطن "أوزوريس" في أبيدوس و"فتاح" في منفيس و"آمون" في طيبة، و"هوروس" في إدفو، و"هاتور" في دندرة.

وكانت طيبة دون سائر هذه المدن ممتلئة بالمعابد العجيبة، وأهم هذه المعابد قد خص بالصنم الأكبر آمون أو "آمون رع" إلى أن قام إخناتون بثورته المشهورة التي لولا أن قام في وجهه الكهنة، والجند وعلى رأسهم "حور محب" لتحول الشرك ثانية إلى التوحيد. وظل الكهنة يحكمون مصر حكما أوتوقراطيا دينيا تحت الاسم المشهور حورشوس أو خدمة هوروس إلى سنة ٥٠٠٤ ق.م على قول التاريخ الكبير وإلى سنة ٤٥٠٠ على قول آخر، و ٣٥٠٠ على التاريخ الصغير. والأول عندنا هو الأرجح، حيث انتزع الحكم من أيديهم أول ملوك العائلة الأولى المنفية – نسبة إلى مدينة منف – الملك مينا أو منياس أو

مصرايم بن حام بن نوح كما تقدم، وهو الذي شيد مدينة منفيس، وبنى فيها أول معبد للإله (فتاح أو بتاه)، ورتب له كهنة خصوصيين، ومنذ تربع "مينا" على عرش مصر ابتدأت الديانة المصرية في دورها الثالث، دور الانحدار، على توالي الأيام وتعاقب الملوك.

وأخذت المعتقدات والآلهة تتزايد وتتعدد، فتتنافر حينا، وتأتلف حينا آخر طيلة خمسة آلاف سنة، وكان الكهنة المتولون أسرار الديانة ووعظ الملوك حينئذ يربون أبناء الملوك والقواد ويعذبونهم في هياكلهم ومعابدهم، ويتخذون من خاصة الملك وحاشيته من أبنائهم كجواسيس على من يتولى الحكم من الملوك. وبما أنهم كانوا يحتفظون بأكثر العلوم البشرية حينئذ وخصوصا السرية منها والطبيعية، وكان لهم فلسفتهم الخاصة وهي من أقدم الفلسفات، ومنها اشتقت الهيلينية ثم الغنوثية فيما بعد وكان الفلاسفة وعظماء الشعوب من يونانيين وعبرانيين وفينيقيين يتقاطرون على أرض الفراعنة ليسقوا من منهل علومهم الزاخر بالغرائب والأسرار!!

ولما مات (مينا) عبده قومه كابن للإله فتاح ومن "مينا" خرج الفراعنة أبناء الآلهة، ثم لكيلا تنقطع السلالة الإلهية – على زعمهم – تحتم على من يرقى العرش من أسرة جديدة أن يتزوج من الأسرة التي سبقته في الملك، لينتقل دم "مينا" من جيل إلى جيل. وهنا اشترك الملوك مع الآلهة والكهنة أحياء وأمواتا ولذا نرى الإله والملاك معا في نقوش المعابد ورموزها المزدوجة – تعني الشمس المجنحة مضمومة إلى هوروس – فوق أبوابها.

وبينما نرى الملوك في المعابد الكبرى بالكرنك ماثلين في العبادة أمام آتون أو رع أو آمون، إذ بنا نرى في بعض حوائط المعابد الصغيرة صور الفراعنة، ولها الصف الأول!! حتى قبل الآلهة. بل نراها تتقبل العبادة ولها اختصاصات الآلهة. وهكذا تطور الدين من عبادة الإله, الذي لا اسم له ولا شكل في أول أمره – في

شخص آتون ورع – ثم قرص الشمس – في شخص آمون – وبقية مظاهر الطبيعة، ثم الملوك والعظماء.

أقول ولم يلبث ذلك الدين الذي بدأ بالتوحيد أن انتهى بالشرك والوثنية التي خالطت العبادة على يد الكهنة أخيرا من أحط الحيوانات وأحقر الحشرات والهوام، وإن كان ذلك باعتقاد أن أرواح أجدادهم حلت في تلك الكائنات فإن سألتهم قالوا لك: إننا لا نعبدها بالذات، وإنما نتقرب إلى أرواح أجدادنا وآلهتنا التي حلت في أشخاصها!!

وما زال الدين المصري آخذا في الانحدار طيلة نيف وخمسة آلاف سنة حتى أجهزت عليه غارات الفرس واليونان، وقد هدم الرومان بقية هياكل المصريين ومعابدهم ولاشوا ما بقي من علومهم ومعارفهم التي ما التقطت منها مدارس الإسكندرية إلا بقايا زهيدة خلقتها الفلسفة المدرسية في القرون الوسطى، وفي سنة **٣٩٥** م أصدر الإمبراطور "تيودور الروماني" أمره بإبطال الديانة المصرية، وباعتبار النصرانية دينا لمصر.

وفي مثل هذا التطور الانحداري: من التوحيد إلى الوثنية والشرك، وعبادة الإنسان والحيوان، تكذيب لنظرية بعض كتاب الأوربيين المحدثين الذين يخالفون رأينا ويخالفون الواقع؛ فيقولون إن الإنسان أول ما عبد الأصنام والأوثان، وكلما ترقى رقى دينه معه، حتى وصل لعبادة الإله المعنوي غير المنظور, ولو صح قولهم هذا، لكان أبناء عصرنا القرن العشرين – وهم آخر حلقات الترقي – طبعا!! – من أكبر المتدينين والمؤلهين والمثاليين، ومن أعظم الناس روحية وحنانا وحدها على الإنسانية وأبنائها!!.

ولكن ويا للأسف.. إنا نعيش في عصر يشابه العصور البدائية في المعتقد في أدواره الأخيرة التي مرت بنا، وهي أدوار التحلل العقيدي والخلق والإنساني،

اتباعا للنظرة المادية أو النفعية أو الاقتصادية، وهذا نفسه يبرر رأينا وترتيبنا الذي أسلفنا، ويبرهن على صحته في تطور الديانات، وطبعا التطور لا يقف عند حد محدود، وكل الكائنات دائمة التحول. فإن رؤي أن التدين نفسه والعقيدة الحقة فرقت سيما في الكتب المنزلة وعلى يد موسى وعيسى ومُحَّد عليهم السلام! فانظر أنت إلى ما صارت إليه الديانات حتى هذه الساعة في عصرنا الحاضر من فتور في العقيدة وفي الاتجاه وفي العبادة، وهذا تحدر لا ترقي وتطور من أعلى إلى أدنى ومن الأمام إلى الخلف إذا صح أن نسميه تطورا ، وسبب ذلك أدوار الانتقال الطبيعية. ولكن اعتقادنا أن التطور دائما سيجعل النتيجة دائما للتعاون والتآخي الروحي والمادي والاجتماعي، بسبب قانون الترقي العام، حيث يخلص الناس من قيود المادة المحدودة، ومن ضغطها على الأرواح والنفوس فيطلبون التسامي إلى عوالم أرق. وهذا أملنا الإنساني العظيم!! نسطره هنا: وقد يكون الإسلام هو الدين الوحيد الذي لم يصبه من ذلك التطور الانحداري إلا اللمم وفي غالب الأمر أنه في مبلغ تدينهم قوة وضعفا لا في أصوله ولا قواعده ولم يصبه من سيول الشرك إلا الرشاش الظاهري، وسبب ذلك:

أولا: أن شريعته الأصلية التي أنزلت في القرآن، قد حفظت من التغيير أو التحريف الذي يعتقد المسلمون أنه كفر، والكفر أعظم إثما من الشرك لأن الوضع والإضافة البشرية في كلام الله تحد للألوهية وإخفاء الحقيقة ولا توجد معنى الكلمة كفر إلا كلمة إخفاء في اللغة العربية، وكذلك السنة قد حفظها علماء المسلمين عن التغيير والتبديل بالحفظ، وما وضعوه من علم الحديث رواية ودراية، وبما حرروا لحفظ تلك السنة من قواعد للجرح والتعديل في أقوال الرواة.

ثانيا: أن الإسلام ليس تغييرا طارئا على دين الوحدانية حتى تعتوره أدوار الانحدار، وإنما هو نفس ملة التوحيد والتنزيه التي جاء بها مُحَّد، والتي تسلمها

إبراهيم عن آبائه وأجداده من لدن آدم، ولذا يقول القرآن "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه" الشورى ١٣. وقد حفظت ملة إبراهيم وهي الإسلام عن التحريف والتغيير إلى الآن للأسباب التي ذكرناها، من حيث أن أقل تغيير فيما أنزل من أصول الشريعة الإسلامية يعتبر عند المسلمين كفرا، وقد حصن المسلمون الأولون أصول دينهم معتبرين بما رأوا من التغيير والتبديل في كتب الديانات السالفة. وندد بذلك القرآن فقال: يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله"!!

ثالثا: لما كان دين الإسلام هو دين التوحيد الخاص والتنزيه الكامل وهو الدين العام لسائر أنبياء الله ورسله، وقد حفظوه في قلوبهم وفي أقوالهم الصحيحة خلال الأدهار. وشعار الإسلام – فضلا عن ذلك – كلمتان بسيطتان مفهومتان غير محتاجتين إلى تفسير أو تأويل لوضوح معناهما وبساطة مدلولها "لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله"، ومعنى "لا إله" تنزيه في صيغة النفي للمثيل والشبيه. ومعنى "إلا الله" إثبات وتحقيق لألوهية من لا تنبغي الألوهية إلا له؛ ولذا جاءت في صيغة الاستثناء والتخصيص، ومعنى "مُحَمَّد رسول الله" يشير إلى مخلوق إنساني يحمل رسالة الله، ليس من الملائكة ولا من نسل الملوك أو الآلهة، وأن لقب ـ سيد الرسل والأنبياء ﷺ – المحبب فإنه عيد مرسل من الله.

رابعا: اتساع تشريع ذلك الدين بحيث تتناول تعاليمه الدين والدنيا وتشمل عموم أبناء الإنسانية من رسل وأنبياء وملوك وسوقة، مهما اختلفت ألوان بشراتهم ومواقع أوطانهم، وتغايرت لغاتهم أو أممهم؛ فهو الدين الموهب الصالح لتلاق سائر البشر والأديان متآخين في رحابه الوسيع.

وذلك لقول الله تعالى في القرآن مخاطبا رسوله مُحَمَّد بن عبد الله حيث يقول:

وما أرسلناك إلا كافة للناس، ومعنى "كافة" واضح في أنه سور عام يدخل فيه سائر البشر!! هذا علاوة على قوله في مكان آخر «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين، والعالمين أكبر صيغة لجمع الجمع في اللغة العربية، تجمع بين أهل السموات والأرض جميعا، أي أهل عوالم السماء وعوالم الأرض. وفوق هذا وذاك فإنا وإن كنا نقرر أن الديانات في العهود الغابرة كانت تبدأ بالتوحيد، ثم يضع الكهنة لشرائعها العليا الرموز بحجة التبسيط لصغر إفهام العامة، ثم ينتهي الأمر بأن تلك الرموز من الأنصاب والتماثيل تتخذ بعد ذلك معبودات للشعوب التي حجبت عن الحقائق بأستار الطقوس والرموز فيحدث انحدار وتطور في تلك الديانات وخصوصا ديانات العهود القديمة من الأعلى إلى الأدنى تطورا.

(أقول) إني أقرر أيضا هنا أن هناك ناموسا عاما للترقي العام والتحول يحدث بالاختبارات الإعدادية التي يسببها التحول والصيرورة يقتضي بعض الوقوف والتحدر فيوجد حالات انتقال تصاحب انحدارات الإنسانية في انتكاسها لينتشلها، وفي رقيها ليرتفع بها وهي أدوار الانتقال المعلومة. ولذا نأمل أن يكون الإسلام الذي يسع الإنسانية جميعا بسائر أطوارها وترقيها في أحوالها الروحية والدينية والاجتماعية الدنيوية.. نأمل أن يكون هو هدف الإنسانية الأكبر في المستقبل إلى السمو الاجتماعي والتربوي والعقل والروحي. ذلك الدين الذي أرسل رسوله للناس كافة. وخاطب كتابه البشر جميعا بقوله "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم".

نقول هذا غير متعصبين للإسلام خاصة، ونعوذ بالله من ذلك، حيث أن القرآن قد نهى عن التعصب بقوله تعالى "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من

الغي"، وأمر بالتسليم لسائر كتب الديانات المنزلة بقوله: "وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى وعيسى، وما أوتي النبيون من ربهم، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون". وقد نهت شريعة الإسلام عن ذلك التعصب بأن أمر الله رسوله في كتابه قائلا لأهل الكتاب: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله" .

إنما أردنا حفظ الدين المطلق الحق ثم تنحية أتربة الشرك والوثنية والكفر عن الدين الصحيح الذي صاحب البشرية في أدوارها جميعا من آدم إلى مُحَمَّد، ومن طفولتها إلى شبيبتها. فإن كان هذا كلام جيد لا يعترض عليه، بحثنا عن أي الدين، أيها يصلح في عصرنا وبعد عصرنا لقيادة البشرية روحيا وماديا فإذا كنا مجدين ووفقنا في البحث نجد أن الدين الذي وصفناه هنا: الدين الذي يتصف بالسماحة والحكمة والخلق الخالد، فلا نجد ثمة سوى الإسلام وبصرف النظر عن أن نكون نحن مسلمين أو غير مسلمين، وإذا كان القرآن يصرح أن الإسلام هو دين الفطرة الذي قال فيه القرآن باللسان الإلهي لإبراهيم "فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون".

نقول ذلك لمناسبة أن أصل الديانات غير المنزلة جميعا ديانتان فقط الهندية ثم المصرية وكل ما يجيء بعدها من دين وضعي غير إلهي فيستمد منهما لهذا السبب جئنا هنا بذكر الفرق بين التوحيد والشرك.

أصل الحضارة المصرية

إن الحضارة المصرية هي الحضارة الأولى التي أقيم على أساسها سائر الحضارات بعدها، والديانات والفلسفات والعلوم.

وقد قدمنا أن العلم والفلسفة في هياكل ومعابد المصريين الدينية، كانا مختلطين بالتعاليم الدينية، وتلك المعابد نفسها كانت هي الجامعات التي تخرج الكهنة والفلاسفة والعلماء في وقت واحد.

ومصر وإن كانت قبست الديانة الحقيقية من آسيا، ولم يسبقها في هذا إلا الهند ثم مصر ثم رسالة نوح فيما بين النهرين، فإن دينها (الديانة المصرية القديمة) كان أساسا لما عداها من الديانات القديمة أيضا التي كانت شرائعها موجودة قبل العهد الحديث الذي جاءت به الكتب المنزلة، واتضح فيها نور الألوهية مشرقة.

فالدين المصري أساس الدين الكلداني والفارسي والإغريقي والروماني إلى عهد الإسكندر. وظهور اليهودية والمسيحية والإسلام.

هذا في الدين، وأما في الفلسفة، فقد مر بك أن أعاظم فلاسفة اليونان عدا سقراط هم الذين تربوا في مصر ولقنوا فلسفاهم عن الكهنة المصريين.

وأما من جهة العلم، فكان الأمر كذلك أيضا وسيتضح لك فما يأتي مما قبسته الشعوب والأمم عن الحضارة المصرية من مدنيات مختلفة.

على أننا نتقدم هنا فنقول بأن اليونان قد قبست آلهتها وفلسفتها ومدنيتها وعليها عن مصر القديمة خلافا لأقوال بعض الذين تلقوا الفلسفة أو

العلم أو الأدب على أيدي أساتذة أوربيين هم بدورهم يتعصبون لاستقلال اليونان عن الشعوب في مدنيتها وعلمها ولا سيما في الفلسفة قائلين إن الفكر اليوناني هو وحده الذي فلسف المعرفة.

ونحن بدورنا لا ننكر على اليونان أنها – بعد استيعاب الدين المصري ونقله إلى شعبها (في صورة الميثولوجيا اليونانية) ومعه الفلسفة – قد فصلت الفلسفة عن الدين بفصلهم للميثولوجيا اليونانية فيما بعد وحرروا الفكر بالمنطق وذلك بعزل الوثنية القديمة عن عالم الفكر.

وأما من جهة أصل الحضارة المصرية فإن مصر توافرت فيها كل مسببات الحضارة ووسائلها.

وللحضارة المصرية أصل في وادي النيل نفسه حينئذ، وإن في عناصر الحضارة المصرية المعروفة قبل التاريخ في العصر الذي وصفنا حالة أهله، وفي دراسة أجناس سكان الوادي في طور ما قبل التاريخ، تفسير لقيام تلك الحضارة المصرية القديمة السابقة على كل حضارة.

ويقول بعض العلماء إن أهم عناصر تلك الحضارة جلبه من الخارج أقوام أغاروا عليها، وأنهم آسيويون لغتهم سامية، دخلوا مصر من شرق الدلتا أو من طريق وادي الحمامات إلى النيل.

ويستدلون على ذلك بدخول تراكيب سامية في اللغة المصرية وبتغييرات شتى طرأت دفعة واحدة على عبادات المصريين وطرائق دفنهم موتاهم.

وعندنا ألا تعارض في القولين معا من حيث أن لمصر والمصريين عصورا تتابعت في التاريخ: العصر البدائي، والحجري، والبرنزى.. إلخ

وحقيقة وفد إلى مصر لشهرتها بالحضارة ولاسيما بالزراعة وهي دليل الحضارة

والعنصر الأساسي فيها، دخل عناصر كثيرة من حولها من الأمم.

ودخول الفاتحين إلى مصر قديما وحديثا أمر لا ينكر، واختلاط مصر نفسها وهي سيدة الحضارة بما حولها من الشعوب والأمر أمر واضح أيضا.

وقلنا إنه من الوافدين على مصر في رأي سالف: إدريس عليه السلام وأتباعه، كرسول من الله أرسل لمصر وهو رأي يرجحه قصة هوروس الكبير في إدفو، وهذا غير حوريس الصغير بن إيزيس كما قدمنا.

وأن تكون لمصر حضارتها منذ العصور الحجرية فهو صحيح أيضا وعليه جمع كثر من علماء الإيجبتولوجيا، واحتكاك مصر بغيرها من حولها من شعوب وأمم، وغزوها لتلك الشعوب، وغزو تلك الشعوب أيضا لها، شيء واضح في التاريخ كذلك، ولذا قلنا إن الرأيين لا يتعارضان وإن تغايرا. ولقد قسم العلماء أجناس سكان مصر القدامى إلى الآتي:

١- سكان الصعيد: وهم جنس أقنى الأنف ناعم الشعر، يشبه القبائل التي تسكن الآن بلاد الصومال شبها تاما.

٢- سكان الدلتا: وهم ليبيون يشبهون الآسيويين الساكنين شرق الدلتا ولغتهم سامية.

والظاهر أن هؤلاء الليبيين تغلبوا على سكان الدلتا الأصليين وهم الجنس الإفريقي الأبيض أو جنس البحر الأبيض المتوسط، ودفعوهم نحو الصعيد. وقد أثروا في لغتهم ودينهم وصبغوها بصبغة آسيوية ونشروا صناعة المعادن.

ثم حدث بعد ذلك تغلب أهل الصعيد على الدلتا وتأسيسهم ملكة واحدة ذات تاج مزدوج اللونين الأحمر والأبيض إشارة إلى الوجهين الشمالي والجنوبي، وقد نشطت فيها الحضارة.

وعلى ذلك لم تنشط الحضارة تبعا لإغارة أجنبية فقط، ولا ينافي ذلك أن سكان الصعيد أصلهم من الصومال أو من شبه جزيرة العرب وقد كان المصريون القدماء يعتقدون هذا ولهم فيه قصة كبيرة منقوشة على جدران معبد إدفو وهي قصة هوروس الكبير (إدريس وأتباعه).

وفي عصر البطالسة تلابس الاسمان: هوروس الأصلي أو هرمس، وحوريس بن ايزيس الذي ترجموا اسم أبيه – أوزوريس – في لغتهم إلى: سيرابيس واسم ابنه إلى حوريس أو هاربوكرات.

ومن ثمة صار سيرابيس المعبود الأكبر في عهد البطالسة وصار هذا الاسم غالبا على أوزوريس عند العامة، أما عند الكهنة المصريين وفي المعابد المصرية فبقيت تسمية أوزوريس على ما هي عليه، وأنشئ لهذا المعبود الجديد معبد رئيسي في الإسكندرية ومعبد آخر في ممفيس.

وارتفع في عهد البطالسة أيضا شأن إيزيس الزوجة الوفية والأم الحنون، فبنى لها معبدا في جزيرة فيلة، وهو الذي يسمى الآن (قصر أنس الوجود) وصارت إلهة الإسكندرية وحامية الملاحة والملاحين.

ومن ثمة قيل: إيزيس آرتينيس، وإيزيس آرتين، وإيزيس هيكي، وإيزيس إستارت، وإيزيس هكات. أما حوريس الطفل فصار اسمه عند اليونانيين: هاربوكرات، وهو مأخوذ من اسمه المصري (حر – يا خرد).

وفي ذلك الوقت كانت المدنية المصرية قد انطفأت وكان الغزو اليوناني قد أخمد كثيرا من الروح المصري، ثم جاء الغزو الروماني فأجهز على بقية كانت لا تزال باقية منه، ولاسيما في عهد تيودور الروماني في سنة ٣٩٥م كما تقدم.

ولكن في هذا الوقت نفسه كان السياح والتجار المصريون قد ترددوا على

الموانئ الكبيرة في البحر الأبيض المتوسط، وكان البعض منهم قد أقاموا فيها، فنقلوا إليها شيئا من الديانة المصرية والمعبودات المصرية، وظهر أثر ذلك أول الأمر في الموانئ والجزر القريبة من مصر.

ولما كانت عبادة إيزيس وأوزوريس قد بلغت شأوا كبيرا في مصر في عهد البطالسة فوق ما كان لها من الشأو الأصلي عند المصريين كانت أكثر من غيرها من العبادات انتشارا.

ففي القرن الرابع قبل الميلاد أنشئ معبد لإيزيس في ميناء (بيريه) المعروف الآن على سواحل اليونان، وبعد ذلك بقليل أنشئت عدة معابد للمعبودات المصرية في جزيرة رودس وجزيرة لسبوس وبيرا وميناء أزمير، وأمكنة أخرى من جزر بحر إيجة، وموانئ اليونان وآسيا الصغرى.

وكان البطالسة يشجعون عبادة سيرابيس – أوزوريس – إيزيس؛ لأنها كانت عبادتهم الرسمية في الإسكندرية، فجعلت المدن الراغبة في التقرب منهم، تقبل هذه العبادة، فانتشرت في جزيرة قبرص وجزيرة صقلية ومدينة أنطاكية ومدينة أثينا.

ثم لما زال سلطان البطالسة بعد ذلك كانت عبادة سيرابيس وإيزيس قد تأصلت جذورها في الجهات التي وصلت إليها.

وما جاءت سنة ١٠٥ ق.م حتى أخذ المعبودان المصريان يغزوان إيطاليا، إذ بني لإيزيس معبد في بومي بإيطاليا، وبني لهما معا معبد في ميناء بوزول.

وفي عهد الدكتاتور "سيلا " كانت توجد في روما جالية مصرية، أخذت عبادة إيزيس تنتشر بواسطتهم بين أهل روما وتسري في الطبقات الدنيا والطبقات العليا.

الآن هذه الطبقات كانت تشعر بحاجتها إلى غذاء روحي لم تكن تجده في ديانات آسيا: ولكنها كانت تجده في الديانة المصرية، ولم يمض جيل من الزمن حتى بني في روما في عهد سيلا معبد لإيزيس.

وأقبل أهل روما على هذه العبادة الجديدة إقبالا وصفه موري فقال:

"لم تكن عبادة إيزيس تنتشر بين الطبقات الوضيعة فقط، هذه الطبقات التي يحملها سوء حالها في الحياة على التأمل والتعزي، وإنما كانت هذه العبادة تجتذب أيضا المثقفين والفلاسفة ورجال الفن، هؤلاء الذين كانوا جميعا يمتلئون احتراما لمصر ذات المدنية القديمة العجيبة والمباني الهائلة التي لا يفنيها الزمان والتي كان كهنتها قد لقنوا الحكمة لأفلاطون المقدس. وقد أدى ذلك إلى أن صار كل ما يأتي من ضفاف النيل، مستحسنا مرغوبا فيه سواء أكان مصنوعات برونزية، أم أوان أم أثاثا، أم ملابس، أم حليا، أم عبادة أم إلهة. ولم يكن أهل إيطاليا يكتفون باقتناء هذه التحف بل كانوا يحرصون فوق ذلك على أن تكون محاطة بالمناظر التي تناسبها حتى تظهر كأنها في بيئتها الأصلية، ومن أمثلة ذلك: الصور التي رسمت على جدران معبد هركولانوم، ومعبد بومي، والتي كانت تبين في الكثير منها عن مناظر نيلية. فهنا نهر يجري تحت ظلال النخيل، وهناك زاوية تزدحم فيها تماثيل أبي الهول، وبين هذا وذاك طير أبي منجل – أبي قرادن – وهو الطير الذي كان يمثل المعبود توت عند المصرين، وتماسيح ممددة على الرمل، وعجول بحر تظهر رؤوسها من الماء، وقرود تتسلق الأشجار أو تصارع زنوجا وأقزاما.. كل هذه المناظر التي كان المقصود منها التقليد كانت تجد رواجا لم يكن يعادله غير الشغف بالعبادة المصرية.

وقال أرمان:

"لا "الأم الصغيرة" معبودة آسيا، ولا "ميترا" المعبود الشمسي المنير للعجم، ولا الديانة اليهودية استطاعت ثباتا في مزاحمتها للمعبودين المصريين؛ لأن هذين الأخيرين كانت لهما في نظر أهل روما ميزات عديدة:

"أولا: أنهما كانا آتيين من بلاد كانت النفوس معجبة بها إعجابا كبيرا لثقافتها القديمة ومبانيها التي تبلغ حد الإعجاز، ولهذا كان أهل روما يرتاحون لتصوير مناظر مصرية بمعابدها وأكواخها المؤلفة من الغاب وتماسيحها"

"ثانيا: أن شهرة المصريين بالحكمة كانت قديمة وعميقة ألم يكن أهل روما يعتقدون أن الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا إذ ذاك المرشدين الروحيين للعالم، أخذوا أفضل نظرياتهم من كهنة مصر؟".

"ثالثا: أن الطقوس الرمزية التي كانت تؤدى في حفلات إيزيس وسيرابيس، كانت ترمز لمعان وحقائق سامية"

"رابعا: وقد كان الأهم في نظر الكثيرين أن عقيدة إيزيس وسيرابيس،كانت تعطي معتنقيها اطمئنانا إلى حياة ثانية أفضل من هذه الحياة ومعايبها، يعيشونها في مملكة سيرابيس، ولهذا كله لم تكن عبادة إيزيس وسيرابيس (أوزوريس) عبادة ميتة، ولا مظاهر خارجية وكفى، كما كانت عبادة الآلهة الرومانية، بل كانت عقيدة تملأ قلوب معتنقيها وتثير عواطفهم الرومانية، وكان كاهن إيزيس الذي يبدو في لباسه الكتاني، يعطى الروح ما هي متعطشة إليه من الغذاء والحكمة".

ونحن لا ننسى أن فيثاغورس الفيلسوف اليوناني الرياضي العظيم وتلميذ مصر، قد افتتح مدرسة عظيمة في إيطاليا واتبعه من أهلها العظماء والكبراء والفلاسفة عدد كبير لأنها كانت مدرسة سرية تعلم أسرار الرياضيات والفلك،

والمعرفتين الفكرية والروحية.

ثم حدث بعد ذلك أن شبت بين القائدين أنطونيو وأوكتافيو معارك، كانت مصر قطب الرحى فيها، فدب في روما شعور العداء لها وأدى هذا إلى تخريب ما فيها من معابد إيزيس، مرة ثم ثانية ثم ثالثة ثم رابعة ثم خامسة في مدى لا يزيد على إحدى عشرة سنة من سنة ٥٩ إلى سنة ٤٨ ق.م. وحرم الإمبراطور أغسطس أن تقام معابد لإيزيس وسيرابيس في روما، ولكنه أباح إقامتها في ضواحيها. ثم جاء الإمبراطور تيبريوس فأبق التحريم على ما هو عليه، ولكن لم تجيء سنة ٣٨ بعد الميلاد، حتى كان الإمبراطور كاليجولا يقيم بنفسه في ساحة مارس قلب روما معبدا كبيرا لإيزيس سمى إيزيس كامينزيس، ثم جاء الإمبراطور دوميسين فزخرف هذا المعبد وزاد فيه. وفي عهده أراد شخص يسمى لوسيليوس أن يحتفل بعودة الإمبراطور إلى روما من بعض حروبه، فبنى في مدينة بنيفان قصرا لإيزيس (سيدة بنيفان) وأقام أمامه مسلتين من جرانيت أحمر ونقش عليهما بالخط الهيروغليفي المصري (هذا صنعه لوسيليوس) وهاتان المسلتان باقيتان للآن، وبعد ذلك بمائة سنة، صار أهل روما يقولون: "إن إيزيس وسيرابيس – أي أوزوريس – كانا معبودين مصريين وقد صارا الآن معبودين رومانيين، وذلك لأن عبادة إيزيس وسيرابيس كانت قد انتقلت من روما إلى أنحاء الإمبراطورية الرومانية فغزتها جميعا. ومن ثم انتشرت الديانة المصرية في إفريقيا الشرقية وفي إسبانيا وفي فرنسا وفي ألمانيا وفي البلاد الواقعة على نهر الدانوب وفي إنجلترا، ولذلك وجدت في هذه البلاد كلها رسوم ونقوش وكتابات هي مخلفات من تلك العبادة.

ونلخص هنا ما كتبه العالم الألماني أودلف أرمان في انتشار هذه العبادة في بلاده ألمانيا، فقد قال: "إن هناك وثيقة مسيحية، نصت على الشكوى

الصارخة من أن جبل نوتسبرج الواقع جنوبي بوتزرن يبدو كأنه الإسكندرية ثانية"!!

ثم قال: "كان يوجد في مدينة لولست معبد لإيزيس، ووجد في مارينهوزن مذبح لسيرابيس كان ضابط روماني قد أقامه، ووجدت تماثيل كثيرة من البروز لإيزيس وسيرابيس في البلاد الألمانية الواقعة على نهر الراين".

ثم قال: "ولكن أعظم أثر يلفت النظر، من آثار هذه العبادة هو الذي حفظ لنا كنيسة سانت أورسول في مدينة كولونيا، وهو تمثال صغير باسم (إيزيس التي لا تقهر)

فمن كل ما تقدم يتضح أن عبادة إيزيس وسيرابيس انتشرت في أوربا كلها، بعد انتشارها في العالم اليوناني، وبقي هذا الانتشار إلى القرن الرابع بعد الميلاد، وكان لإيزيس عيدان في السنة تحتفل بها أكثر المدن في أوربا: أحدهما في شهر نوفمبر، وكان يستمر ثلاثة أيام يمثلون فيه قتل أوزوريس وإلقاء جثته وخروج إيزيس للبحث عنه والعثور عليه في اليوم الثالث. وأما العيد الثاني ففي شهر مارس، وكان خاصا بافتتاح موسم الملاحة.

فلسفة الديانة الكونفوشيوسية

إن الآثار القديمة الثابتة في الصين تدل على أن: الصينيين كانوا قديما يعتقدون بوجود إله واحد، لا تدركه الأبصار، عرشه السماء، ومقاليد الأرض بيده، ولم يبحثوا في كيفية خلق النوع البشري، وقالوا إن إله السماء كائن عظيم، يحب الخير، ويكره الشر، ويجازي الناس بأعمالهم: إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، لا يكلفهم عبادته إلا بالقلب ونقاء الضمير، ويكتفي منهم بأن يقوم الرجل بواجبه نحو جاره بمعنى أخيه في الإنسانية ومن ذلك الأهل طبعا.

فإذا أراد الإنسان أن يحصل منه لنفسه خيرا ونعمة خاصة يتوسل إليه حينئذ بالعبادة وأنواع القرابين، ولسنا نجد فيها خلف الصينيون ما يدل على اعتقاده بوجود قوة خبيثة في هذا العالم، تعيث في الأرض فسادا وتغري الناس بالخطايا والذنوب، وإنما الشر عندهم عرضي!!

ومرت الأيام، وكرت السنون، وتغيرت الأفكار، وأضافوا إلى هذا الإله الواحد، كثيرا من مظاهر الطبيعة: كالشمس والقمر والكواكب السيارة والنجوم اللامعة والأرض وما اشتملت عليه من تلال وأنهار، وجعلوا الكثير من أحداث الطبيعة، كالريح والمطر والرعد والبرق آلهة أو أنصاف آلهة. ومازالوا يتوسعون، حتى اعتقدوا أن الكائنات الروحية تسكن البيوت وتقدم في الأركان والكوى[٤]، وإن لها قدرة على النفع والضر، فقدموا القرابين وضروب الإجلال، شأن غيرهم في اتخاذ الرموز والطقوس ستارا على الحقائق. والصينيون

(٤) الكوى: النافذة فإن لم تؤد إلى الخارج فمشكاة.

يعبدون أرواح أسلافهم عبادة حقيقية. وآية ذلك الضحايا والصلوات التي تقدم لها، علها تحميهم من كل أذى وتسبغ عليهم كثيرا من نعم هذه الحياة.

ويقول المؤرخون إن الصينيين، إنما عبدوا هذه الأرواح وأحداث الطبيعة، لأنها رسل الله وجنوده وواسطة ما يحدث لهذا العالم من خير وشر. وإذا كان كل شيء في هذا الوجود قد يضر وقد ينفع، فمن الطبيعي أن يكون كل ما فيه من جند الله. وكان الضعف قد بلغ من الأسرة المالكة حدا لم تستطع فيه أن تبسط نفوذها على الولايات الإقطاعية التي تكون الإمبراطورية الصينية، فاستقل الأمراء بهذه الولايات، وتنافسوا في توسيع ملكهم فدارت رحى الحرب بينهم، وحشد كل واحد رجاله في ميدان القتال وساقهم إلى الموت زرافات ووحدانا، فقتل الأبرياء وسالت الدماء، وأهملت الزراعة لقلة الأيدي العاملة، وفشا الجوع، وانتشرت الأمراض وعم الظلم، وتدهورت العقائد.

حياة كونفوشيوس

وفي خلال ذلك الأفق المظلم، لاح نجم لامع هو نجم كونفوشيوس حكيم الصين ومصلحها العظيم، وظهر في ذلك الوقت الذي كانت البلاد أحوج ما تكون إلى رجل يأخذ بيدها ويخرجها من الهاوية التي تردت فيها.

ولد هذا الزعيم الروحي العظيم في سنة ٥٥١ ق.م في مقاطعة لو من أعمال ولاية "شانتنج" وذلك قبل موت بوذا ببضع سنين واسم كونفوشيوس مأخوذ عن كلية كنغ أو (كنغ فوتسه) من بيت كريم المحتد، وتوفي والده وتركه صغيرا لم يبلغ الثالثة من عمره فقيرا لا يجد ما يعيش منه واعتنت والدته بتربيته وأرسلته إلى مدرسة تعلم فيها فامتاز على رفاقه!! وكان على صغر سنه في مهابة الرجال، وكثيرا ما كان أستاذه يسأله أن يشرح لزملائه الدروس..

وقال كونفوشيوس محدثاً عن نفسه:

"علقت المعرفة في الخامسة عشرة وهام بها قلبي في الثلاثين، وانكشف لي طريقها في الأربعين، وتعلمت الشريعة في الخمسين، ولما بلغت الستين فقهت ما أقول وعند السبعين سلطت على نفسي وأخضعتها السلطان العدل".

وكان منذ صباه مغرما بتقليد الكهنة في تقديم القرابين وإقامة الشعائر الدينية، ثم تزوج وولي عملا من أعمال الحكومة، فكان أميناً على خزائن الملاك ثم حارسا للأموال العامة.

وبعد سنين عدة اعتزل العمل وبدأ يعلم طائفة من الشبان الذين يلتفون حوله ويدفعون إليه أجرة، واتصل بأبناء بعض الأمراء، فأكب معهم على قراءة الكتب التي تحويها خزائنهم.

وبقي على ذلك مدة طويلة، ثم خطر له أن يتنقل من ولاية إلى أخرى لنشر تعاليمه، فطاف بكثير من بقاع الصين، واكتسب خبرة واسعة بأحوال الناس في الجهات المختلفة التي طاف بها، وتولى القضاء ووزر لبعض الأمراء، وكان في كل ما يوكل إليه آية في الإخلاص والكفاية والحكمة ومات سعيدا سنة ٤٧٨ ق.م. وهو فيلسوف عملي ومصلح اجتماعي كما يتبين من مبادئه.

مذهبه

كان كونفوشيوس يقول بوجود إله يدبر الكون بحكمته وأنه يجب أن يعمل دون سواه، ولما وجد كونفوشيوس قومه غارقين في بحار الأوهام، منكبين على التفكير في عالم الأرواح، وعلى التأمل في ذات الإله وملائكته وجنده والحياة الآخرة منصرفين عن الدنيا، ولا هم لهم سوى إقامة الشعائر الدينية، وتقديم

القرابين لأرواح أسلافهم وللقوى الطبيعية المتعددة التي رأوا مظاهرها في كل ناحية والتمسك بالتقاليد القديمة الموروثة بعد تحريفها.

أقول وجدهم كونفوشيوس على هذه الحال، فلم ينكر عليهم ولم يصادمهم في عقائدهم ولكنه دعاهم إلى سبيل الحقيقة بالحكمة والموعظة الحسنة، وقال لهم:

"هناك طائفة من الأشياء الظاهرة والحقائق الخفية، أما الحقيقة فبعيدة المنال عليكم (أي على عامة الشعب) وأما الأشياء فلا تعرفون حقائقها!! وإني أدلكم على عالم آخر أمام أعينكم، وفي استطاعة كل واحد منكم مهما كان ضيق العقل قليل الذكاء أن يلج بابه ويسير في مسالكه، وذلك هو عالم الواجب، وهو الباب الذي يصل منه الإنسان إلى السعادة!!"

"وإن الفضيلة التي هي فعل الخير وتأدية الواجب الذي يتطلبه منك يومك وساعتك هي الطريق التي توصل سالكها إلى أسمى غاية"

ولا نعرف أن كونفوشيوس ادعى أنه يوحى إليه من عند الله، وإنما نعرف أنه مصلح اجتماعي عظيم أراد أن يقيم الإمبراطورية الصينية على أساس متين من الأخلاق، وأن تسود المحبة والروابط الاجتماعية بين الناس.

ومن مبادئ كونفوشيوس: أن الإنسان مدني، واجتماعه بغيره لا مفر منه، والطبيعة الإنسانية هبة من الله، وكمالها إنما يكون في سلوكها الطريق التي خلقت لها، وذلك هو سبيل الواجب والقيام بما تقتضيه الروابط الاجتماعية وهي رابطة الراعي برعيته، والزوج بزوجته، والوالد بولده، والأخ الكبير بأخيه الصغير، والصديق بصديقه؛ فللراعي والزوج والوالد والأخ الكبير، حق الحكم على الرعية والزوجة والولد والأخ الصغير، واجب الطاعة.

وأساس الحكم: العدل ومحبة الخير للغير، وأساس الطاعة: الحق والإخلاص أما العلاقة بين الصديق وصديقه فدعامتها الأخلاق القويمة وعمادها ضبط النفس ومحبة الخير للناس عامة.

وكونفوشيوس لم يكتب شيئاً بنفسه، ولكن تلاميذه تلقوا عنه ما تلقوه منه مشافهة في دورسه، وبالنتيجة فإن كونفوشيوس أراد أن يعيد إلى الصين النظام والوئام بعد الفوضى والاضطراب بالدعوة إلى تهذيب النفس وتثقيف العقل وتنظيم الحياة السياسية والاجتماعية.

ولذلك قال: "إن الأقدمين الأمجاد كانوا إذا أرادوا أن يوضحوا الفضائل السامية، وينشروها بين الناس: ينظمون أحوال ممالكهم، وقبل أن ينظموا أحوال ممالكهم، كانوا ينظمون أحوال أسرهم، وقبل أن ينظموا أحوال أسرهم كانوا يهذبون أخلاقهم، وقبل أن يهذبوا أخلاقهم كانوا ينقون أنفسهم، وقبل أن ينقوا أنفسهم كانوا يحاولون أن يكونوا صادقين ومخلصين في أفكارهم منزهين في أغراضهم، وقبل أن يكونوا صادقين ومخلصين ومنزهين كانوا يوسعون معارفهم، وتوسيع المعارف يجيء عن طريق التأمل والبحث والمشاهدة"

فشاهدوا الأشياء والأفعال واعتبروها في أنفسهم فاكتملت معارفهم، ولما اكتملت معارفهم اتسعت أفكارهم وتنزهت أغراضهم فتهذبت أخلاقهم، ونقيت نفوسهم فانتظمت أسره ولما انتظمت أسرهم، انتظمت ممالكهم، ولما انتظمت ممالكهم أصبحت أرضهم كلها تمرح في السعادة والوئام".

وكان كونفوشيوس يعتقد أن من حسن السلوك وتطبيق المعرفة على العمل تنبع الفضائل جميعها، ومن قوله: "خير للإنسان أن يكون قدوة للغير من أن يعظه".

وكان الإصلاح الشخصي – إصلاح الفرد لنفسه عند كونفوشيوس وتلاميذه – يعد أصلا لكل إصلاح وكانوا يسمونه "الأصل"، ويرون فيه اكتمالا للمعارف وتمكينا للسلوك.

ووجد على باب حمام أحد تلاميذه الحكماء، هذه الجملة:

- "جدد نفسك كل يوم.. أجل.. كل يوم جدد نفسك!"

وإليك نموذجا من أقوال كونفوشيوس العبقرية في هذا الصدد:

- "قلما تتفق الألفاظ المعسولة والهيئة الجذابة مع المسالك الحسنة إذا خبثت النفس".
- "إذا كان الإنسان يستذكر معارفه القديمة، ويضيف إليها معارف جديدة، فإنه يكون عندئذ جديرا بأن يكون معلما للآخرين".
- "يجب أن يتوجه عقل الطالب إلى البحث عن الحقائق دون الأوهام، ولذلك يلزمه أن لا يخجل من الملابس الزرية أو الطعام البسيط أو القليل،÷ إذا اضطر إلى ذلك وإذا كان هذا لا يخرجه من أكناف المعرفة".
- "قلما يخطى من يحكم نفسه ويضبط شهواته"
- "ينظر الرجل الطيب فما هو أكثر سدادا، وينظر الرجل السيئ فيما هو أكثر ربحا"

- "الرجل الفاضل يميل إلى التأني في الكلام والنشاط في العمل".
- "الفضيلة لا تنفرد وحدها، لأن من طبعها أن تجذب إليها صالحي الأصدقاء".
- "المعلم الفاضل يلتفت إلى ثلاثة أشياء، وهي: العبادة والسلام والصحة!!"

وسئل يوما: "من هو الرجل الفاضل؟" فأجاب:

- "ذلك الذي لا يشغل باله هم أو خوف لأنه لا يجد في قلبه شرا"
- "ثلاثة أشياء على الرجل الفاضل أن يجانبها"
- "الشهوة مدة الشباب، والتنازع مدة الرجولة، والشره مدة الشيخوخة"
- "أحسن طبقات الناس من ولدوا عقلاء، يليهم من صاروا عقلاء بالدربة، وفي الطبقة الثالثة من درسوا كثيرا بدون أن تكون لهم كفاية طبيعية، وأحقر طبقات الناس هم أولئك الذين ليس لهم كفاية طبيعية ولا سليقة أدبية"
- "اثنان لا يغيران رأيهما: أعقل الناس وأسخف الناس، أعقل الناس لثقته بعدله وأسخف الناس لضعف ذلك العقل"
- "تتجسم في الرجل الفاضل أحوال التوازن والتكامل، لكن الرجل

الذي لا يعرفهما، يعلمه الزمن، ولا يبلغ هذه الحالة من الناس إلا الذين بلغوا في التجربة والسن، وهم قليلون"

- "الرجل الفاضل لا يطمع في أعمال تدهش العالم وتكسبه الذكر، وإنما طمعه الحقيقي هو أن يعيش عيشة متوسطة متوافقة مع ذاته، وكثيرا ما يفشل دون بلوغ هذه الغاية من قبل عدم تمييزه. وهذا الطريق الوسط ليس مع ذلك خافيا على أهل الطهارة والإخلاص وقد يعرفه بعض عامة الناس مع خفائه على أعقلهم"

- "أعظم الناس وأحكمهم وأحسنهم، يحسون في قلوبهم المثل العليا وإن لم تتحقق. وكل من يجتهد منهم في تحقيق هذه المثل يسير، وإن فشل في دلالة غيره، على طريق الهداية والسداد!!"

كلام جليل في أسلوب جميل، وفلسفة عالية عميقة الأثر في ألفاظ قليلة جديرة بأن تحفظ في القلوب، وتقتدي بها الشعوب والأمم والأفراد!! لله أنت يا كونفوشيوس ولله أمثالك من الناس.

عاش كونفوشيوس ٧٣ سنة قضاها في بث الفضائل ونشر ديانته المشهورة باسمه، والتي ينتمي إليها اليوم ملايين عدة من الصينيين، وتوفي سنة ٤٩٨ وقيل ٤٧٩ ق.م أي أنه مات قبل ميلاد سقراط بإحدى عشرة سنة، فدفنه أتباعه بالقرب من مدينة (كيوه فو) في احتفال مهيب لأنهم كانوا قد أدركوا عظمته وقيمة تعاليمه.

ولكونه أكبر الحكماء الصينيين ومؤسس الديانة التي صارت ديانتهم العامة فيما بعد، كان من نصيبه أن أجمع الصينيون المتأخرون على عبادته وتقديس

كتبه الثلاثة وهي:

١– مختارات كونفوشيوس.

٢– تعاليم البالغين.

٣– الاعتدال.

وعبادة كونفوشيوس هي الآن ديانة أهل الصين الرسمية وحاشا لمثل كونفوشيوس أنه كان يريد ذلك أو يأمر به – عبادته – وهو الحكم المتواضع ومعل الفضائل العظم ذلك الذي يصفه أحد تلاميذه فيقول: أرأيت المقدرة تطلب التعلم، والعبرة تخرج من الجهل؟.. والكفاءة جالسة عند قدمي النقصان؟ ذلك الرجل المتصف بالفضائل وهو يظن أنه لا يتصف بفضيلة ما!! ونحن هنا نقول أرأيت الحق الصراح كيف تطمس معالمه وتستر وجهه الجميل رموز الكهنة وطقوسهم ومآربهم الجشعة الخسيسة!!

أصل الديانة الصينية

كان الزائر لبيكين، عروس الصين القديمة، وسيدة المدن والعواصم يثير فضوله ويسترعي إعجابه معا: معبد عظيم أقيم في أحد ميادينها وسط الحدائق الغناء في ساحة رصعت بالرخام الناصع الجميل، وبداخله هياكل ثلاث مرصعة بشتى الألوان التي يزينها الذهب الوهاج والأحجار الكريمة. الأول: مذبح الكواكب. والثاني: مذبح الأرواح. أما الثالث، ففي الجنوب يجده الزائر وهو "المذبح الأعظم"، مذبح مولى السماء أو عظيم السماء، وهو وإن كان أقدمها وأعظمها وأكبرها، لا تجد حوله أصناما ولا تماثيل ولا دمى، لأنه مذبح الإله غير المنظور.

كان قدماء الصينيين يقدمون قرابينهم وذبائحهم لمولى السماء الذي كانوا يصفونه بـ (الرب العظيم ومالك الأكوان وذو العقل غير المتناهى، وأيان من الصينيين توجهت فهو حاضر، الإله الذي لا يحابى، بل يجود بلطفه ورعايته على الإنسان الفاضل، ويحب استعمال الرحمة ويعتني بالأرض، وحضوره فيها دام وإن كان غير منظور)

والمسمى عندهم قديما (بي سن) أو (تي ين)، وحديثا (شانج تي).

وسبب التسمية الأخيرة: أنهم فيما بعد ألهوا ملوكهم وحكماءهم وأجدادهم القديم والحديث وأضافوهم إلى المولى القديم.

ولما كان معنى (شانج) عندهم هو الأرواح: تطورت (تي ين) بتطور المعتقد إلى (شانج تي)، فقالوا: (شانج تي) أو (شانج تي ين) للدلالة على معنى الحاكم

الأعظم أو حاكم السماء – يعنون الله – وما اتصل به من الأرواح.

وكثيرا ما يعثر الباحث المدقق في كتابات الصينيين القدماء وفي أقوالهم على جمل تفيد أن قدماءهم كانوا يعرفون الله وحده، وذلك يظهر في مثل قوله: "يوجد إله عظيم لا يكره أحدا – والله معنا – وأعمال الله ليس لها رائحة ولا صوت".

أو في مثل خطاب أحد ملوكهم عقب توليه الحكم:

"أعطى الله لكل إنسان ضميرا إذا اتبعه يحفظه ويقوده إلى الطريق السوي، والله دائما يبارك الطيب ويعاقب الرديء".

وهذا يدل على أن الصينيين الأول كانوا يعرفون (تي بن) فقط (الله).

ويعثر الباحث أيضا على جمل أخرى تفيد المطلع على أنهم كانوا يعتقدون في خلود الروح وبقائها بعد الموت كقولهم: "لما يموت المرء يعود جسده إلى التراب إنما روحه الحية تتحرك متلألئة خارج القبر وتلقي فينا الهيبة والخوف".

ومن التعاليم الدارجة عندهم قولهم:

"كن قنوعا في اللذات وديعا مع الناس فيوافيك روح علوي يملؤك من الخيرات".

"إن للملوك الأموات وللآباء والأجداد في السماء مكانا يشرفون منه على أعمالنا وأقوالنا".

ولا شك أن ديانة الصين انتقلت إليها من الهند، وأنها كانت في الأصل ديانة توحيد، وإنما كان الملوك والكهان – لمصالح ذاتية – يحتكرون عبادة الإله الأعلى لأنفسهم بصفتهم وراثه وبنوا به على الأرض، كما فعل كهنة الهند

ومصر وملوكها سواء بسواء!! وأباطرة الصين هم الذين أضافوا أرواحهم عمدا إلى (تي ين) أو مولى السماء، وتطوعوا، قصدا وبدون دعوة أن يشاركوه في إدارة العالم أو قل في عظمته وسلطانه. وقد انتقل ذلك الدين عنهم فيما بعد إلى اليابان، ولأجله اعتبرنا أن الديانة الصينية واليابانية ديانة واحدة.

وقد ظهر في الصين قبل كونفوشيوس عدة ملوك وكهنة من أقدمهم (فوفي) سنة ٣٤٦٨ ق.م الذي وضع للصين كتابا وفلسفة تدور في معناها حول ثالوث هو نفسه الثالوث الهندي (برهما – فيشنو – سيفا) وإن كان في شكل آخر.

وهذا الثالث يتركب من:

١- (تي ين) أو الإله المجهول – غير المنظور.. ثم:

٢- أرواح الآباء والحكماء والملوك (تشانج).. ثم:

٣- الشمس وسياراتها، مظاهر الإله من الأرواح وكائنات الطبيعة؟، نفس العقيدة المصرية.

وبعد أن مات (فوفي) الذي كان حكيم الصين ومشرعها وإمبراطورها في وقت واحد، عبده الصينيون وعدوه إلها وعدوا كتابه مقدسا، ويعتبرونه من أقدم كتب العالم. وأضافوا لهيكل مولى السماء هيكلين آخرين: واحد لأرواح الأجداد والحكماء، والآخر للشمس والقمر وباقي السيارات والنجوم بموجب الثالوث المتقدم ذكره ، ومن عهد (فوفي) ابتدأت عبادة الأباطرة أبناء السماء في الصين وفي اليابان.

والفيلسوف (ليو تسو) أو (لاوتسو) الذي ظهر سنة ٥٩٠ ق.م، كان معاصرا لفيثاغورس وشايع الهنود والمصريين في التقمص، وقد حاك تلاميذه

حكايات الألوهية حول ولادته وموته، نفس أسطورة كرشنا الهندية. وما زال هذا شأن الصينيين بالنسبة لكل فيلسوف، أو إمبراطور إلى أن ظهر كونفوشيوس أعظم الحكماء والفلاسفة الصينيين على الإطلاق، والذي يعتبر مؤسس دينها الحقيقي الأوحد. وكان ظهوره في عصر عمت فيه الفوضى في الدين والسياسة والأخلاق كما تقدم.

ديانة الكلدانيين

أما الكلدانيون فكانوا حلقة الاتصال بين مصر والفرس وفينيقيا واليونان لأنهم أخذوا عن المصريين عبادة الشمس وسائر النجوم، وهم ناشرو الوثنية الحقيقية في سائر جيرانهم من الشعوب والأمم، وقد ناقشوا في ذلك معلمهم الأولين، وبالغوا في عبادة النجوم حتى برعوا في علم الفلك وصاروا أعظم فلكي عصرهم. وجعلوا لكل واحد من السيارات صنما، وكان أكبرهم ذلك الصنم الذي صنعوه للشمس وهو الإله (بعل) وبعل هو نفسه (آمون) ثم (عشتروت) وهي نفسها (إيزيس) ثم (تموز) وهو نفسه (هوروس). وكانوا يقيمون لتموز عيدا سنويا في شهر تموز الذي أسموه باسمه وتابعهم في ذلك الفينيقيون الذي حببهم في عبادة الكواكب والنجوم تعلقهم بفن الملاحة الذي برعوا فيه. وأما فلسفتهم فهي نفس فلسفة الوثنية الهندية والمصرية والصينية، لأن الكلدان قد نقلوا دينهم وفلسفتهم بل وعلومهم عن أولئك، إلى أن جاءهم نبي الله إبراهيم عليه السلام، فدحض دينهم وسفه أحلامهم وكسر أصنامهم.

وإنا لنعجب جد العجب لأمة الكلدان، وفيهم خلق إبراهيم عليه السلام، كيف لا يهتدون إلى الحق من قريب؟ وكان إبراهيم الذي ولد من بينهم وعاش في ربوعهم مثلا صالحا لهم في عبادة الله الواحد الأحد تلك العبادة التي ورثها

عن آبائه سيما إدريس في المصريين ومن بعده نوح في البابليين وهم أصول الأشوريين والكلدان، حينما نظر في النجوم بعد أن كسر أصنامهم، وحينها قال لهم بلسان القرآن "أف لكم ولا تعبدون من دون الله أفلا تعقلون".

وحينما قال "لا أحب الآفلين" وذلك في قول القرآن حكاية عنه: "وإذ قال إبراهيم لأبيه آذر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين، وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين. فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لمن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة هذا ربي قال هذا أكبر. فلما أفلت قال: يا قوم إني بريء مما تشركون. إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين".

إلى أن قال القرآن بلسان مُحَّد عن جبريل عن الرحمن: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه. نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داوود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون. وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين. وإسماعيل واليسع ويونس ولوطا وكلا فضلنا على العالمين. ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناه إلى صراط مستقيم. ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده. ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون".

واهتدى إبراهيم بفطرته السامية وعقله الذي أعد تكوينا لهدي الله، وما ورثه من عقائد عمن سبقه من أنبياء الله ورسله المكرمين كنوح وإدريس مثلا، وذلك لما قدمنا من أن أول ما يثير الشعور الديني عند الإنسان نظره إلى

وحدات الطبيعة فيرى الشمس مثلا عظيمة فيتوهم أنها إلهه إلى أن يستدل أنها آفلة فانية مخلوقة فيتوجه قلبه إلى الله الحق. هذا إن لم يكن هناك دين يهديه، فيكون الدين حينئذ في فطرته.

تعليق على الديانات السابقة

تلك الديانات، ديانة الهند ومصر وديانة الصين واليابان هي الديانات القديمة بحق أي ديانات ما قبل التاريخ. وها أنت ترى أنها قد أخذت عن بعضها ولها جميعا سمة واحدة هي التوحيد الخالص، ثم الرموز بالشرك بإضافة وبعبادة قوى الطبيعة أو مظاهرها كالشمس أو عبادة الأرواح والأشخاص والحيوانات والأحجار.

وعن المصريين والهنود تفرعت ديانات الصين واليابان والكلدان والفرس والعرب في الجاهلية وكان أساسها جمعاء: أن اتخذوا الشمس وسياراتها واسطة بينهم وبين الله، وزعموا أن لها آلهة روحانية ثم عبدوها مع توالي الزمن على اعتبار أن لها صفات إلهية ثم صارت آلهة مضافا إلى كل ذلك التماثيل والأصنام التي كانت تشخصها؛ فبعضهم عبد روحانية الكواكب، وبعضهم عبد الكواكب نفسها، وهم الصابئة – عباد الكواكب – وكثيرا ما تجد اسم هرمس عند متأخري الصابئة والفرس والعرب القدماء يظلله تاج الألوهية والحكمة.

وبما أن المجوس هم قسم من الصابئة فتعليمهم لا يبعد عن تعليم مصر والهند والصين كثيرا. وما (زرادشت) رسولهم المزعوم إلا أحد براهمة الهنود واسمه (زراوستر) أصل زرادشت وأما اليونان والكلدان فقد أخذوا عن المصريين عند امتزاج الحضارة المصرية القديمة بحضارة آشور وبابل، واليونان أخذوا عن الكريديين والفينيقين ما أخذوه جميعا عن مصر، ومن اليونان انتقل ذلك التعليم

نفسه إلى الرومان ومن ثم إلى الأوربيين بواسطة العرب والإسرائيليين.

أثر الكهنة في تحدد الديانات

الآن وقد انتهينا من تطور التوحيد البسيط في الهند ومصر والصين إلى عبادة مظاهر الطبيعة، ورأينا فيها الإله غير المنظور ظاهرا تماما في هذا الدين الذي جاء به جميع الرسل والأنبياء والذي يمكننا أن نسميه دينا واحدا تطور على أيدي الكهنة الذين جعلوا الدين ذا وجهين: ظاهر وباطن؛ فكانوا يعرفون الله، وخلود الروح وتأثير الروحانيات في الماديات ويحتفظون بكل ذلك كسر خاص بهم ويموهون على الشعوب بطقوس رمزية تدل على هذه الحقائق من وراء ستار..

وجعلوا قوى الطبيعة ومظاهرها تنوب عن الخالق غير المنظور ثم انتهزوا فرصة غفلة هذه الشعوب الساذجة واخترعوا التقمص لتحل فيهم وفيمن أرادوا من الملوك والأمراء روح تلك الآلهة – قوى الطبيعة – التي حلت فيها روح الإله الأعلى لأنها تمثله.

ومن هذا أيضا نشأت القاعدة القديمة المشهورة: "الكاهن نائب الله، والملك ظل الله في أرضه". ولم يكفهم ذلك، بل ألهوا أنفسهم تأليها تاما وجعلوا شعوبهم تعبدهم. ففي البدء كان الإله، ثم الإله ممثلا في قوى الطبيعة ومظاهرها، ثم الإله حالا في الكهنة والملوك أحياء وأمواتا.

وسنشاهد في دين آشور ودين الفرس والعرب وفينيقيا واليونان مظهرا آخر لهذا الدين الموحد المعدد، حيث نرى قوى الطبيعة كالآلهة والكهنة أبناء الآلهة أو ممثلي الآلهة. وإن كان الإله غير المنظور ظل وراء كل ذلك، وراء كل الرموز والطقوس. وإليك أمثلة توضح صحة ما نقول:

فمثلا في الهند كان الإله الذي لا يرى تحت اسم برهما: واحدا أحدا، لا أول له ولا آخر، أبدع الأكوان بقدرته، ثم هو بمعنى حافظ الكائنات وممدها بالحياة تحت اسم "فشنو" ثم هو نفسه باعتبار آخر دسيفا، الذي يلاشي الكائنات.

وماذا حدث بعد ذلك؟

حدث أن برهما حل في "البرهماتمان" – رئيس الكهنة – وهذا الحلول لسوء الحظ ليس له الصفة المؤقتة، وإنما هو حلول وراثي يتوارثه بعد الكاهن الأعظم من يحل محله!!.

وليس هذا فقط، بل إن هذه الطبقة صارت بالطبع أعلى من غيرها من الطبقات، كأنها ليست من البشر، ثم اخترعوا نظام الطبقات. ولما مات (خرسنا) صار معبودا، أي شريكا لبرهما في العبادة، ومن من الأحياء يحل محل خرسنا؟ طبعاً واحد من الكهنة، وطبعا ستحل فيه روح خرسنا.

وأما أسفار الفيدا وهي الكتب المقدسة الأولى للهند وأقدم الكتب الدينية في العالم فلم يأت فيها لا لهذا التقمص المزعوم ولا للتثليث ذكر.

ولما جاء بوذا (جوتاما) محاربا لهذا النظام، وهاديا لنظام الطبقات، وعاش ما قدر له الله أن يعيش، ثم مات: من ينوب عنه؟ طبعا ينوب عنه الكاهن!!

ولم يقف الأمر عند هذا الحد أيضا، بل أقيم لبوذا تماثيل وأصنام تعد بالآلاف وطبعا حلت روح بوذا، ليس في الكاهن فقط، وإنما في الكاهن والصنم.

وعلى هذا المبدأ (مبدأ الحلول) تكونت البذرة الأولى لعقيدة تقمص

الأرواح، والشرك في وقت واحد.

ولما كان كل مقرب للكهنة هو مقرب بالضرورة للآلهة، وهو أيضا عندهم أقرب الناس للفضائل، ولو زورا!! فإن مات إلى أين تذهب روحه؟! تحل بدورها بعد موته في جسد نقي طاهر صالح ولو بالاسم وخصوصا لو كان ابنه الذي يخلفه. فإذا ما مات مرة ثانية أو مرارا قليلة اتصل بالآلهة مباشرة، واندمج فيهم فلا يعود للأرض مرة ثانية، بعكس الأشرار الذين ليسوا بكهنة وأبناء كهنة، فإن أولئك يتقمصون أجساد الحيوانات.

فإذا وجد إنسان لم ترضه تعاليمهم مثلا، واعترض على هذه الطقوس، فهو كافر شرير. وإلى من تذهب روحه يا ترى؟ إلى حيوان من الحيوانات الدنيئة. وهكذا تظل روحه تتقمص من حيوان إلى حيوان، حتى يصير إنسانا ثانية، ولكن إنسانا شريرا.

فإذا أرضى الأصنام والكهنة والآلهة اتصل بأخيه النقي وصارت صيرورته مثل صيرورته، هذا في التجديف والاعتراض، وأما في الذنوب التي ليست بكفر أو اعتراض على نظم الكهنة بأن يكون لصا أو سكيرا أو معربدا، فذنوبه متوسطة إذا مات تتقمص روحه جسدا شريرا ليكفر عن سيئاته في الحياة السالفة.

وهكذا دواليك إلى أن يتطهر، فيلحق بأصحابه الأبرار. هذا التعليم نفسه عبادة مظاهر الطبيعة والكهنة، ثم التقمص. كل هذه انتقلت من ربوع آسيا إلى أرض الفراعنة وإلى أنحاء الصين.

فكانت عبادة الله الواحد الأحد هي السائدة في البدء على أيدي الأنبياء والحكماء، ثم مزودة بعبادة مظاهر الطبيعة وعبادة الرؤساء، الأساس الذي يقوم

عليه الدين في الهند والصين ومصر.

ف "برهما" مثلا في الشمس، هو نفس فتاح أو بتاح أو آمون. وينوب عنه في الليل أوزوريس. وبما أن أوزوريس هو إله الخير والصلاح، فهو "فيشنو" صبغة ووظيفة، وإن كان للبراهمة فربهم – سيفا – فلمصريين ضريعه (أقنيف) أو سيت.

هذا في مصر، أما في الصين ف (تي ين) أو (تى سز) الإله غير المنظور، هو برهما الهند أو بتاح مصر. و(شانج) هو ابنه الذي لروحه حق الإضافة إلى اسمه الكريم. وأما بقية الثالوث المقدس، فالشمس وبقية سياراتها.

وعن مصر انتقل الدين إلى آشور وفارس وفينيقيا وجزيرة العرب وبلاد الإغريق والرومان. وبدأ الإله غير المنظور في شكل أصنام تتمثل فيها قوى الطبيعة، وقوى الطبيعة تمثل الواحد الأحد الذي لا أول له ولا آخر، والذي أوجد نفسه بنفسه، ثم ظهر في الشمس إلى السيارات، ومن السيارات إلى الأصنام.

وكان (بعل) أو (هبل) أو (هورا فردا) أو (جوبتر) كان أولئك ممثلي برهما الهند وبتاح المصريين: إما في نفس الكواكب وإما في هياكل أو أصنام لها.

وكانت حلقات التطور الديني كما يأتي:

١- توحيد خالص.

٢- توحيد يشوبه شرك.

٣- ثم شرك يشوبه توحيد.

٤- ثم وثنية صريحة يشوبها شرك وتوحيد.

وقبل أن ننتهي من هذا البحث، وقبل أن نتكلم عن الديانات الثلاث الكبرى التي هي توحيد صريح شوه أهله بعد أجيال من مبعث أنبيائهم وجهه الجميل وبساطته الفلسفية وفلسفته البسيطة بضروب شتى من الشرك الخفي أو الظاهر، وأخفوا وجهه السمح المشرق وراء ستار كثيف من التقاليد السقيمة والأساطير.

نقول قبل أن ندخل في ذلك.. يجمل بنا أن نعرض عليك موجزا من التعاليم الدينية الوثنية عند الفرس والفينيقيين والعرب واليونان والرومان

فلسفة الديانة الفارسية

عبد الفرس أول أمرهم ما عبده قدماء الآريين من قوى الطبيعة وخصوصا ذلك المخلوق العظيم – الشمس – الذي تجلى عليهم، حتى رأوه بأعينهم في السماء وأثبتوا له كثيرا من أوصاف الألوهية، فقالوا "إنه عالم بكل شيء، وإنه خير محض، وإنه أعظم الموجودات، وإنه نوراني يشرق على العالم بنوره. وكان له كثير من الأعوان والشركاء وهم: الصديق وهو ذلك الضوء اللامع ينبعث إلينا من القبة الزرقاء، وستة من الملائكة المقربين الذين يحملون العرش، وآلاف من الموجودات الروحية التي تتمثل في مظاهر الطبيعة، إلى غير ذلك.

فلسفة زرادشت نبي الإيرانيين

في العالم حوادث كثيرة متنوعة: فمنها الخير ومنها الشر وهذه الحوادث لا توجد نفسها، بل لا بد لها من أصل تستند عليه.

ويرى زرادشت استحالة نسبة الخير والشر إلى أصل واحد، ولهذا كان من الضروري عنده لتفسير ما يجري في العالم الإيمان بوجود قوتين متضادتين مختلفتين جوهرا وفعلا.

فواحدة – طاهرة مقدسة، تفيض عنها الحياة والعناصر الطيبة وكل ما في الوجود من نور.

والأخرى – خبيثة دنسة، تصدر عنها الآفات والأمراض، والهلاك والتدمير، وكل ما ينزل بالإنسان من شر وبلاء!!

فالأولى تسمى (مزدا) أو (أهورا مزدا): ومعناه اإله الخير والحكمة والعالم بكل شيء.

والثانية تسمى (أهريمان) ومعناه الله الشر أو الشيطان.

وقد ورد في الكتب المقدسة عندهم: أن (مزدا) قال (لأهريمان) ما معناه «ليس علمنا، ولا شرائعنا، ولا مداركنا ولا كلماتنا، ولا أفعالنا. ولا حياتنا، أنا وأنت، متفقة في شيء، ولذا فنحن أضداد".

وبين هذين الإلهين – مزدا وأهريمان – عداء دائم وحرب مستمرة؛ فهما يتنازعان الإنسان ويحاول كل واحد منهما أن يكون له الغلبة دون صاحبه، ولكن في النهاية يكون النصر لأهورا مزدا، إله الخير والنور والقوة والحياة عندهم، ويحمي جميع ما في العالم من شرور وفتن.

جاء في كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني ما نصه: (زعموا أن الدنيا كانت سليمة من الشرور والآفات والفتن، وكان أهلها في خير ونعيم خالص، فلما وجد أهريمان حدثت الشرور والآفات والفتن)

وللفرق المختلفة آراء متباينة في وجود أهريمان وسببه وأصله وقدمه وحدوثه، وكان الفرس يعتقدون أن لكل واحدة من هاتين القوتين – مزدا وأهريمان – جنودا وأنصارا، يأتمرون بأمرها، وينفذون إرادتها في الوجود.

وإليك ما يقول العلامة ماسبيرو في كتاب تاريخ المشرق (وروي أن مزدا قد خلق الأشياء بكلمته واتخذ لنفسه ستة أرواح أو آلهة من طبقات عليا ويعينونه على حفظ نظام العالم وتدبير شئونه – وهم المعروفون بأميثاسينتاس – وهؤلاء الآلهة اتخذوا لهم جنودا من الأرواح يحكمون عليهم. وهم منتشرون في الكون: المحافظة على بقاء أهله ودوران دولابه فعل أهريمان – عكس ذلك – إله ظلمات وشرور، وعارض الآلهة الست بستة أرواح شريرة تعادها في القوة والشوكة. وهؤلاء جعلوا له أعوانا من الأبالسة، وهم لا ينفكون عن محاصرة الكون، ومنع انتظام حركاته ولا يزال مستمرا بين هذه الأرواح المتكافئة في العزيمة والبطش إلى انقضاء الزمن. ولا ينتهي كفاحها إلا بانقراض العالم، إذ يتم النصر لأهورا مزدا).

وكان الفرس يدينون بالبعث والنشور، ويؤمنون بالحياة الآخرة ويعتقدون أن روح الميت الصالح، إذا فارقت الجسد استقبلها الديان في صورة فتاة حسناء، تحف بها الأزهار وتعبق حولها الروائح الطيبة.

تتقدم هذه الفتاة فتخبره من هي وما قدم لشخصها الإنساني الذي كانت تعيش فيه من عمل صالح. وتقول له وكنت محبوبة فزدت الناس محبة في. وكنت جميلة فزدتني جمالا. ورفعت من شأني بفكرك الصالح وكلمك الطيب وعملك المبرور"

وعندهم أن الصراط فوق جهنم، فالرجل الصالح تصحبه أعماله حتى يعبر الصراط إلى الجنة، فيستقبله ملك جالس على كرسي من ذهب، عند باب الجنة

فيفتح بابها، ويقول له: (ادخل سالما آمنا، وتمتع بحياة هنيئة).

وأما الأشرار فيقعون في نار جهنم، ليذوقوا العذاب الأليم وعلى هذا يستمر الحال حتى تبدل الأرض غير الأرض، ويفنى أهرمان وجنده وجميع من في الوجود من الأحياء، ويبقى مزدا وسائر قوى الخير!!

وقد قالوا: إن كوكبا ناريا يصطدم مع الأرض، فتميد بالناس، وتخر الجبال هدا، وتذوب العناصر وينصهر النحاس ويسيل إلى جهنم ويفنى أهريمان وأنصاره من الشياطين، ويغسل الناس ثلاثة أيام في منصهر النحاس، ويجده الصالحون بردا وسلاما.

ثم بعد ذلك يجمع مزدا الخلائق ويعدهم بحياة جديدة، ويجازيهم بأعمالهم أو هرمس والفرس يجعلون (هرمس) المظهر الأعظم لاهورا مزدا إله الخير أو نبيه الأعظم!!

ظهر ما قدمنا أن هذا النوع من الفلسفة بجعل الحياة ميدان جد وعمل، ويحتم على كل واحد أن يقوم بنصيبه من أعبائها وأن يحارب أعوان الشر، ويستنبت الأرض القاحلة، ويحمي مخلوقات هرمس. وشتان بين الفلسفة الفارسية وأختها الهندية، فإن الثانية فلسفة سكون وعزلة وتأمل والأولى فلسفة جد وكفاح. سادت الديانة الزرادشتية في بلاد فارس، وما جاورها حتى انتصر الإسكندر المقدوني على الفرس سنة **٣٣١** ق.م. فانحط شأنها، ثم نهضت في عهد الأسرة الساسانية التي ابتدأ حكمها في البلاد سنة **٢٢٦** م وبقيت الزرادشتية دين الفرس حتى كان الفتح الإسلامي ففر بعض أتباعها إلى بلاد الهند. ولا زال منهم طائفة في بمباى تعرف بالفريسيين وتتمسك بهذا الدين إلى يومنا هذا!! وبقيت فئة فارس تقيم شعائر دينها وتوقد النار في المعابد في كل ولاية فارسية تقريبا حتى بعد انتشار الإسلام بنحو ثلاثة قرون للهجرة.

ماني والمانوية

ومن أشهر المذاهب التي كثر أشياعها في بلاد فارس: المانوية نسبة إلى ماني مؤسس هذا المذهب وزعيمه. وهو رجل فارسي ولد سنة ٢١٥م. وكانت تعاليمه من الفلسفة الفارسية القديمة، المبادئ المسيحية، حتى وصفها بعض المؤرخين بأنها زرادشتية منتصرة، وقد كان لهذا المذهب أتباع كثيرون في آسيا وأوروبا، يتمسكون بمبادئه على الرغم مما لقوا في سبيل ذلك من مذلة واضطهاد، إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي.

كان ماني يرى أن العالم نشأ عن أصلين: النور والظلمة، فنشأ عن النور كل خير، وعن الظلمة كل شر في العالم، وقد امتزج الخير بالشر امتزاجا تاما؛ فهو في هذا يشبه زرادشت، ولكنه يخالفه في أمر جوهري. ذلك أن زرادشت كثير الأمل في المستقبل؛ فهو يرتقب أن يتغلب الخير على الشر وإن طال الأمد.

ومن هنا أخذ برجسون الفيلسوف الإسرائيلي في العصور الأخيرة فلسفته، ويتابعه فيها الفيلسوف الألماني نيتشه الذي ألف كتاب (زور أو استر) الذي أعجب به هتلر واتخذه مثالا لفلسفته، حيث قال نيتشه بإرادة القوة، وأراد نيتشه معنويتها، فعكسها هتلر إلى الفكرة المادية.

وكان مستمد الاثنين – نيتشه وهتلر – في الحقيقة فلسفة شوبنهاور بمذهبه في الإرادة.

قلنا إن زرادشت كان متفائلا وأما ماني فكان متشائما يائسا يرى أن هذا الامتزاج لا مخلص منه إلا بالموت.

وكان زرادشت يدعو الناس جميعا إلى سبيل الحياة الطيبة ويستحثهم على

عمل الخير، كالحرث والزرع وإصلاح الأرض وتربية الماشية ويرغبهم في الزواج والتناسل حتى تستمر الحياة ويدوم الكفاح وينتصر مزدا على أهريمان.

أما ماني فزاهد في الوجود، يود الفرار منه، ويتعجل الفناء لنفسه وللناس، ولهذا رأى تحريم الزواج حتى ينقرض النوع، وشرع الصيام سبعة أيام من كل شهر، وفرض صلوات كثيرة، ونهى عن ذبح الحيوان لما فيه من الإيلام. وهو في هذا، وفي رؤية أن وجود الإنسان جناية جناها أهله ويجب انقراضه، يشابه أبا العلاء المعري مشابهة كبيرة.. وفلسفة ماني فلسفة تشاؤمية تتفق مع فلسفة شوبنهاور في العصور الحديثة. ولك في هذا أن تقول: إما أن يكون ماني شوبنهاوري النزعة، وهو مستحيل لأنه المتقدم أو أن شوبنهاور مانوي العقيدة والمذهب وهذا هو الأرجح!!.

وقد شاع مذهب ماني بين بعض العرب القدماء وقد اشتغل علماء على الكلام بالرد على آرائه وبيان ما اشتملت من زيغ وزندقة وبخاصة في موضوع الميعاد – البحث – وهل يكون بالأجسام أم بالأرواح؟؟.. وعندنا أن البعث بهما جميعا!!

مزدك والمزدكية

ظهر في القرن الخامس الميلادي رجل من أهل نيسابور دعا الناس إلى مذهب ثنائي جديد، فكان يقول بالنور والظلمة، ولكنه امتاز بدعوته إلى الاشتراكية المتطرفة، ولعلها الفلسفة التي دعا إليها كارل ماركس الألماني حديثا!! لأنه رأى أن الناس ولدوا سواء، وأنه ليس هناك مبرر للتفرقة بين شخص وشخص، وأولى ما يجب فيه المساواة المال والنساء!!

وكان ينهى الناس عن البغض والحسد والقتال، وجعل علاج هذه الأمور

أن يبيح النساء والأموال بل جعلها شركة شائعة بين الناس جميعا يشتركون في الماء والنار والكلأ والهواء، وقد اعتنق كثير من القوم دعوة ذلك الرجل، فاتبعوه وناصروه، إرضاء لشهوتهم وقضاء لأوطارهم.

ديانة الفرس المجوسية

وإليك خلاصة ديانة الفرس المجوسية المركبة من مذاهبهم المتعددة، وإن كان أحسنها وأكثرها اعتدالا: مذهب زرادشت، الذي قال بوجود إله معبود فوق الخير والشر، وجعل النور صفته، والظلام ظلا للنور. وكان الفرس يقسمون العوامل المؤثرة في هذا الكون إلى قسمين: الخير والشر، أو النور والظلام.

فالنور – عندهم – آهورا مزدا: هو الإله القديم الأزلي وهو مصدر الفكر والحياة والنمو، وهو إله الخير والفضيلة والسعادة في زعمهم.

وبعد أن أقام إله الخير زمنا وحده عاملا في الكون ظهر إله الشر والشيطان، ويسمونه أهرمن أو أهريمان. ويعللون وجود أهرمن، بأن آهورا مزدا فكر بأنه لو كان معه قوة أخرى؛ فماذا يكون حال العالم؟ وبما أنه الإله الخالق، وقد فكر فأراد خلق من ذلك أهريمان، ولهذا الاعتبار يكون الفرس اثنين، وإن كان مبدؤهم القديم هو التوحيد.

وبذا يكون مزدا الخالق الأعم، وما أهريمان – منبع الشر – سوى ظل أهورا مزدا. وما العلم إلا ميدان واسع، تحتدم فيه كل يوم المعركة العظمى بين الخير والشر، وإن كان الخير هو المنتصر في النهاية.

وكأنهم يريدون أن يقولوا إن الخير هو المبدأ الأصلي الإيجابي، وما الشر إلا ظله السلبي؛ ولذلك كان أساس الأخلاق عند المجوسيين أن يكون الإنسان

طاهرا في الفكر واسع العلم كاهورا مزدا، ولا يكون شريرا جاهلا محبا للفساد كأهريمان. وحوالي سنة ٦٦٠ ق.م ظهر فيهم حكيمهم العظم زراوستر (زرادشت) ومات سنة ٥٨٣ ق.م بعد أن عاش ٧٧ عاما.

وزرادشت أبان لهم في تعاليمه أن النور والظلام مبدآن حادثان، وضدان مخلوقان؛ فالنور صفة للإله الحق الواحد الأزلي، والظلام صفة للمادة وبامتزاج النور والظلام خلقت موجودات هذا العالم، وحصلت تراكيبه المختلفة وحدثت الصور والألوان والأنواع من هذا التركيب. وأما مبدعهما فواحد، لا شريك له، وفرد لا ند له، ولا يجوز أن ينسب إليه إلا الخير والصلاح. وما الشر والفساد إلا أثر لضرورة امتزاج النور بالظلية، ولا بد أن الخير يغلب الشر يوما ما، فيتخلص الخير إلى عالمه وينحط الشر إلى عالمه، وتلك هي نهاية العالم.

هذه مجموعة مذاهب الفرس الدينية، وهي توضح لنا اتجاههم العقلي ومستواه الفكري. وقد ماتت هذه المذاهب تدريجيا، ودخل كثير من الفرس في الإسلام، ولكنهم كانوا يحنون إلى عقائده الأولى، حتى روى أهل الأدب أن عبد الله بن المقفع مر ببيت نار للمجوس وكان ذاهبا ليسلم فأنشد:

يا بيت عاتكة التي أتعــزل   حذر العدى وبك الفؤاد موكل

إني لأمنحك الصدود وإنني   قسما إليك مع الصدود لأميل

ولما سئل في ذلك قال أحببت، أن لا تمضي فترة وأنا على غير دين.

وكان الفرس يعظمون ملوكهم ويقدسونهم – كمصر القديمة والهند والصين واليابان – ويزعمون أن الله اصطفاه من بين عباده، وخصهم بالسلطان وأيدهم بروح منه، فهم ظل الله في أرضه. أقامهم أمناء على مصالح عباده، وجعل له على الناس السمع والطاعة، وليس لأحد قبلهم حق!! وبلغ هذا الاعتقاد أشده

أيام الأسرة الساسانية وكان له أثر عظيم عند الشيعة؛ فكان نظره إلى علي بن أبي طالب وأبنائه نظر آبائهم الأولين إلى ملوكهم وأكاسرتهم.

وإن كان لما جاء بالإسلام أجهز على هذا الدين تماما، ولم يبق من معتنقيه في بلاد الفرس – مهده – إلا نحو (٤٠٠) عائلة في نواحي (يزد) من جنوبي خراسان في مملكة إيران وله هيكل على رأس جبل يحفظون فيه النار المقدسة التي جعلوها رمزا للنور الصادر عن آهورا مزدا، حتى العصور الأخيرة.

فلسفة الديانة اليونانية

إن اليونان قد اكتسبت بذور دينها، الميثولوجيا اليونانية، عن مصر وفينيقيا والهند والصين والكلدان وفارس، فهي شرقية الأصل والمنبع، وإن كانت في أسلوب يوناني ميثولوجي خاص، يمازجه الخيال والشعر اللذان اشتهرت بهما اليونان، ولها من جو بلادها الشاعري ما يساعد على ذلك. وقلنا إن القدماء كانوا يؤلهون الكواكب والبشر والأرواح والأصنام، وقد أخذت عنهم اليونان كل ذلك، ولكن في أسلوب يوناني خاص.

وقد وجدت فلسفات الديانات القديمة في أرض اليونان تربة خصبة وإن كانت قد أزهرت أشجارها زهورا فلسفية وفكرة مختلفة الألوان والعبيق؛ فآلهة اليونان قد صاغها المزاج اليوناني في أشكال بشرية، لا تمتاز عن غيرها من البشر في شيء سوى أنها قد بلغت درجة الكمال فامتزجت بالآلهة بل قل إنها قد صارت آلهة بالفعل!!

ولكل واحد من هذه الآلة عمل خاص، ووظيفة لا يتعداها. وأثبت اليونانيون لآلهتهم كل الصفات البشرية تقريبا؛ فهم – أي الآلهة – يأكلون، ويشربون، ويلعبون، ويلهون، ويخوضون المعارك، ويغلبون، وينهزمون ويتألمون،

ويفرحون، ويحزنون ويتباغضون ويتحاسدون، فيحقدون وينتقمون!! فالويل لمن ناوأهم العداء، أو بدأهم بحرب؛ فإن غضب الآلهة جد شديد!!

وفي أشعار هومير، وهزيود التي ترجمت إلى سائر اللغات الحية، قصص عظيمة الخيال، تصف أخلاقهم وطباعهم وميولهم البشرية الإلهية معا.

وذكرنا أن اليونانيين أخذوا أصول عقائدهم وفلسفتهم وعلومهم بل وفنونهم وصناعاتهم التي كانت موجودة بالفعل في سائر الحضارات الشرقية، وبالأخص مصر والهند، قبل مولد حضارة اليونان بأدهار طويلة عن الشرق ونقلها اليونانيون إلى حضاراتهم التي حدثت بعد ذلك.

وموقع بلاد اليونان الطبيعي والجغرافي، قد ساعد على اتصالها بكثير من أفكار الأمر ذات الحضارة القديمة وبلدانها فلا يفصلها عن آسيا الصغرى، إلا بحر الأرخبيل. وليس بينها وبين إيطاليا إلا بحر لا يتجاوز في بعض المواقع ثلاثين ميلا، هذا إلى قربها من شمال إفريقيا، ووادي النيل الخصيب منبع المدنية ومولد الحضارة.

وقد أجمعت المراجع التاريخية على أن اليونان استمدوا مبادئ حضارتهم من الشرق، وهو أمر لا شك فيه. بل ويرى العلامة دريبر أن أوربا جميعها مدينة للشرق، وبخاصة مصر، فقد كانت في تلك العصور الغابرة مستقر العلم وموئل طلابه. ومنها انبعثت أنواره حتى غمرت بلاد اليونان وغيرها من شرق أوروبا لغربها الشمالي.

ويقول الأستاذ بتشر: "إن اليونان أول أمة أخذت على عاتقها أن تزود أبناءها بالعلم، وتجعلهم صالحين لحياة مدنية، وترفع مستوى معيشتهم، وأن تتعهد تربية كل ما فيهم من الاستعدادات والقوى، سواء في ذلك الجسمي

والعقلي منها، حتى تبلغ ذروة الكمال".

ولعل بعوث فلاسفة اليونان، زرافات ووحدانا، إلى مصر ليستقوا من علومها ومعارفها، ويأخذوا عن حكمائها العلم، فينقلوه إلى قومهم اليونانيين من الأسباب التي تدل على أن حب اليونانيين المعرفة فطرة فيهم.

ولا خلاف في أن اليونانيين نقلوا عن مصر الشيء الكثير من أصول فلسفتهم، وتلقوا حكمتهم عن الكهنة المصريين، ونقلوا الكثير من فروع العلم كعلم الفلك، وباقي الرياضيات، والطب وما وراء الطبيعة. وإن كانوا قد توسعوا فيما بعد، في فروع الفلسفة ومذاهبها العديدة وطبعوها بطابعهم الخاص. وأخذوا أيضا عن المصريين رموزهم وطقوسهم بل وأسراه الدينية وكان يتناقل ذلك كهنة المصريين تعليمها شفاهيا أساسه: توحيد الله، وخلود النفس، وحب الحكمة، والعمل بالفضائل.

وقد زار مصر – كما قدمنا – طاليس، وفيثاغورس، وديموقريطس، وانكسيماندر، وفريستيدس، وأفلاطون، وغيرهم، أولئك الذين تهذبوا في معابد المصريين، واغترفوا من حكمتهم، ثم رقوا الفلسفة رقيا علميا زاروا مصر فيما بعد.

ويعتبر انفصال الفلسفة عن الميثولوجيا، وجعل مقياسها الأوحد المنطق العقل، من عمل الفكر اليوناني الذي امتازت فلسفتهم به. وكان أكثر اليونانيين نقلا عن المصريين هو طاليس الذي أقام ردحا من الزمن في مصر على عهد أمازيس، ثم رحل إلى آسيا وعاد أخيرا إلى مليطا ومشهور عنه أنه قاس الهرم الأكبر في مصر بواسطة ظله لبراعته في العلوم الرياضية.

ثم يليه في ذلك، فيثاغورس الذي ظل في مصر ثلاثين سنة يدرس على

كهنة المصريين الإلهيات والفلك والرياضيات، وكان كمعلميه المصريين يعلم بالتقمص وكان كبقية الكهنة المصريين المشتركين في الأسرار، يعرف أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس وقد شهد له بذلك أرسطو، وأن كوبرنيكوس ما عرف دورة الأرض إلا بقراءة فقرة من (شيشرون) يقول فيها (هيستياس) تلميذ فيثاغورس، إنه كان قد تكلم عن دورة الأرض اليومية حول نفسها وحول الشمس.

وقد كان فيثاغورس عارفا –كما علمه كهنة مصر – أن السيارات تولدت عن الشمس، وهي تدور حولها وأن النجوم كلها شموس، ولكل منها سيارات أخرى تتبعها وعوالم تدور حولها سيما وأن مصر أول من وضع صورة السماء (الزيج الفلكي) كما هو ظاهر من معبد دندرة إلى الآن.

ولم تكن هذه الأسرار تستودع قط في بطون الكتب، بل يتلقفها المشتركون حذرا من تفشيها بين الشعب اليوناني، حتى لا يحتسبها هذا، لعدم تمكنه من إدراكها ولمخالفتها للميثولوجيا كفرا أو أنها جهل بالديانة.

ولذلك، حكم على سقراط بشرب السم ومات شهيد الحق والتوحيد، لما أفشى أسرار الوحدة وخلود الروح، واعتبروه كافرا بالآلهة، وإنما أفشاها سقراط، لأنه لم يكن مشتركا في معرفة الأسرار المصرية القديمة – وإن كان قد عرفها – ولم يكن مرتبطا بالقسم الذي يرتبط به المشترك في معرفة هذه الأسرار. وفي الغالب أن سقراط قد استنبط هذه الأسرار من حقائق الوجود بالإلهام، لأنه لم يكن مشهورا عنه أنه ذهب إلى مصر. وقال عن نفسه أنه تلقاها من روح علوي كان يلازمه، وقيل أنه أخذها عن كهنة دلفيس المرتبطين بأسرار إيزيس.

وأما أفلاطون تلميذ سقراط، فقد انطلق بعد موت معلمه، إلى مصر واشترك في معرفة الأسرار المقدسة، ثم آب إلى وطنه وأسس مدرسته الفلسفية

(الأكاديمية الأفلاطونية) وجعل فلسفته المثالية كناية عن السر الأعلى في شكل مثل متعددة وفوقها المثال الأول – مثال الخير – وهو الإله. وجعل الأشياء الموضوعية كناية عن الرموز أو الظل لتلك المثل، لأنها تخفي وراءها الحقائق المثالية العليا.

وأما فيثاغورس، فبعد أن تشبع بعلوم المصريين وأسراره الدينية ذهب إلى كروتون (مجانا جراسيا) في إيطاليا، وهو في الثانية والخمسين من العمر. وأسس مدرسته هناك، ونظم الأخوية الفيثاغورية نظاما سريا، دينيا فلسفيا علميا، وكان طلاب مدرسته يمتحنون في الرياضيات والموسيقي امتحانا مدققا، لذلك دعيت مدرسته بالمدرسة الرياضية وكان الفائزون في الامتحان، يرقون، فيدرسون الدروس العائلية، وهي (دروس مصرية بنوع خاص: اللاهوت وعلم النفس معدلة قليلا عن الأصل المصري. أما الراسبون في الامتحان فيتلقون دروسا أخرى، وكان يحذر إذاعة ما يتلقونه من العلوم هذا ولسنا نقصد بقولنا إن اليونانيين قد أخذوا علو مهم الدينية التي هي نبع فلسفتهم الحقيقي عن مصر، أن نغمط العقل اليوناني حقه في النبوغ وسمو الخيال وسمحته، ثم استقلاله بصيغته الفسلفية الخاصة فيما بعد.

فإنا معترفون من هذه الجهة بأن العقل اليوناني قد طبع الفلسفة، فيما بعد بطابعه الخاص، ورقاها بل ووضع لها النط العقلي والمنهج المنطقي، حتى صارت على ما هي عليه الآن، وعادت مصر تنتفع من تلك الفلسفة في مدارس الإسكندرية ممزوجة بالدين مرة أخرى.

وقد استقى العرب اليهود والأوروبيون – بعد الإسكندرية – من معينها الفياض حتى ارتووا. وإنما تريد أن ندلل فقط على أن في العالم تعليما سريا واحدا منذ القدم، تداولته الشعوب والأمم. وأن الأديان كلها تمثل سيالا واحدا

يحمل سر وحدة الإله والروح وخلود النفس بعد الموت، وإن الفلسفة والدين قد خرجا من مهد واحد، كما قدمنا في التمهيد لهذا الكتاب، وإن كان للدين منهجه الخاص به، وللفلسفة منهجها كذلك. بيد أن عالم المعتقد وعالم التأمل يلتقيان في قسم ما وراء الطبيعة من الفلسفة وهو عالم اليقينية الفلسفية أو الدينية فهما صنوان في عالم المعتقد الذي يتلاقى فيه الدين بالفلسفة.

وإذا افتقرنا إلى دليل يدعم صدق نظريتنا فالدليل بين يدينا وفي هذا الموضع نفسه من البحث أي في تطور التعليم السري للمصريين الذي يقول بوحدة الإله وأنه لا يرى ثم تطور إلى لاهوت يوناني أساسه (زيوس أوزفس) الإله الأعلى.

فطاليس أبو الفلسفة اليونانية وأول فيلسوف فيها، ورأس الحكماء السبعة بلا نزاع، قد أخذ من علوم مصر السرية المبدأ الأول للأشياء وإن تحول فيما بعد إلى فلسفته التي تقول (إن الماء هو الأصل الأول لكل شيء) فأنت تراه يقول مثلا: (الكل مليء بالله) وجعل مظهره الماء الذي به يحيا كل شيء.

وهذا القول وإن شممت منه رائحة الحلول غير أنك لا تفرق بين أن نسميه قولا فلسفيا أو دينيا.

وقصد طاليس لهذه القولة: أن الكون وحدة مطلقة ذات حياة، وأول ما تلبس أو تدرك الحياة في الماء. وعند طاليس أن الفلسفة هي معرفة أصل الأشياء، أي أن الفلسفة في عرفه تقوم على سؤال واحد: ما هو أصل الكائنات وما مصيرها؟؟

وذلك هو نفسه موضوع الدين في أسمى معانيه وهو أيضا مسألة المسائل في الفلسفة وبعبارة أخرى في الميتافيزيك. وحاول طاليس أن يجيب عن هذا

السؤال فقال: "خلق الله الحياة من الماء".

وتقول مدرسة فيثاغورث: "إن الله واحد، ومعطى نور السماء هو أب الجميع، هو الفكر أو القوه الحيوية للعالم، هو محرك كل شيء".

وأفلاطون يقول: "إن الإنسان نفس إلهية متجسدة، وقبل تجسدها كانت متحدة بالصور الإلهية – المعاني – وبعالم الخير والصلاح والهناء – عالم المثل. ثم انفصلت عن ذلك العالم النوراني بالتجسد الأرضي. وعند ما تتذكر عالمها العلوي، تنزع إلى التسامي والمعرفة وعند انفصالها عن الجسد لا تتألم لأنها تكون مشتاقة إلى عالمها الحقيقي".

وعند أفلاطون أن الله هو مثل الخير الأعلى وعند تلميذه أرسطوطاليس أنه المحرك الأول.

ويقول أفلاطون: "نسر الذات الإلهية بالصلوات والذبائح بقدر ما تسر بنفس فاضلة تستنفذ الوسع في التشبه بها وقد ضل من توهم أن الإله يلتفت إلى تقدماتنا أكثر مما يلتفت إلى ما في نفوسنا من نية خالصة، وألا يتمكن الأئمة بهذه الوسيلة نفسها من استمالة الإله وكسب حمايته بمجرد أعمال ظاهرية.. كلا، لا يدعى بارا ولا حكيما إلا من تشبه بالفضائل وخلصت نيته في أن يرضي الإله والبشر".

وأنكسماندر، أشهر الفلاسفة اليونانيين بعد طاليس الذي كان عنده أن المبدأ الأول هو المطلق الذي ليس يحدد وهو فوق العوامل والغير، ولذا هو لا يموت. وهذا يرينا أن أنكسماندر كان ينشد وراء كل موجود إلها أو مبدأ أزليا عاما غير محدد وإن كان معين الصفات. وهو في ذلك يخالف طاليس الذي قال بالماء، ويرى أنكسماندر أن الحياة والروح وحدة تؤلف السموات المحيطة بالكل.

وكان فيثاغورس يجعل العدد مبدأ الكائنات ومن أقواله الدينية جوهرا وصياغة قوله: "إن الجوهر الإلهي في ذاته خفي عن الإنسان، والمرء لا يعرف إلا الأشياء الدنيوية المختلط فيها المتناهي مع غير المتناهي، وإنما يعرفها بسبب وجود علاقة أو مبدأ عام قام بينه وبينها هو الحياة، وهذا المبدأ صادر عن الواحد الأحد الذي يعطي الكائنات مع جوهرها القيس والقاوة والمعلولية"

ويقول أيضا: «إن نفسك عالم صغير، ولكنها ملأى بالعواصف والاختلافات فعليك أن تسعى في توطيد الوحدة والألفة في ذاتك وعندها يتجلى "جوبيتر" (الله) إلى ضميرك وتعرفه؛ فتصبح إرادتك حجر المركز ومذبح هنسيا وعرش جوبيتر".

والنتيجة أن مثل هذه الأقوال، لك أن تقول إنها فلسفة ميتافيزيكية، أو أن تقول إنها دينية إلهية، وما ذلك إلا للسر الأزلي الأبدي الذي يربط برباطه الفطري بين العقل والقلب أو بين الفلسفة والدين!!

أصل الميثولوجيا في الديانة اليونانية

وهذه المحاولات التي حاولها – إبان منشأ الفلسفة – أساطين الفلاسفة اليونانيين، تؤيد أيضا قولنا في أول التمهيد لهذا الكتاب: "لما كان منشأ التدين هو الاعتقاد الناتج عن تأمل الإنسان في السموات والأرض، قاده هذا التأمل تدريجيا إلى التفلسف بسبب ميله إلى الحصر والتحديد الموضوع تفكيره واتساع مدى حواسه". وقلنا أيضا في موضع آخر من التمهيد: "وإن الدين والفلسفة قد تسلما من أوليات الوجود وبداهاته قضاياهما في شكل تصور عقلي ثم اعتقاد".

هذا وكما أخذ اليونانيون عن كهنة مصر التعليم السري، فقد أخذ أيضا

عامتهم الوجه الآخر الظاهري للتعليم الديني، أخذوه مشوها عن وثنية مصر القديمة، عن طريق الفينيقيين والكويتيين، وصاغوا حولها ما شاء لهم خيالهم الوثاب من الأساطير الواسعة الحواشي (ميثولوجيا متعددة الآلهة) مثل: جوبيتر إله البحار، ومينيرفا إلهة الحكمة، وأبولون مقسم الأنوار العلوية على العالم وإله الموسيقى، وديانا إلهة الصيادين، وباكوس إله الخمر، واسكولاب إله الطب، وعطارد أوهرماكيس ترجمان جوبيتر، ومارس إله الحرب، ويونيون إلهة الولادة، وسريزة إلهة المحصولات، وسيفيله إلهة الزراعة، روستا إلهة الأرض، وأبولون إله النيران، وبلوتو إله الثروة والغنى، وفينوس (الزهرة) إلهة الجمال، وإذا تصورنا أن فينوس أو نمسيس، أو سيريس هي نفسها أسماء لإيزيس المصرية، وأن سيرابيس هو أوزوريس، وأن عطارد هو هرماكيس، هو نفسه إدريس معلم المصريين ونبيهم، وفوق كل هذا نفس الذي هو جوبيتر، وهو نفس زيوس في مصر والهند، وهو أيضا آتون وآمون ورع. لو تصورنا كل هذا علينا يقينا أن نعرف من أين أخذت اليونان آلهتها (ميثولوجيتها) وأيضا فلسفتها وفي الحق أن الميثولوجيا اليونانية هي بعث جديد للتاسوع المصري القديم، والآلهة الثانوية أيضا، تطور كل ذلك في أسماء متوسطة بين الفلسفة اليونانية والتعليم الديني السري العام تحت أسماء عدة كالغنوسية والهيلانة وغير ذلك.

ومع كل هذه الوثنية العميقة، فإن اليونانيين يؤلهون الفضائل، ويشيدون الهياكل الفخمة التي لا تقل في رونقها عن هياكل الآلهة الأخرى. فكان لكل من الأمانة والعدل والصدق، والتقوى وغيرها، هيكل خاص. وكان لكل معبود من معبودات اليونان كهنة خصوصيون لخدمته، إلا في الاحتفالات المختصة به على طرق مختلفة. أما المعبود – أبولون – فكان مجتمع الفضائل عندهم، ولعبادته اليد الطولى فيما ظهر في أخلاقهم من الشهامة والنبل، وحب العلم والفنون،

فإنهم كانوا يعتقدون أنه إله العدل والنبوة والكهانة والشعر ومعلم الشعراء، وحامي القطعان والمواشي، وإله الطب والسماء، ومؤسس المدن والأمصار. ولا يعبد إلا بقلب نقي طاهر، وهو أصلا معبود جميع أهالي آسيا الصغرى.

ديانة الرومان

ثم انتقلت هذه التعاليم والمعتقدات بوجهيها السري والظاهرى من الإغريق إلى الرومانيين كما انتقلت أساطيرهم الدينية؛ فتكلم شيشرون، وأفيدوس، وفرجيل، وسنيكا عن هذه التعاليم. وانتشر في الرومان بواسطة هذه التعاليم الكهنة والعرافون ومستطلعو الغيب انتشارا كبيرا، وكان لهم عند الرومان مقام لا يقل عن مقام أعظم الكهنة. ومن أقوال الرومان الدالة على معرفة الإله الحق، وأدب النفس:

- لو فعلت الخير لكي تجازي عليه تكون أحمقا، لأنك حينئذ تجهل أن الله واقف على ما إذا كنت تستحق أو لا تستحق ما تلتمسه، وعملك لن يغير من فكره.
- إذا آمنت بعدل الله، يجب التسليم بالخير أن لا تعامل الإله معاملة شاذة أو مناقضة للقوانين؛ فإذن يجب أن تصلي فقط وتطلب كل ما فيه الخير لك وللناس.
- عامل الناس كما لو كنت تعامل الله، واطلب من الله كما لو كنت تطلب من صديق.
- محبة الله لا تأتي عن الخوف منه (بمعنى الفزع) فالذي يعرف الله لا شك يعبده ويحبه.
- لو كنا من الطير لشدونا مثلها، أو من الأسماك لسبحنا مثلها، ولو كنا آدميين فليس لنا إلا أن نفكر فيها هو الواجب علينا.

- إن كنت تحب الإله فاقتد به، هذه هي العبادة.

- النفس الطيبة لا تخاف الموت، بل بالعكس تتطلع إلى الوقت الذي تتحرر فيه من سجنها الأرضي فالموت هو بدء الخلود في حياة جديدة!!

ولعل هذا القول مأخوذ عن الفيلسوف سينكا الروماني وهو قد أخذه بدوره عن أبيقور اليوناني فيلسوف اللذة والألم، والذي يقول "لا تعالج إلا الأمور التي تقدر عليها وفي إمكانك". وأما الأمور القدرية التي لا تملك مصيرها فاترك التفكير فيها، وقل من مطالبك فإنها أصل الهموم وتشبث بالحكمة فإن الموت نفسه لا يقدر عليك، فتموت وأنت هادئ مسرور.

ويقول تلميذه آبيكتيت قولته المشهورة:

"تحمل وامتنع"، ومعناها تحمل ما يأتيك من القدر وامتنع أن تتسبب في وروده مطامعك أو عداوتك أو حسدك!!

ومن أقوال الرومانيين أيضا:

– للعدالة عين ترى كل شيء فهناك مستقيم، وهناك معوج، فإذا كانت النهاية واحدة: أسرق وأخطف وأثر.. لا.. لا.. فإن في الآخرة حسابا يقضي به الله رب الجميع، فيذهب الأشرار إلى جهنم التي تفتح أبوابها فتنساب أنهر من النار وينتشر الظلام الحالك حيث تغدو الأشباح وتعود.. وهناك نجد العذاب حيث لا يوجد من يرحم!!. وهاك ترجمة صلاة لهم:

"أيها الإله، هل خالفت وصاياك؟.. هل أسأت استعمال القوة التي منحتني إياها؟.. هل ثرت على حكمك؟.. حقيقة أنا مريض، ولكن هكذا أنت أردت، وكمرضي مرض غيري كثيرون. فأنا متقبل ذلك بكل سروره".

فلسفة الديانة الرومانية

لا يجد المطلع على الفلسفة الرومانية بدًا من الاعتراف بأن مدارسها لم تكن إلا نوعا آخر من مدارس الأفكار الدينية التي نشأت في الشرق، وكانت تدور معظم أبحاثها على الأخلاق، وكان أساسها إنكار الذات!. وكانوا يلقنون هذه التعاليم الخلقية لتلاميذ المدارس في كل فرصة ومناسبة كما نلقنها نحن لهم الآن..

حقا لقد كانت الوثنية شيئا من أعجب الأشياء، وأعجب منها أن نفكر نحن – وفي القرن العشرين – أن مخلوقا ناطقا بعقل ويفكر ويقيس ويرجح، يعتقد مع ذلك أن إنسانا مثله كان يعبد الأحجار للأحجار، والأصنام للأصنام أو الرموز الرموز نفسها، دون أن يتطلع إلى شيء من الحقائق وراء الرمز الظاهر!!

أليس من المستحيل أن يتوهم أن أناسا عقلاء يعتقدون مثل هذه العقائد، ويعبدون رجلا منهم، أو يعبدون الخشب المسندة والأحجار وما إلى ذلك من أصناف الحيوان والجماد؟

والواقع أن لا دين قط إلا وفيه عنصر من الحق ولولا ذلك ما اتخذت أمة من الأمم دينا ما.

ونحن لا نكر الأخاديع والأكاذيب التي انبثت في تضاعيف الأديان ولا سيما في أدوارها المتحدرة، إذ يعتورها الوهن والاضمحلال، ولكن لا الكذب ولا الخرافة كانا السبب الأول للديانات متى سلمنا أنها كانت – في حين من الأحايين – دينا صحيحا.

الوثنية رموز بشرية، وتمثيل بالمرئيات لما يجري في وجدان الناس وأذهانهم عن الكون ومظاهره فهي ضرب من التفلسف على نوع ما (ولو مسفسطة)

وكل طقس للدين متقدم إنما هو رمز وتمثل لحقيقة خلفه، ويختلف الطقس أو الرمز باختلاف الآراء والإحساسات فالوثنية شعر أقيم على حقيقة (بتولوجيا) وليس بالعكس أي ليس أنه حقيقة خلقها الشعر بالخيال..

وكثيرون هم الذين يعتقدون خطأ بتجرد الوثنيين تماما من الأمان من الحقيقة بالله، ومن الأخلاق الفاضلة، وإن من أغرب الآراء أن ترمي الوثنية بجهل التوحيد، في حين أن الحكيم طاليس قال منذ القدم خلق الله الحياة من الماء، فهناك ماء كمظهر وهناك حياة معنى حي في الماء وهناك إله كفاعل حقيقي مؤثر.

وألم تقل المدرسة الفيثاغورثية: "إن الله واحد معطي نور السماء، هو أب الجميع، هو الفكر والقوة والحيوية للعالم، هو محرك كل شيء"

ألم تقل المدرسة الإليائية: "الله واحد هو الأحد، صنع السموات وبسط الأرض التسعة، مع المحيط الأزرق العظيم الأمواج، هو خالق الرياح القوية"

وقالت أخرى: "وهو رب الجميع إليه فقط يجب أن نقدم احترامنا" (الأفلاطونية الحديثة بالإسكندرية)

وألم يمت سقراط العظم ضحية للتوحيد، توحيد الحقيقة الإلهية المنزهة عن الشبيه والنظير؟ وسقراط أبو الفلاسفة قديما وحديثاً.

وقد يذكر بعضنا للوثنية أسطورة الإله جوبيتر، ثم يضحك ملء شدقيه، ولا تحاول أن يلاحظ ربط سلسلة تطور الفكرة التي نشأت من هذه الأسطورة بسلسلة لتطور فكرة الله في الشرق، فقد تغلب جوبيتر على غيره من الأرباب وكثر أتباعه، فبعد أن كان إلها ماديا أصبح فكرة راقية، فلم يعد جوبيتر الأساطير نفس جوبيتر المرادف للفظة زف الإلهية المحضة.

وهذا ليس معناه أن الوثنية تعتبر ديناً صحيحاً مقبولا عند الله، وإنما هي مجموعة عناصر من الخيال والتفكير والمعتقد، لا تخلو في الوقت نفسه من عنصر الحقيقة الإلهية التي كانت أصل هذه الميثولوجيا جميعا، والتي نبتت على جزعها جميع الرموز والطقوس. والأولى والأحق أن يعبد الله وحده، بلا شريك أو مثيل، أو مكان أو زمان أو حلول أو اتحاد!!

ولذا أرسل الله لإعادة الحق إلى نصابه، وإعلان الحقيقة الإلهية المتوحدة سافرة، كتبا منزلة من عنده جديدة ورسالات جديدة لإقامة منار الحق، تتمثل في الديانات الثلاثة اليهودية، والمسيحية، وختمها بالدين الإسلامي الذي يقول كتابه: إنه دين البشرية كافة ودين العقيدة البسيطة التي شعارها: "لا إله إلا الله، مُحَمَّد رسول الله".

والكتب المنزلة لهذه الديانات الجديدة الكاملة هي: التوراة، والزابور، والإنجيل، والقرآن. وهي التي يجب اعتمادها والتصديق بما جاء فيها ما لم يغير أو يحرف، وإلا فالتحريف نفسه ضرب من الوثنية أو على الأقل ضرب من الرمزية التي من شأنها أنها تتستر وراءها الحقيقة.

الديانة اليهودية وأصل اليهود

الأصل في تكون اليهود أنهم كانوا قبائل متفرقة يسكنون شرق الفرات، ثم هاجروا تحت زعامة إبراهيم عليه السلام، كما قال الرب: "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض، التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة".

وما زالوا يتنقلون حتى أتوا إلى أرض كنعان المعروفة باسم فلسطين، وعاشوا بها عيشة أهل البادية، يرتادون مساقط الماء ويرعون غنمهم ويلتمسون رزقهم، ولما حصل الجدب والقحط، انحدروا إلى مصر ونزلوا في (جوش) في الشمال الشرقي، ثم أوغلوا في البلاد واختلطوا بأهلها وأقاموا معهم مدة طويلة.

فلسفة الديانة الإسرائيلية

لم يكن لليهود في أول أمره فلسفة خاصة، وإن كانوا موحدين يقولون على الوحي فقط بإله واحد لا شريك له ولا شبيه، وكانوا يستمدون أفكارهم من التوراة ولا يجرءون على التفكير المطلق من كل قيد، بل يستندون في كل ما يقولون على الوحي.

ولذلك تركوا البحث في حقيقة الخير والشر وفي حقيقة النفس ومصيرها وفي مادة الكون وأصلها. وإنما ذهبوا إلى أن الله خلق آدم على صورته وإلى أن الله رأى جميع ما خلق فكان حسنا. وقالوا إن الشر في الأعمال يتولد من انتصار المبدأ المادي على المبدأ الروحي.

وقد جاء في المقتطف سنة ١٩٠٨:

"وكانوا إذا اقتربوا من النظريات الفلسفية المحضة، أرجعوها إلى دائرة الدين، وجعلوا الحكم فيها فوق مدارك العقول اعتبارا بما ورد في سفر أيوب من اجتماع الحكماء وحثهم في مسألة العناية الإلهية والقدر، وكيف أظهر الله في عاصفة لأيوب وأظهر له قصر المدارك البشرية عن اكتناه أسرار الطبيعة ووجوب خضوع الإنسان لله والتسليم لإرادته، إلى غير ذلك مما يذهب بالقضايا الفلسفية إلى الوجهة الدينية".

لم يدم الحال على ذلك، فإن اليهود لما اختلطوا بغيره من الأمم، وأخذوا عنها كثيراً من العلوم والآداب، اكتسبوا طرائق جديدة للتفكير، ونحوا منتدى الفلاسفة في كشف الغامض من أسرار الطبيعة، وفي تفسير المظاهر المختلفة في هذا العالم وشرحوا الكتب المقدسة وأسهبوا في ذلك معتمدين على الآراء الفلسفية التي استمدوها من قراءة الأدب اليوناني وبخاصة فلسفة أفلاطون وفيثاغورس وأرسطو.

ترتب على هذه النزعة الجديدة: أن انقسم علماء اليهود إلى قسمين هما: الفريسيون وهم الربانيون، والصدوقيون (اشكنازي).

أما الفريسيون فكانوا يهتمون بحفظ شرائعهم ويتمسكون بتقاليدها، ويأخذون في تفسير الكتب المقدسة بأقوال السلف الصالح، ولا يفرقون جبريين بين السياسة والدين. ويعتقدون أن حرية اليهود وكيانهم لا يحفظان إلا بالشريعة، وأن عظمتهم لا تسترد إلا بالدين. وقد باعدوا بين الدين والفلسفة ما استطاعوا.

وأما الصدوقيون فكانوا يقولون: إن الله خلق الإنسان كفئا ليتولى الصدوقيون إدارة شئونه بنفسهم، وإن من العبث الإخلاد إلى السكينة، وانتظار إرادة الله في حين أن الإنسان يستطيع أن يحل المشاكل التي أمامه بنفسه لأنه

خلق مختارا ذا إرادة، وكانوا لا يتمسكون بسنة السلف وتقاليد الماضين.

ولعلنا هنا نجد بذرة الخلاف الذي قام في الإسلامية بعد موت الرسول بين المعتزلة والسلفيين الآخذين بظواهر نصوص القرآن فهو يهودي المنبع أو فقل إن اليهودية جمعت بعض المشاكل الدينية لتحكمها على ضوء الفلسفة اليونانية، وجاء المسلمون الميالون لحرية الفكر على زعمهم وهم المعتزلة الذين قبسوا من أفلاطون.

ويقول الصدوقيون عن أثار موسى: إنه ليس فيها ما يزيد خلود الروح، وعلى ذلك كانوا لا ينظرون إلا إلى عصر ذهبي يشبه عصر داوود وسليمان عليهما السلام.

وقلنا إن اليهود ينتسبون إلى خليل الله إبراهيم، وقد عبر الفرات تاركا وراءه الكلدان مهد المدنية في ذلك الوقت قاصدا أرض كنعان تلبية لأمر الرب.

وجاء بعده إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب وهو إسرائيل، وإليه تنتمي الأسباط الاثنى عشر، وأحد أبنائه يوسف الصديق الذي أطلقت يداه في مصر فاستجلب إليها أهله وعشيرته وأنزلهم أرض غسان قرب الزقازيق. فنشأت الحفيظة عليهم في قلوب الوطنيين إلى أن بدت فرصة سانحة انتهزوها واستعبدوا الدخلاء (اليهود) حتى قادهم كليم الله موسى وخرج بهم منها بعد أن ضرب الله الأرض ضربات داميات. وفي وسط صحراء سيناء، كما تقول الكتب أو في أرض فلسطين الجنوبية كما يرجح علماء اليوم الأوربيين (ميلا لتوطين اليهود) تلقى موسى من ربه ألواح الوصايا العشر (زبدة التوراة كتاب الإسرائيليين المقدس).

حياة موسى نبي الديانة الموسوية

هو نبي الله موسى بن عمران عليه السلام، رسول الله إلى بني إسرائيل ومنقذهم من فرعون مصر الذي أمر بطرح أطفالهم الصبيان في النهر نظرا لما كانوا عليه من النمو والكثرة، وحذر من أن ينضموا إلى جيش معاد يحارب المصريين، خصوصا وأن كهنة فرعون أخبروه بظهور نبي من إسرائيل سيكون هلاكه على يده، فأمر فرعون بقتل أطفالهم الذكور دون البنت.

وكان موسى من جملة أطفال إسرائيل طبعا، وكانت أمه قد خبأته حتى صار عمره ثلاثة شهور، ثم طرحته في النهر موضوعا في سفط مطلي بالقار خوفا عليه من فرعون.

ولما ألقته على حافة النهر، أراد الله أن تجده هناك امرأة فرعون ملك مصر، وسمته موسى ومعناه: المنتشل. ثم بعد أن كبر، قتل رجلا مصريا انتصارا لرجل من قومه العبرانيين، فبلغ الخبر إلى فرعون فأراد أن يقتله، فهرب موسى وسكن أرض مدين وتزوج ابنة نبي الله شعيب صفورة.

وبقي هناك، وفي عودته من مدين ظهرت له نار من شجرة تشتعل، وهناك خاطبه الله وأمره أن يذهب إلى فرعون وأن يخرج بني إسرائيل من أرض مصر، ليتملكوا الأرض التي وعد الله إبراهيم أن يعطيها لنسله. وقد سأل موسى الملاك الذي ظهر له حينئذ عن اسم الله، فقال له إنه أسماه الله هند (يهوه) إله إسماعيل وإسحاق ويعقوب، ومن أسمائه (آهيا) و(الوهيم) وكان معروفا عنده بالقادر الكافي. ويهوه بالعبرية معناه الله.

ولما خرج بنو إسرائيل من مصر، ووصلوا إلى البحر الأحمر ندم فرعون على إطلاق سراحهم، وساق جيشه ومركباته لأجل إرجاعهم، فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعصاه فانشق، وعبر بنو إسرائيل إلى اليابسة، وأراد فرعون أن يعبر البحر خلفهم، فرد الله عليه الماء فغرق!!

الديانة اليهودية

وبعد تمام الخروج من مصر، اعتكف موسى أربعين يوما بين جبال سيناء، وآتاه الله الكلمات العشر أول التوراة، وفي هذه الأثناء أضل السامري بني إسرائيل فوقعوا في التيه أربعين سنة. ونحن نوردها هنا كما جاءت في سفر الخروج صفحة ٢٠ من العهد القديم:

١- أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.

٢- لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك إله غيور أفتقد ذنوب الآباء في الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع من مبغضي. واصنع إحسانا إلى الآلاف من محبي وحافظى وصاياي.

٣- لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلا.

٤- اذكر يوم السبت – ومعنى السبت الراحة – لتقدسه ستة أيام تعمل

وتصنع جميع عملك وأما يوم السبت ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع أعلاما، أنت وابنك وعبدك وأمتك وبهيمتك، ونزيلك الذي داخل أبوابك.

٥- أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض حتى ويعطيك الرب إلهك أبناء بررة.

٦- لا تقتل.

٧- لا تزن.

٨- لا تسرق.

٩- لا تشهد على قريبك شهادة زور.

١٠- لا تشته بيت قريبك. لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره.

وقد دونت شريعة موسى الأساسية في خمسة أسفار وهي: التوراة منضمة إلى سائر كتبهم الدينية، وهي ما يطلق عليها المسيحيون العهد القديم، ويضمون إليها كتبهم الدينية التي سموها بالعهد الجديد، ويجعلون الكل وحدة تسمى بالكتاب المقدس.

وبقية ما في التوراة كتب أحبار هذا الشعب وعلماؤه، غير موسى، وأولهم يوشع بن نون خليفة موسى، وانتقلت الرئاسة من بعده إلى القضاة ثم إلى الملوك، وأولهم شاؤول بن قيس من سبط بنيامين وثانيهم داوود النبي من سبط

يهوذا، وبعده ابنه سليمان الذي بني الهيكل في أورشليم وإلى هذا البيت كان يحج اليهود في كل سنة ليقيموا فيه عيد الفصح، ويؤدون صلواتهم ومناسكهم ويقدمون قرابينهم ونذورهم على يد الكهنة من سبط لاوي.

وقدمنا أن كتاب اليهود المقدس هو التوراة في عرف اليهود والعهد القديم في عرف المسيحيين وقد كتب أغلب التوراة بالعبرية وبعضها بالآرامية، وتقسيمها كما يأتي:

سفر التكوين ويحوي تاريخ خلق الأرض والطوفان وقصص إبراهيم وإسحق ويعقوب، وسفر الخروج ويحتوي على تاريخ إسرائيل بعد موت يوسف ونزول الوصايا العشر.

وفي سفر اللاويين نجد نظاما تشريعيا وضع لبني إسرائيل يحوي إرشادات عن الذبائح والعادات وتكريس الكهنة.

وسفر العدد يحوي أنساب القبائل الإسرائيلية والتيه في الصحراء أربعين سنة ثم وصولهم إلى أرض مآب، أرض الميعاد، والتثنية وهو آخر الكتب ويحوى كلمات موسى الأخيرة وخبر وفاته ووصيته وبأن يخلفه يوشع. ثم يتبع ذلك كتاب عزرا، وكتاب نحميا، وفيهما تتمة الخليقة إلى عام ٥٤٩ ق.م.

كتاب التلمود

وكتاب التلمود، ومعناه المفسر، هو مجموع كلي يطلق اليهود على بعضه لفظة (الجومارا) ومعناها التام ويليه (المثناة) أو الثاني، ويتكون التلمود في جملته من أسفار سنة، تبحث في الزراعة والأعياد والزواج والدية والقرابين والطهارة.

وقد جمع التلمود الحالي من أصلين: أحدهما يسمى الأورشليمي والآخر الناولسي. والأول أقدم من الثاني. وبعد موت سليمان وابنه بنحو عام، انقسمت مملكة إسرائيل إلى قسمين أحدهما مملكة يهوذا وهي المؤلفة من سبط يهوذا وبنيامين. والثانية ملكة إسرائيل وهي التي تألفت من بقية الأسباط العشرة. وكان اليهود فقهيا منقسمين إلى فرقتين: إحداهما متمسكة بالكتب المقدسة فقط، وسميت صادوقين أي الصديقين ومنها تناسل السامريون، والصدوقيون.

والأخرى أي الفرقة الثانية، أضافت إلى معتقدها تقاليد المشايخ لما يظن فيهم من قداسة، وقيل لهم خاسوديم أي الأتقياء، ومنها تناسل الفريسيون والأسينيون.

وقد صادف هذا الانقسام امتداد الفلسفة اليونانية إلى ما حولها من أقطار فتشبع اليهود من آرائها حتى ارتووا، ثم انقسموا إلى طوائف شتى وفرق متعددة.

والظاهر منهم في عصرنا: الربانيون، ويكونون السواد الأعظم من الإسرائيليين، وينقسمون إلى السافروديم – أي العرب – والأسكنازيم – أي

الفرنج. والفرق بين فرقهم، فرق شكلي.

والربانيون يقدسون التوراة والتلمود معاً، باعتبار أن التلمود موحى به..

والقراءون وهم يعدون الأولين الضالين لهذا المعتقد، وهم لا يقدسون غير التوراة، ويفسرونها معتمدين على الأدلة العقلية، فباب الاجتهاد مفتوح عندهم، بعكس الربانيين، ولا يعتبر القراءون التلمود أكثر من مجموعة آراء لمفكريهم القدماء قد يصح الاستئناس بها عند مقتضيات الأحوال. واليهود لا يسلمون بمسيح النصرانية، بل لهم مسيحهم الخاص الذي وعدوا به وهم له منتظرون.

المسيحية وفلسفة ديانتها

بدأت الديانة المسيحية كفرقة يهودية اضطهد اليهود دعاتها لمخالفتهم في الدعوة التي راموا نشرها لما كان مألوفا عند اليهود ولقولهم، بأن المسيح المنتظر هو عيسى بن مريم"

فرحل البعض من المضطهدين إلى الإسكندرية حيث احتكوا بمدرستها التاريخية المشهورة وأخذوا عنها. وقد رحل بعضهم إلى روما، وهناك تثبتت جذور دعوتهم في عاصمة الإمبراطورية العظيمة، وسارت جنبا إلى جنب مع الميثولوجيا الرومانية، مع ميل في التعاليم المسيحية إلى اليهودية. ثم انقسمت المسيحية في الشرق والغرب إلى ثلاث طوائف كبرى.

١- الأرثوذوكسية: ومعناها الصراط المستقيم أو الكنيسة القديمة.

٢- الكاثوليكية: ومعناها المنشقون.

٣- والبروتستانتية: وهم المعارضون.

وكانت المسيحية دين توحيد كالقاعدة العامة المتبعة في أصول الديانات.

وكل الخلاف بين الطوائف دائر حول شخصية مؤسسها، المسيح عليه السلام، وما حول تلك الشخصية من السمو الروحي، والسحر السماوي، الإلهي الأخاذ، والنور الملكوتي الباهر.

وكانت المسيحية تدعو إلى الزهد في الدنيا والتطلع للآخرة وإيثار ملكوت السماء على ملك الأرض، وكان الدخول فيها مقصورا على اليهود، ولكن لم يلبث بولس الرسول حتى دعا إلى الدخول فيها سائر الناس بنفس الحقوق التي

كانت لليهود، فبعض هذه الطوائف المذكورة يناقش موضوع شخصية المسيح على أساس الطبيعة، وهي طبيعة واحدة بمشيئتين، أو طبيعة واحدة بمشيئة واحدة أو طبيعتين ومشيئتين.

وذلك في علاقة المسيح بالإله، وإن اتفقوا جميعهم على كون المسيح أتى الأجل خلاص العالم وتطهيره من الأرجاس التي اقترفت فيه، ومن الخطيئة الأولى، بالرغم من أنهم لم يتفقوا على كيفية هذا الخلاص. وأبرز ما في هذه الآراء: أنه قد فدى العالم بنفسه ليخلصه من الخطيئة.

ولما كان الدين المسيحي لا يدعي أنه جاء ناسخا أو مبطلا للديانة الموسوية وإنما هو مكمل لها كان العهد القديم نصف كتابهم المقدس والنصف الآخر هو العهد الجديد.

والعهد الجديد لا يتعرض إلى ما وضع من شرائع في العهد القديم، بل يأخذ المسيحيون العهدين على ما هما عليه.

وأساس المسيحية في التشريع ركنان: المعمودية، والتناول.

ويتم التعميد إما برش الماء على الجبهة أو بغمس جزء عظيم من الجسد فيه.

وكان اليهود يتعمدون، ولذا سمي (يحيى) الذي هو يوحنا المعمدان، بالمعمدان نظرا لأنه كان يقوم قبل المسيحية بعملية التعميد، بل إنه قد عهد المسيح نفسه.

أما المناولة فلازمة على الجميع ويرمز بها إخواننا المسيحيون إلى العشاء الأخير الذي حضره السيد المسيح مع تلاميذه، وصار الخبز يرمز إلى جسد المسيح والنبيذ إلى دمه الذي ضحى به لأجل خلاص العالم.

وغرض الأرثوذوكس والكاثوليك والبروتستنت، بل سبب انشقاقهم كان الرجوع بالمسيحية إلى عهدها الفطري بعد تنقيتها. وهذا يفهم منه أن سبب الخلاف والانشقاق هو الإصلاح، وإن كان الخلاف ظل مستحكما في مسألة اللاهوت والناسوت، وتتلخص أسباب الخلاف فيما يأتي:

١- إنكار أريوس اللاهوت المسيح وقوله إنه مخلوق ليس مولودا من الأب، ولذلك لا يساويه في الجوهر.

٢- قول نسطور إن للابن أقنومين: النور المنبثق واحد إلهي، والآخر بشري، فهو بالأول ابن الله وبالتالي ابن مريم.

٣- قول اليعاقبة بأقنوم واحد للمسيح وطبيعة واحدة وكلاهما إلى بعكس ما تقول التعاليم الكاثوليكية القائلة بالطبيعتين والمشيئتين.

والأورثوذكس يأخذون بالرأي اليعقوبي فهم يرفضون فكرة انبثاق روح القدس من الابن كما انبثق من الأب.

والكاثوليك ميالون إلى رأي نسطور أي بالقول بالطبيعتين والمشيئتين ويضيفون إلى ذلك أن المسيح قد صار إنسانا كاملا في أحشاء أمه البتول.

والبروتستنت جاءوا بالإصلاح الأخير على يد (مارتن لوثر) الذي يرى من مذهبه أنه ميال للرأي الآريوسي الذي يقول: إن الجوهرين لا يتساويان، وقد قامت قومة البروتستنت على أساس الدعاية إلى وجوب التقيد بما تحويه الكتب السماوية والرئيسية فقط من الأحكام. ويرجع وقت قيامهم إلى العام الذي رفضوا فيه الرضوخ للإدارة البابوية سنة ١٥٢٩ ميلادية واهتم البروتستنت بالمبادئ الأخلاقية من المسيحية قائلين: إن الدين ليس في مجرد الطقوس وإنما هو في الأخلاق التي هي ثمرة الدين الحقيقية.

والمسيحيون يرون أن التثليث لا يتنافى في معتقدهم مع توحيد الإله في جوهره وحدوث العالم بقدرته المفردة ويضربون لذلك مثلا بالشمس ونورها المنبثق عنها والخير الناتج منها للأرض مما يستوجب الشكر والحب.

وأما روح القدس فهي روح الله عامة وهي ترف على الخليقة وتملؤها بالحب والنعمة وعلى كل حال فان المجاز أو الرموز أمور كثيرا ما تجري في نظم الديانات.

وأن السبب في تفاقم الخلافات بين المجاز والحقيقة هو الجهل أو التعصب الدين دون آخر. ولذا فإن الإسلام لبراءته من التعصب يسلم بجميع الديانات السماوية وسائر الرسل وما أنزل عليهم من كتب.

نظام الديانة المسيحية

إن من الكنائس المسيحية ما هو:

١- إكليريكي: وإقامة الشعائر (القداس) فيها من حق طبقة الإكليروس (القس فقط). ويشترط فيهم شروط مخصوصة.

٢- مشيخية: والسلطة العليا فيها مركزة في أيدي شيوخها أو كبارها وبهذا تصدر المتقدمون سنة وترأسوا.

٣- ديموقراطية: وهي مستقلة ذاتيا ويتعاون فيها أعضاؤها على القيادة والوعظ.

فالنظام الأول أقرب إلى الكثلكة، والثاني إلى الأرثوذوكسية والثالث إلى البروتستانتية.

ومركز الكثلكة روما، وفيها كرسي البابا الرئيس الأعلى للطائفة، ونظامها إكليريكي، وفيها ينقسم القس إلى ثلاث طبقات: بسيطة، ومتوسطة، وعالية، وللكنيسة كلمة الفصل في كل ما يدور حوله الأخذ والرد وذلك بواسطة عقد مجمع من كبار القساوسة لإصدار إرادات بابوية. وتلك هي الكنيسة الغربية. وأما الشرقية فهم الأورثوذكس وهي كنيسة محافظة أكثر من أختها الغربية ولا يعترف الأرثوذوكس بالإرادات البابوية لعدم اعتقاده عصمة البابا ويطلق على أتباع الأرثوذوكسية الروم، في حين يطلق على أتباع الكاثوليكية اللاتين ثم البروتستانت ويطلق عليهم المعارضون وأكثر مواطنهم أمريكا ثم إنجلترا وألمانيا. ومجمل القول أن الكنيسة المسيحية بفروعها تنقسم متطورة إلى أدوار أربعة!!.

١- كانت المسيحية طائفة يهودية تعمل للآخرة وفيها استعداد لقبول ما يمكنها هضمه من تعاليم الأمم الأخرى.

٢- قطعت مرحلتها الثانية مجدة في تنسيق المعتقدات وإنشاء نظام دينى خاص بها، وتم ذلك بعقد مجامع في سنه ٣٢٥م وسنة ٤٦١م. وفي هذه المرحلة كان اعتمادها على الآراء اليهودية ولم تخرج أبحاثها عن المناقشة في خوارق ما صنعه المسيح وعن ماهيته وشخصيته بل وعن كنه ذاته.

٣- أخذت تتنازعها فكرتان: المركزية أي وضع كل السلطة في يد الرئيس الأعلى، واللا مركزية أي توزيع السلطات على البطركيات.

٤- إنشاء طوائف انضم إليها رجال الدين عامة للتنازع على السلطة وعنها تفرعت الطوائف الثلاث: أرثوذكس، وكاثوليك، وبروتستنت

وأما كتب الديانة المسيحية المقدسة فهي تتكون من:

١- الأناجيل الأربعة: متى - مرقص - لوقا - يوحنا.

٢- أعمال الرسل.

٣- الرسائل

٤- رؤيا يوحنا اللاهوتي.

ولا تخرج مادة الأناجيل الأربعة عن أن تكون تاريخا لحياة المسيح، وتترتب الأناجيل الأربعة حسب تواريخ كتابتها هكذا: مرقص - متى - لوقا - وأخيرا يوحنا، وبمجموعها مع غيرها من الرسائل يسمى العهد الجديد.

إنجيل مرقص: كتب بعد ٧٠ سنة من وفاة المسيح، وجمعت أصوله الرواة الذين اتصلوا بالمسيح أو عن الذين اتصلوا بمن عاصروه ومادته قليلة يبدأ بقصة يوحنا المعمدان ثم يتكلم عن تجوالات المسيح وتاريخ الأيام الأخيرة.

إنجيل متى: كتب في أواخر القرن الأول ويعد قطعة أدبية فنية قيمة، فيه مادة تزيد عن سابقه إذ يحوي أقوال المسيح منسقة، وفيه أيضا شجرة نسب المسيح وبعض ما يحويه العهد القديم (التوراة وغيرها).

إنجيل لوقا: كتب في أوائل القرن الثاني أكثر من نصف مادته جديد لا يوجد مثله في الأناجيل الأخرى. اعتمد كاتبه على كتابات سابقة منها إنجيل مرقص.

إنجيل يوحنا: هو البذرة الفلسفية للمسيحية، كتب جزء منه في أوائل القرن الثاني ولكنه لم يتم إلا في فترات متأخرة وفيه مادة تخالف بعض ما جاء في الأناجيل الأخرى.

أعمال الرسل: هي شذرات تحوي مجهود الرسل وخصوصا في التبشير.

الرسائل: عبارة عن منشورات وعظات أدلى بها حواريو المسيح لمختلف الأمم داعين إياهم للمسيحية، وتعد هذه الرسائل أساس على اللاهوت المسيحي، ثم رؤيا يوحنا المعمدان: وهي عبارة عن عظات وتنبؤات.

وإن أردنا هنا أن نعقب بكلمة تريد بها المقارنة بين الوثنية الزرادشتية وبين اليهودية والمسيحية فيهما قلنا لا نقول بأكثر ما قاله الله سبحانه وتعالى في القرآن حيث يقول "لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون"، وذلك لأن المسيحية في أصولها دين روحي سماوي جاء به المسيح من عند الله كما يقول الله تعالى (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)، ولكن الكهنة في كل زمان وفي كل مكان كانوا يحتكرون الأسرار لأنفسهم ويبيحون الرموز للشعب كما قلنا وتلك سنة جرى عليها الجميع حتى أن المسيح نفسه قال (لا تضعوا المصباح تحت المكيال) ويعني بالمكيال الرموز وبالمصباح الحقائق.

الإسلام

ديانات العرب قبل الإسلام

كان العرب في الجاهلية على أنواع مختلفة من العبادات، فمنهم من عبد الأصنام، أو الشمس، أو القمر، أو الكواكب، أو الجن، أو الملائكة، أو النار.

ومنهم الدهريون، والصابئة، والثانوية، والزنادقة، وكان منهم اليهود، والنصارى، والموحدون الأحناف.

كان أكثرية العرب يعرفون الله الواحد الأحد، وإنما يتخذون الأصنام زلفى إلى الله وقربى، وكان الإله الواحد الأحد، غير المنظور، هو عندهم رب الأرباب ويقسمون به أعظم القديم. وكان كهانهم وعرافوهم يتداولون التعليم السري العام ويتلقونه شفهيا بينهم.

وكانوا يبتغون بعبادتهم، لا الأصنام نفسها، وإنما التوسل بها إلى الله والتقرب إليه، ولكن بطرق مختلفة، فمنهم من اتخذها على هيئة الملائكة لأنهم ذوو جاه ومنزلة عند الله. ومنهم من اتخذها قبلة يتوجه إليها.

وقد أخذ العرب عبادة الأصنام عن الفينيقيين، وأول من أدخلها إلى بلادهم، هو عمرو بن لحي بن حارثة، عن ولد كهلان بن سبأ الخزاعي، وكان أميرا على الحجاز، وهو أول من غير وأفسد دين إسماعيل بن إبراهيم، وسن للعرب عبادة الأوثان.

وقيل: إنه رأى قوما بالبلقاء من الشام يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذا؟ قالوا: هذه أرباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والأشخاص

البشرية، نستنصر بها فننصر، ونستقي بها فنسقى. فأعجبه ذلك، وطلب منهم صنما فأعطوه (هبل) كبير آلهة الجاهلية، فنقله إلى مكة ووضعه على الكعبة.

ثم استحضر صنمين يقال لأحدهما (أساف) والثاني (نائلة) ودعا العرب إلى عبادة الأصنام فأجابوه، وكان ذلك نحو سنة ٤٠٠ قبل الإسلام أو سنة ٢٠٠ بعد الميلاد. ثم انتشرت عبادة الأصنام في بلاد العرب وكان لهم في الكعبة وحولها نحو ٣٦٥ صنما، أكبرهم (هبل) صنم إله الشمس، وكان موضوعا على ظهر الكعبة، كما قدمنا، وكانوا يسجدون لكل هذه الأصنام، ولما شاعت فيهم عبادتها صار لكل قبيلة صنم خاص بها، بل صار لكل عائلة صنمها المخصوص.

ومن أصنامهم المشهورة: هبل، واللات، والعزى، ويغوث، ويعوق، ونسرا، وذو الحلقة وذو الكفين، وذو الشرى، وأساف، ونائلة.

ولما فتح مُحَمَّد ﷺ مكة، وجد حول الكعبة ٣٦٠ صنما، فجعل يطعن بسن قوسه وجوهها وعيونها ويقول: "جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا"!! وهي تتساقط على رءوسها، ثم أمر بها فكسرت وأحرقت.

وعباد الأصنام قاطبة كانوا يضعون الصنم في الأصل إشارة إلى معبود عبادة الأصنام غائب، فعلوا الصنم على شكله وهيأته، كما تخيلوه ليكون نائبا بدله وقائما مقامه. وإلا، فليس من المعقول أن إنسانا ينحت خشبة أو حجرا بيده، ثم يعتقد أنه إلهه ومعبوده كما سبق وقدمنا.

زعم قوم من العرب أن الشمس ملك من الملائكة لها نفس وعقل، وهم إذا طلعت أو غربت أو تساهت سجدوا لها وابتهلوا. وأصول هذه العبادة عن المصريين نقلها الكلدان والفينيقيون وعنهم أخذها العرب، وأما عبدة النار

فكانوا أشتاتا من العرب، وقد سرى إليهم ذلك من الفرس والمجوس، وكانت المجوسية عند العرب في تميم بن زرارة.

وأما الثانوية فقد أخذوا عن الزرادشتيين معتقده الذي اعتقدوا فيه بأن الصانع للوجود اثنان: ففاعل الخير نور، وفاعل الشر ظلمة، وهما قديمان أزليان.

وأما الزنادقة فكانوا بعض أفراد من قريش أخذوها عن الحيرة والأصل الزنادقة في الزندقة هي الثانوية، ومعنى الزندقة نفي وحدة الإله.

ومن العرب من عبدوا الكواكب وروحانيتها على زعمهم وهي عبادة عبدة الكلدان وهم الصابئة. والصابئة مأخوذة من صبأ أي خرج على الدين، وتقال أيضا بمعنى مال إليه. والصابئة هم قوم إبراهيم الخليل عليه السلام، وأهل دعوته، وهم فرق مختلفة: فصابئة حنفاء، وصابئة مشركون، وصابئة فلاسفة، وصابئة أحرار يأخذون بمحاسن ما عليه أهل الملل والنحل من غير تعبد بملة ولا نحلة. فأما الحنفاء الذين اتبعوا ملة إبراهيم، ويسمون أيضا الحنيفية ويقال لهم (الملة العظمى) ومعنى الحنفاء: الأطهار لأنهم يختتنون ويجتنبون الخبائث ويوحدون الله، وهذه هي الدعوة التي جاء بها إبراهيم الخليل جد الأنبياء، والتي كان لها من القوة والشوكة ما سمت به على جميع المذاهب الأخرى.

ومن الحنفاء خرج الموحدون، وهم المؤمنون بوحدانية الله فالباقون على شريعة إبراهيم وهؤلاء أفراد قلائل من قبائل متفرقة فهم: قيس بن ساعدة الأيادي، وورقة بن نوفل القرشي، وزهير بن أبي سلمى، وعبد الله القضاعي، وكعب بن لؤي بن غالب.

وأما المشركون، فكانوا في مبدأ أمرهم يعتقدون أن للعالم صانعاً مقدسا عن

النقص وهو إله السموات والأرض وإنما لا يمكن الوصول إليه إلا بواسطة، وهذا الوسيط يجب أن يكون روحانية، لا جسمانية، وذلك الذكاء للروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب. وهكذا ظل العرب شيعاً وقبائل لكل قبيلة معتقدها ودينها إلى أن جاء الإسلام وفتح المسلمون مكة فقضوا على كل تلك العبادات، وهشم محمَّد ﷺ أصنامها وأزالها من الكعبة، وأقر كلمة التوحيد.

الديانة الإسلامية

الإسلام دين الفطرة، وطلبة الروح، وهو أثبت الديانات على التوحيد وأحفظها للتنزيه، وأبعدها عن الشرك والتحريف، إذ لم تشب تاريخه من مبدئه شائبة الإشراك. ومن خواصه التي يمتاز بها عن غيره من الأديان عدم اعترافه بطبقة كهنة تحتكر شعائره، فعلاقة الفرد متصلة فيه بخالقه مباشرة ودون وسيط؛ فالأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى.

والإسلام دين يدعو بنبل طبيعته وشمول أحكامه إلى تغير فروع الأحكام بتغير ظروف الأزمان، وإلى طلب العلم ولو في الصين، ويدعو إلى "وأمرهم شورى بينهم" و"وشاورهم في الأمر".

أتى بالإسلام إلى الأمم كافة مُحَمَّد النبي العربي الهاشمي، مبشرا ونذيرا، ولم يدع أنه فوق البشر، وكذلك لم يذكر الله في التنزيل أنه كان شيئا غير إنسان.

"وما مُحَمَّد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل" – "إنما أنا بشر مثلكم" "فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم مسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر".

ولذلك حفظت سيرة صاحب الرسالة من شوائب الأساطير رغم المحاولات التي أريد بها الخروج بدين التوحيد عما أنزله الله في القرآن وفي السنة المطهرة من اليهود بالإسرائيليات وغير ذلك.

وقد نشأ الإسلام في وسط بدوي بعيد عن الثقافة والمدنية كما قدمنا، ولذلك كانت أحكامه أقرب إلى البساطة الفطرية ليستسيغها أصحاب القلوب

السليمة دون رموز أو طقوس، وهكذا عاش النبي الأمي وأصحابه حياة تواضع بعيدة عن زهو المدنية وبعد وفاته استن أتباعه سنته وأمروا بما أمر الله به، ونهوا عما نهاهم عنه.

والقرآن كتاب الله الكريم، أنزله الله على نبيه العربي بواسطة جبريل حامل الوحي: آيات بينات، وأخر متشابهات في مناسبات حاضرة ومستقبلة لحفظ الصحابة التنزيل (القرآن) عن التحريف، وكتب على الرقوق والعظام، وأمر أبو بكر زيدا بن ثابت بجمعه، فتم ذلك في عهد عمر. ولما اختلفت القراءات، أمر عثمان زيدا بكتابته وضبطه ففعل، ثم جمعت النسخ المتداولة وأحرقت، وأرسلت ثلاث نسخ مضبوطة للنقل منها، إلى دمشق وإلى البصرة وإلى الكوفة.

والقرآن يحوى **٦٣٢٥** آية موزعة على **١١٤** سورة، أرشد النبي الصحابة إلى طريقة تنسيقها ويقسم إلى أجزاء وأحزاب، وأرباع، وأعشار، وسجدات. وقد أنزل جزء منه في مكة فسميت سوره مكية، وأنزل الجزء الآخر في المدينة وسميت سوره بالمدنية.

والمواضيع التي يحتويها القرآن:

١- الإشادة بذكر الله وتوحيده، وتنزيهه عن النظير والشريك والشبيه وعن الزمانية والمكانية.

٢- دعوة النبي للناس كافة إلى التوحيد والتنزيه، أبيضهم وأسودهم وأصفرهم وأحمرهم، ملوكهم وعبيدهم وأغنياءهم وفقراءهم، لأنه أرسل كافة للناس ورحمة للعالمين.

٣- الحث على فعل المعروف كله والنهي عن المنكر كله.

٤- أخبار الأمم الغابرة وسير أنبيائها.

٥- قواعد الإسلام والإيمان والإحسان.

٦- التشريع الإسلامي وهو يحوي أصول الشريعة وفروعها.

حفظ الصحابة أقوال وأفعال التي دونوها عن رواية ودراية وإن كان قد وجد بعض من وضعوا في الحديث أحاديث من عند أنفسهم وأسندوها للرسول لأغراض شخصية، وقد فكر نفر عظم من علماء الحديث وحفاظه في تنقية الأحاديث وجمعها وتصحيحها بإسنادها إلى الثقاة رواية عن رواية حتى يحدث التواتر المفيد لليقين.

وأصح ما يكون الاعتماد عليه الآن: صحيح البخارى ومسلم. ثم بقية الكتب الستة وهي: أبو داود والترمذي وابن ماجه والنسائي.

فلسفة الإسلام

الإسلام دين مطلق، يأمر متبعيه بوحدانية الله، ووحدة المعتقد والإخلاص لله في العبادة وإطلاق الأخوة والحب بين سائر البشر أبيضهم وأسودهم، وقويهم وضعيفهم وفقيرهم وغنيهم.

وقلنا إنه دين مطلق، ومعنى ذلك أنه ينهى عن العصبية والتحيز، والتقليد والمغالاة، والمبالغة، مهما كان نوعها، ويؤلف بالتكريم والاحترام والإجلال بين جميع الرسل والأنبياء والكتب وبين كل صالح وتقوم عامل مستقيم.

وكذلك يسلم الإسلام بسائر الكتب المنزلة وما جاء فيها من الأحكام الإلهية التي لم يعكرها أو يشوشها تلفيق البشر!!

ومن خصائص الإسلام أنه لا يقوم على الجمود، ولا يعيش مع الجهل، ولا يتسع للخرافات، وهو يمتاز بحضه على تعلم العلم كفريضة على كل مسلم ومسلمة، واحترام تقدير العقل للحقائق والنظر في كائنات الطبيعة ومكنونات السماء وكذلك تدعيم ومبادئ العدل والحرية والمساواة، والتآخي، ومراعاة الحقوق والواجبات العامة والخاصة بين المسلم وغير المسلم وبين الأبيض والأسود والغريب والقريب.

وهو دين الدنيا والآخرة معا، فهو العقيدة، وبه العبادة، وعليه تركيز السياسة، وهو مستمد القضاء، ومعين التشريع، وبأحكامه توزع الأرزاق وتبادل المصالح وتستقيم المعاملات.

وهو الفيصل الحق الحكم بين الخادم والسيد، والحاكم ومحكومه، والملك ورعيته

وهو الوسيط الصالح بين الرجل وزوجه، وبين الابن وأبيه، وبين الشريك وشريكه.

وقل بوجه آخر إنه مدرسة جامعة تتسع لكل البشر، وتتطور فروع تعاليمها مع تطور العصور واختلاف الأزمنة والأمكنة، مع ثبوت أصولها ورسوخ قواعدها، فإن تطورت بعض تعاليم الإسلام لصلاحيته لكل زمان ومكان فإنما تتطور الفروع دون الأصول وذلك بحسب تطور المصالح المرسلة.

والمسلمون قوم حكم عليهم بمقتضى قواعد عقيدتهم وتشريع دينهم أن يكونوا أكثر الناس عدلا، وأوفرهم حيا، وأقواهم لدى الحق شكيمة، وأقومهم سلوكا، وأسعدهم معيشة، وأوفاهم عهدا، وأغزرهم علما وأغناهم مالا.

وألزموا في ملتهم بأن يكونوا حكاما وساسة وعلماء وروادا وعمالا وتجارا ومبشرين وأولياء وعبادا في وقت واحد..

وقد أمر الإسلام جميع المسلمين لا علماء الدين فقط بأن يكونوا دعاة آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، فالمسلم الحق، رجل إن تصورته الأرض تصورت شخصا عزيزا بإيمانه قويا بعدله، رحيما بوجدانه، وإن وصفته السماء، تصف لك متعبدا حكيما عارفا وعبدا شكورا لله منيبا!! "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"..

هذا وإن كان أكثرية المسلمين الآن على عكس ما اختط لهم رسولهم مُحَمَّد ﷺ ، واستهدف له القرآن من أهداف عليا، وقررت لهم شريعتهم من قواعد للإسلام وسنن.. تراهم، إذا شرق الإسلام غربوا، وإذا أقدم أحجموا، وإذا اتسع محيطه انكمشوا في الوقت الذي إذا صاح دينهم بالفلسفة العالية أجابته، وإذا استشهد بالعلم الصحيح أيده، أو بقواعد الاجتماع والتشريع العام لبته، وإذا دعي بعلم النفس والأخلاق مسجدا له، أو بالمدنية الصحيحة اعترفت

بفضله!

قد أحاط بالمسلمين في أزمانهم الأخيرة نطاق من الوهم بفخامة التراث الغابر، وهم قاعدون سامدون، وإذا تحرك أهل العلم للكفاح في تقرر الوجود الحر والكيان القومي، فهم لا يسمعون.

والعلة الحقيقية لذلك، هي الجهل بروح دينهم وما يهدف إليه من سمو ورفعة، ثم فتور قوميتهم في أنفسهم وتقليد قوميات غيرهم وإطراح وصايا كتاب ربهم، والتفريط في السنين الطيبة عن نبيهم مضافا إلى ذلك شيئا من دسائس الأعداء مع قلة الأنصار والحماة، وانصراف الأغنياء والأمراء إلى غير ما لهم من قومية ولآبائهم الأمجاد من مدنية، ثم تعليم الصغار على غير طريق هدى الإسلام، وتدريبهم على تلقي أنواع كثيرة من الجهل في صورة العلم واقتراف الفجور في مظهر التعدين والمجون باسم الأدب.

إشراق النور في الظلام، أو فضل تعاليم الإسلام

في وسط جزيرة العرب، وبين جبالها الشامخة وسهولها الواسعة: دوى قبل الإسلام صوت كلمة التوحيد، فتجاوبت له أصداء ربوع ووديان الدنيا بأسرها مؤذنة بميلاد عصر جديد ودين عام قويم وحضارة جديدة شاملة.

ظهر الإسلام، الذي يدين به حوالي ثلاثمائة وسبعة وسبعون مليون وخمسمائة ألف نفسا على تقرير إحصاء وقع في سنة ١٩٢٤، وهم الآن خمسمائة مليون نسمة ويزيدون، ظهر الإسلام في أقوام من العرب، وهم على ما وصفهم به التاريخ: في ليل داهم من الجهل والهمجية مبعثرين أيدي سبأ بين رمال أرضهم المحرقة وصحاريها المجدية، لا تربطهم ألفة ولا يجمعهم نظام، ولا يتحاكمون إلى قانون، ولا يعرفون دينا غير الوثنية وعبادة الأصنام والكواكب وغيرها،

فلا سلطان إلا للقوة ولا حكم إلا للسيف ولا صناعة ولا فن، اللهم إلا النهب والسلب ولا علم لهم سوى الأشعار والأنساب وبعض المعرفة بحركات النجوم للاهتداء بها في جوف الصحراء.

فأخرج الإسلام، بفضل تعاليمه القويمة وسننه الحكيمة وتشريعه الخالدة من العرب وهذا حالهم خلفاء زاهدين وحكماء قادرين وساسة محنكين وقوادا مدربين وعلماء متضلعين وأطباء مجربين وفلاسفة مشهورين وأدباء مبرزين.

وبعد أن انتقل العرب من حضيض الجهل إلى ذرا العلم، ومن ظلام الهمجية إلى دور المدنية ومن خشونة البداوة إلى رفه الحضارة: قادوا الجيوش، وهذبوا الشعوب، ومصروا الأمصار، واستولوا على دولتي الفرس والروم. وفي أقل من قرن كونوا مدنية غزت بعلومها الباهرة وفنونها الزاهرة سائر مدنيات الأمر، ورفعوا راية الإسلام على ربوع القارات الثلاث: آسيا وأوربا وإفريقيا، وهي الدنيا المعروفة إذ ذاك.

قال الأستاذ داروي أحد وزراء معارف فرنسا السابقين، عند وصفه الأمة العربية في إبان مجدها وأيام عزها:

وبعد أن ظهر النبي ﷺ الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة، تقصد مقصدا واحدا. ظهرت للعيان أمة كبيرة مدت جناح ملكها من نهر تاج في إسبانيا إلى نهر الكنج في الهند، ورفعت على منار التشييد أعلام الدين في أقطار الأرض أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات أهلها في القرون الوسطى.

ودخل السواد الأعظم من تلك الأمر المغلوبة، أفواجا في دين الإسلام أو تحت لوائه، لبساطة تعاليمه، وصراحة أحكامه، وكرم نفوس معتنقيه، وهرب من نير الرؤساء الروحانيين واستبداد الأمراء الظالمين فساس العرب هاتيك الأمم

على كثرة عددها سياسة رشيدة لم يعهدها التاريخ من قبل في أي أمة من الأمم أو مملكة من الممالك، حتى أن الملوك والأمراء الذين لم يغشاهم الفتح الإسلامي، قد قدموا أيديهم يخطبون ود الإسلام وأهله، ويبتغون الحياة الطيبة في ظله وتحت لوائه، وقد حبب لهم ما رأوه من سماحة الإسلام وعدل أهله وسرعة أثره في النفوس وبساطة تعاليمه وسمو مقاصده واستيفائه لحاجات التقدم والعمران ومساواته بين سائر أتباعه على تباين أجناسهم واختلاف نزعاتهم وإطلاق الحرية الدينية لغير متبعيه والتواصي بالخير والحق والتسامح معهم وحماية كنائسهم ومعابدهم ورهبانهم وعباده، وجعلهم من أهل الذمة التي لا تخفر والجوار الذي لا يهان ولا يحتقر.

كان كل ذلك يوم كان المسلم يمثل في شخصه عزة الإسلام، وحقيقة الإسلام؛ فكان مثالا للفضائل، وشاهد عدل على ما انطوى عليه الإسلام من المبادئ والتعاليم القويمة النبيلة التي تبعث على التضامن العام والألفة والتآخي واعتبار جميع أهل العالم عائلة واحدة أبوها آدم وأمها حواء وربها الله!!

ولا شك أن ذلك يرجع إلى الطريقة التي كانت سائرة يومئذ في تلقين مبادئ الإسلام واستقاء تعاليمه النقية وسلامة مصادره من الشوائب والحشو ومن الأهواء. ولكن سنة الدهر ودولاب الأيام، وشهوات النفوس، وحب الاستئثار بالسلطة، واستبداد القوى بالضعيف، وزيغ العلماء وتزلفهم للأمراء، وجهل العوام وتفريع التعاليم إلى فروع شتى، ونزوع نفوس الدخلاء في الإسلام من الأعاجم واليهود والمسيحيين وغيرهم إلى ما كانوا عليه قبل إسلامهم الأمر الذي أدى بهم إلى الوضع في السنة وتأويل آيات الكتاب إلى غير ما تدل عليه، وتخريجها على خلاف المقصود الإلهي منها.

كل ذلك مجتمعا، قاد أكثر المسلمين إلى الانحراف عن جادة دينهم الحقيقية

وإضعاف سلطانهم، وتمزيق قوميتهم، وانقسامهم على أنفسهم، حتى انسلخوا من حكم الله في كتابه عند قوله: "إنما المؤمنون إخوة".

وأخلدوا إلى الأرض، فتداعت عليهم الأمم من كل صوب وحدب، فاتحين ومستعمرين ومسيطرين، بما يملكون من حول وقوة وتضامن، منقضين عليهم انقضاض الذئاب على الحملان، وقد نال أولئك الفاتحون من ضروب المنعة والقوة ما يجعلهم طامعين فيما بقي في أيدي المسلمين من تراث آبائهم ومن مجدهم؛ فتمكنوا واستطالوا واستطاعوا بعد أن تم لهم ما ابتغوا من الحكم واستقرار الأمر والنهي لفتور المسلمين وغفلتهم واشتغال مجموعهم بما يضرهم ولا ينفعهم.

وتلك سنة الله في خلقه، وآيته في عباده: "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم".

وإليك طرفا من التفصيل يبين لك بنوع ما كيفية هبوط المسلمين من الرفعة إلى الحضيض، ومن العزة إلى الضعف، ومن السمو إلى الاستكانة.

حياة رسول الإسلام وأسلوبه في الدعوة إليه

قد عاش رسول الله ﷺ بين قومه ما شاء الله له أن يعيش داعيا إلى الله جادا في تبليغ رسالته متحملا للأذى، معرضا نفسه في سبيل دعوته لسائر أنواع الردى، هادما للأصنام محاربا للشرك، معتصما بكلمة التوحيد، عاملا على نشر ما أنزل إليه من ربه في القرآن من أحكام الإسلام وآدابه وحدوده وأهداف الكتاب وزواجره وعظاته، آخذا بالحكمة والموعظة الحسنة، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر، معرضا عن الجاهلين ومسالما لمن حوله ومن بعد عنه من أهل الكتاب، مقرا لما أنزل قبله من التوراة والزابور والإنجيل صائحا في الناس بلسان القرآن:

"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون".

فلم يدع ﷺ أمرا من أمور الدنيا ولا شأنا من شئون الآخرة إلا بينه ووضح حدوده وشرح أصوله وبين وجه الحكمة فيه وعبد السبيل إلى تطبيقه بأقواله وأفعاله، ثم وضع نظام الشورى وأسس الصول الحكم ومهد طريق التملك.

بيد أنه ﷺ، ما كان يريد بكل ذلك أن يكون ملكا أو أميراً أو مسيطراً ولكن كان عبداً شكوراً منيباً ورسولاً داعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا. أو كما وصف هو نفسه به حيث قال للمرأة العجوز التي أدهشها احترامه وتهيبت مخايل النبوة بين عينيه لما أرادت أن تكلمه فارتج عليها وكادت تخر ساجدة بين

يديه فقال لها:

"هوني عليك يا أماه، إنما أنا ابن رجل وامرأة آكل الطعام وأمشي في الأسواق"

ولما أراد العرب في مكة أن يضعوا حدا لما بينهم وبينه من النزاع الذي أوجبه التدافع بين التوحيد والشرك، وهان عليهم في سبيل ذلك أن يبذلوا له كل عزيز لديهم من ملك وسلطان وسيادة ومال أوفدوا إليه عتبة بن أبي ربيعة سفيرا لهم في ذلك جاء مُحَمَّدا وقال له:

("يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جمعهم، وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها".

فقال له رسول الله ﷺ: "قل يا أبا الوليد أسمع لك"..

قال: "يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا، جمعناه لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا وإن كان يأتيك رئي من الجن لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه".

قال: "أفرغت يا أبا الوليد"؟

قال: "نعم". فأسمعه ﷺ آيات من سورة السجدة وسجد، فقام عتبة إلى أصحابه بغير الوجه الذي ذهب به، فقالوا: "ما وراءك يا أبا الوليد"؟

قال: "وراءي أني سمعت قولا ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة. أطيعوني يا معشر قريش وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ وأي نبأ".

قالوا: "وسحرك يا أبا الوليد! لنجمعن أشراف كل قبيلة عند ظهر الكعبة ونبعث إليه"

ففعلوا فجاءهم النبي حتى جلس إليهم ﷺ فقالوا:

"إنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه الذي أدخلت،... إلى آخر ما قاله عتبة.

فقال: "ما بي ما تقولون.. ما جئت بما جئت به لأطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن بعثني الله إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا. فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم"

ثم أوفدوا إليه عمه أبا طالب وهو لديه بالمكان الموقر، فكلمه بمثل ما كلمه به عتبة فكان جوابه على كل ذلك: "والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر، ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه"!!

وما زال ذلك شأنه ﷺ من الزهد والتواضع واللين والشدة والكفاح والنصر والفتح، حتى أنجز الله وعده ونصر عبده، وجاءه الفتح المبين، وكانت كلمة الله هي العليا، وكلمة الشرك هي السفلى.

يقول توماس كارليل الإنكليزي ردا على بعض السفهاء من قومه يكذبون

محمَّدا في رسالته:

"هل رأيتم قط معشر الإخوان: أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا عجيبا؟ والله إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبني بيتا من الطوب، فهو إن لم يكن عليما بخصائص الجير والتراب وما شاكل ذلك، فما الذي يبنيه ببيت، وإنما هو تل من الأنقاض، وكثيب من أخلاط المواد..."

إلى أن يقول: "ما الرسالة التي أداها محمَّد إلا حق صراح، وما كلمته إلا الصوت الصادق الصادر من العالم المجهول.كلا.. ما محُمَّد بالكاذب، ولا بالمنافق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع"...!!

ولما أتم مهمته، وأبلغ رسالته، أنزل الله عليه: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا".

فعلم عليه الصلاة والسلام من ذلك أن المنية آتية وأنه لا شك مفارق الدنيا وأنه مقبل على الآخرة، فاطمأن لجوار ربه. وقد أمر أبا بكر الصديق أن يصلي بالناس أثناء مرضه بعد أن خطب فيهم خطبة الوداع.. خطب بها صلى الله عليه وسلم سنة إحدى عشرة من الهجرة وكان يوم جمعة حين خطب بعرفة وهو راكب على ناقته القصواء فقال:

"الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّدا عبده ورسوله. أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعة الله وأستفتح بالذي هو خير، أما بعد.. أيها الناس اسمعوا ما أبين لكم فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.. أيها الناس إن دماءكم

وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.. ألا هل بلغت؟.. اللهم اشهد.. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها.. ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ودماء الجاهلية موضوع وإن أول دم أضعه من هذا دم ربيعة بن الحارث وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير الحجابة والسقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا أو الحجر ففيه مائة بعير فمن زاد فهو من الجاهلية.. أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى أذلاء مما تحتقرون من أعمالكم. أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض، منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان.. ألا هل بلغت اللهم اشهد. أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا وإن لكم عليهن حقا أن لا يوطن فراشكم غيركم ولا يدخلن أحدة تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعظوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. أيها الناس إن ربكم واحد وأباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على أعجمى فضل إلا بالتقوى. أيها الناس إن الله قسم لكل وصية أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر ومن دعي لغير أبيه أو تولى لغير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا

بعدي إن اعتصمتم به كتاب الله وسنتي وأهل بيتي.. فما أنتم قائلون؟.. قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال مشيرا بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء ثم ينزلها إلى الناس اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات.

سير المسلمين بالإسلام ونقاط قوتهم وضعفهم

وبعد أن ذهب رسول الله ﷺ إلى ربه راضيا مرضيا: انتخب المسلمون أبا بكر خليفة له بعد خلاف لم يطل بين المهاجرين والأنصار، فصعد المنبر، ثم تكلم، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه، في أول خطبة له، قال: "... أيها الناس، قد وليت عليك ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه. والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له إن شاء الله تعالى. ولا يدع أحد منكم الجهاد فإنه لا يدعه قوم إلا ضربهم الله بالذل. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم.. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم".

وبعد أن قام بأمر المسلمين على الخلافة سنتين وثلاثة أشهر وأياما، كان فيها ردءا وحصنا للدين وحاميا لديار المسلمين، ورافعا لمنار الحق الذي جاءهم من عند الله، فأمات البدعة، وقطع لسان الفتنة وكبح جماح الردة، أحس بدنو أجله فعهد بالخلافة من بعده إلى عمر بن الخطاب، فقام عمر بالقسط، ففتح الفتوحات، ومصر الأمصار وأقر العدل في نصابه، ورفع أعلام الدين، وقوى شوكة المسلمين وسيج شريعة سيد المرسلين، وعاش على القناعة والزهد و ملازمة التقوى وابتغاء الآخرة، بالعمل في الدنيا، حتى بلغ من شدته على نفسه وإلزامها بمسئولية الخلافة أن قال:

والذي بعث مُحَمَّدا ﷺ بالحق، لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات، لخشيت أن يسألني الله عنه".

وانظر في مقالته لسعد بن أبي وقاص: "يا سعد يا ابن أم سعد: لا يغرنك من الله أن يقال خال رسول الله وصاحب رسول الله، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته فالناس في دين الله سواء وهم عباده، يتفاضلون عنده بالعافية ويذكرون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت فيه رسول الله ﷺ يلزمه فألزمه".

وبعد أن قام بالأمر عشر سنين وستة شهور، قتل وله من العمر ثلاث وستون سنة. وقد جعل أمر الخلافة قبل وفاته بين ستة من الرجال وهم على، وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله. وكان معهم عبد الله بن عمر الذي قال له أبوه "تحضر جماعتهم للشورى وليس لك من الأمر شيء".

ووقع اختيارهم على عثمان بن عفان، وبعد أن قام بأمر الخلافة اثنتي عشرة سنة كان فيها عاملا على تخليد مجد الأمة، وجمع القرآن، ونشر راية الإسلام، وتوسيع فتوحاته قتل في ختام السنة الخامسة والثلاثين من الهجرة.

ثم وقع اختيار الصحابة على علي بن أبي طالب فأبى وقال: أكون لكم علي بن أبي طالب وزير أخيرا من أن أكون لكم أميراً، ومن اخترتم رضيته، فألحوا عليه قائلين: "لا نعلم أحق منك، ولا نختار غيرك". فقبل وذهب إلى المسجد، فبايعه أكثر الناس، ولم يبايعه بعضهم، وقتل ﷺ في سنة أربعين من الهجرة، بعد أن قام بأمر الخلافة خمس سنين إلا ثلاثة شهور. كان فيها مثال الزهد والعدل والرحمة والتمسك بأصول الدين وفروعه القويمة، لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا أقرها وعمل على تنفيذها. وكان ﷺ أبعد الناس عن الدهاء

واللؤم وخداع السياسة وأكاذيبها، فيحكي المسلمون بموته إماما لم تطل أيامه المفعمة بالدين والملاحم والنوازل، آسفين على ما كانوا يؤمنون من شد عضده الملة السمحاء والشريعة الغراء، بشخص فارس الأمة وعالمها وحكيمها وفصيحها الذي لا يغالب ولا يطاول، فكان كرم الله وجهه رابع الخلفاء الراشدين وثالث المستشهدين. وبعد أن نال المسلمين من الجزع والحزن على فقد ما نالهم، وقع اختيار الكوفيين على ابنه الحسن وجعلوه خليفة.

وانفرد معاوية بالشام ومصر وجزيرة العرب، ولما علم الحسن أن أمر المسلمين لا تقوم له قائمة مادامت الفتنة حاضرة، آثر حسم الخلاف واجتماع الكلمة وتنازل عن الأمر لمعاوية رحمة بالمسلمين وحقنا لدمائهم بعد خمسة أشهر من خلافته، وارتحل بأهله إلى المدينة وأقام بها.

ولما لم يكن معاوية يعبأ بالشورى وشرائط الخلافة، ولا بإجماع أهل الحل والعقد، استبد بالأمر، واجتذب الخلافة إلى نفسه وجعلها ملكا عضودا يورث، يؤيده في ذلك عمرو بن العاص طمعا في نصيبه من دنيا معاوية.

وأوجب على الناس طاعته بقوة السلاح، وصير أمر الخلافة وراثيا في بيته وقومه ومهد لابنه يزيد من بعده، وفعلا أخذ البيعة له بالإكراه، فأعطى السيف من استعصى عليه، وبذل المال لمن مد إليه يده حتى مكنه من خلافة لا يصلح لها، بعد أن صيرها ملكا عضودا ودولة استبدادية، فخرج عليه الحسين بن علي بن أبي طالب حين ذلك بالكوفة وعبد الله ابن الزبير بمكة، فكان من ضروب الفتن والإرهاصات وألوان القسوة ما تقشعر له الجلود وتذوب من هوله القلوب.

ثم استقر الأمر لبني أمية حينا من الدهر إلى أن ظهر دعاة بني العباس، فأوغلوا في خصومهم الأمويين فتكا وتنكيلا، وما زالوا كذلك حتى أسند إليهم

الأمر بفضل أبي مسلم الخراساني وشدة دهائه وعظيم خداعه وسواعد رجاله من الفرس الذين صارت الخلافة الإسلامية ألعوبة في أيديهم حينا من الدهر.

ولم ينس العباسيون ما كان للفرس في إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين من الفضل فمالوا إليهم واتخذوهم بطانة ووزراء وأمناء، واعتمدوا عليهم في سائر شئونهم، وأعدوا لهم أرفع المناصب في الدولة، فعلا مركزهم وراشوا وتأثلوا، وقويت شوكتهم وامتدت سلطتهم حتى صار الأمر والنفوذ لهم في الباطن وإن كان الخلفاء من بني العباس في الظاهر.

والأعاجم وهم من تعلم: ليسوا من حقيقة الإسلام في شيء إلا من اتقى، ومنهم المانوية واليزيدية والباطنية والدهرية. فلما استتب لهم الأمر، وصارت السلطة المطلقة في أيديهم، وأمنوا جانب مواليهم العباسيين أخذوا ينفثون في المسلمين سموم تعاليمهم وأساطير أديانهم القديمة، وصاروا يتوددون إلى من يصبو إلى آرائهم هذه المنحرفة، من العلماء وأوساط الناس وسوادهم حتى تضعضعت العقائد، وانتشرت الزندقة، وظهرت الفرق المتعددة، وأصبح كل يدعو إلى رأيه ويؤيد مذهبه. واشرأب التعطيل، واندلعت ألسن الشبه والفتن، ولم يكن الغرض من كل ذلك سوى تقويض دعائم الإسلام وإيجاد التفرقة بين المسلمين.

فإن كان من أهل الحق المحافظين على نصوص كتاب الله وسنة رسوله اضطهد وعذب وقتل. ومن كان زائغا منافقا ذا مآرب خاصة واستعمل الرياء والنفاق في سبيل الوصول إلى غايته عظم وارتفع. حتى أن الإمام مالك ﷺ، وهو من علمت رفعة شأن وجلال علم، وعزيز تقى: قد ضرب في أيام المنصور العباسي لقوله: ليس لمكره يمين.

وعرضت ولاية القضاء على الإمام أبي حنيفة فأبى فحبس وعذب حتى مات، وكاد هارون الرشيد يبطش بالإمام الشافعي ﷺ، بتهمة أنه يميل لأولاد

سيدنا علي. كما أن المعتصم أمر بضرب الإمام أحمد بن حنبل وحبسه لإنكاره القول بخلق القرآن، وحكاية ذلك معلومة مشهورة؛ فأضحى كل مقصد علماء ذلك العصر التقرب من الأمراء والحكام، ولو بتشويش علوم الدين وهدم شريعة المسلمين؛ فظهرت البدع والخرافات، وراجت الأحاديث الموضوعة، وتضخمت بها بطون الكتب، وتشعبت الآراء وكثرت الخلافات، واتسعت التآليف والشروح والهوامش في الفقه وأصول الدين وعلم الكلام بأسلوب يشبه الألغاز والأحاجي، ويستعصي على الفهم لما فيه من ضروب الاصطلاحات الغريبة والمتناقضات الشتيتة؛ فأصبحت لا تروي ظمأ ظمآن إلى حقيقة العلم بالدين، ولا تهدي حيران إلى سواء السبيل، وإنما تشوه الأذهان وتبلبل الأفكار.

وما زال المسلمون يسكرهم ما هم فيه من العز الغابر ويبطرهم الغنى، وتميت من هممهم الرفاهية الغريبة عنهم والداخلة عليهم وتحد من قوتهم رقة تدينهم، وتخفض من شوكتهم ضعف يقينهم، حتى دهمتهم جيوش الفرنج باسم الحروب الصليبية، وجيوش التتار بدافع الطمع والوحشية

وهكذا أخذ المسلمون في الانحدار دركة فدركة حتى ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وخيم في ناديهم الفقر والجهل. "وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون"!!

ولولا أمل في مؤدى آية وردت في القرآن، ويقيننا أنها ستحقق في مستقبل الأيام للمسلمين مجدا وعزا ورفعة، لحكمنا باليأس العام.

وكأن الله سبحانه وتعالى، بهذه الآية وأمثالها يغرس الأمل في نفوس المسلمين بعز مدخر للذين سيكونون شهداء على الناس يوم القيامة، ويكون الرسول عليهم شهيدا، وتلك الآية الكريمة هي قول الله تعالى:

"وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا" ومعنى الآية واضح. وكأن المسلمين في عصرنا لما نزل بهم من النوازل والنوائب قد تناسوا سماحة دينهم ورجاحة شرعهم وعصمة كتاب ربهم، ومجدهم السالف وتاريخ أمتهم المجيدة التي حملت لواء الدين والدنيا والعلم وغرست أصول المعارف في سائر ربوع الأرض من قبل!!

على أن الإسلام نفسه لم يتأثر بتضعضع أبنائه وتفكك وحدتهم السياسية ووهن روابطهم الدينية والاجتماعية، وظل سائرا في طريقه إلى الأمام بأقدام ثابتة وعزم لا ينثني ولا يحيد، وهو يتلقى طعنات أبنائه وأعدائه على السواء بصدر رحب وحلم واسع، معتمدا على دعائمه الشماء وأصوله الثابتة.

وما أوشك الإسلام أن رأى دولته تنتقص من أطرافها في الشرق حتى انتقل بمجده وروعته ولألاء إنسانيته على أيدي بعض أبنائه الشجعان إلى الغرب؛ فأسس بفضل تعاليمه الخالدة في الأندلس ملكا عريضا ودولة عظيمة، تزيد في العز والمدنية على أختها في بغداد أيام صولتها..

ومازال المسلمون هناك في تقدم حتى انتشر الإسلام في سائر ربوع الأندلس، وأينعت الحضارة العربية وأشرقت المدنية الإسلامية إشراقا بينا قسمت منه أوروبا في عصورها المظلمة ما أضاء عقول كبار المفكرين من أهلها. ونهلت من مورده أم الغرب من المعارف وما بعث الحياة والتقدم والعلم في نفوس ملوكها ورعاياها. فنقلوا إلى بلادهم من مختلف الفنون والصناعات والعلوم التجريبية والفلسفات النظرية ما ترى أثره إلى الآن في نهضة الغرب ومدنيته.

وما زال ملك العرب في الأندلس وطيدا وعزه عريضا، والإسلام هناك

رابضا آمنا، حتى دب في عرب الغرب من الشتات والتنابذ والتحاسد بدسائس الأعداء ولاتساع السلطان والمنافسة على الملك، ما شتت شمل إخوانهم في الشرق، فوهن عزمهم وضعفت صولتهم، وتقسم ملاك الإسلام هناك إلى دويلات صغيرة لكل عاصمة أو ثغر أمير، وعلى كل جماعة ملك يدعونه بأمير المؤمنين!!

وفي الوقت الذي كان ملك العرب يتقلص من الغرب، كانت دولة العباسيين قد تحللت تماما في الشرق، وأسست على أنقاضها دولة الفاطميين في مصر وورثت بقاياها أحفاد المغول من الأتراك الذين مكن لهم العباسيون بأنفسهم في ملكهم كما مكنوا للفرس من قبلهم، فكانوا في ذلك كالذي بحث عن حتفه بظلفه.

وأخذ الفاطميون والأتراك يقوضون من دعائم الإسلام، ويعملون على تحطيم أصوله وتشويش فروعه يفعل الأولون، بتشيعهم وتحزبهم، والآخرون بصلفهم وتعصبهم، بينما كانت أوروبا آخذة في النهوض والاكتشاف وتدوين العلوم وتأسيس الصناعات، وتطبيق الفنون والعلوم التي اقتبستها عن المسلمين في الأندلس في عصر النهضة الأدبية على التجربة والعمل، وتنظيم الجيوش وبناء الأساطيل.

ولما لم يجد أهل أوروبا منصرفا لتلك القوى والاستعدادات الهائلة في بلادهم، وكانوا قد أوغرت صدورهم على الإسلام والمسلمين سلسلة الحروب الطويلة التي أجج نيرانها متعصبو الأتراك وغلاة الدينيين من الأوربيين، تحت اسم الكفاح بين الصليب والهلال أضمر الغرب للعالم الإسلامي ابتلاعه وتقسيم بقاياه غنيمة باردة ولقمة سائغة.

ومما ضاعف ذل المسلمين وزاد في بلاهم وساعد على تأخرهم وجموده قوم

من المتأخرين جعلوا مذاهب الأئمة رضوان الله عليهم، وهي اجتهاد في الفروع – مع حفظ الأصول – وضعوها للتخفيف والرحمة بالأمة ورفع الحرج عنها، جعلها أولئك الذين قفلوا باب الاجتهاد أصولا يرجع إليها في سائر العبادات، والمعاملات، وأخذوا يتفننون في فرض المسائل الدينية التي لم يقع أغلبها بالفعل، واستنباط أحكامها من تلك المذاهب ويتوسعون في وضع الحواشي والشروح والتفريعات والهوامش حتى صيروا من ذلك عين المسلمين وبين أصول دينهم سدا منيعا من التقييد، يمنعهم من الرجوع إلى فصوص من القرآن رجوعا حرا، ومنعهم من الاستمداد الصحيح من هدى السنة في أحكامهم و قضاياهم ومن الاستضاءة بنور العقل والعلم في سائر شئونهم.

ولما أن طابت لهم هذه الطريقة، وأراحتهم من متاعب الاستنباط والرجوع بأصول المسائل الدينية إلى كتاب الله وسنة رسوله والرجوع في مسائلهم الدنيوية إلى العلم الصحيح، قالوا بقفل باب الاجتهاد مطلقا ووجوب التقليد دون مسوغ اللهم إلا من الضعف والجهل عدا من رحم ربي من أهل الوعي الإسلامي الصحيح فران ذلك على عقول الناس، وقد قفل باب النظر في أصول الأحكام في وجوههم، ولم يغن أكثر المسلمين انتسابهم للإسلام بالاسم وظواهر الأعمال دون المعنى والروح.

وقد تكدرت مناهل الدين بالإضافة والحشو وتفرعت مسائله وأرغم الناس على التقليد في عباداتهم ومعاملاتهم، بل وفي عقائدهم. وما زال المسلمون على هذه الحال حتى اتصل أهل الشرق بأهل الغرب اتصالا تاما، وجعلت سيول الوافدين من الغربيين على الشرق بقصد الفتح والاستعمار أو التجارة أو الاستشراق أو التبشير، تزداد اتساعا، واختلط الحابل بالنابل وقد أوشك الشرق أن يصبح في ليل حالك من الحيرة والشك وضياع المبادىء واختفاء

الفضائل، لاستبداد الرؤساء وإهمال التعاليم العامة وتناقص العلماء والمخلصين.

ولما رأى أهل الشرق وقد تناسوا مجدهم الخاص أن عند أهل الغرب علوما وفنونا محدثة ومظاهر براقة من أشكال المدنية الخادعة، أسلموا قياده إليهم، واندفعوا يقلدونهم في كل شيء تقليدا أعمى، حتى فيما حملته المدنية الأوروبية بين طواياها من ضروب الإلحاد والإباحة والزنا واليسر والخمر، وغير ذلك ما يفسد الأخلاق ويهدم العقائد؛ فابتعد أكثرهم بسبب ذلك عن مزايا دينهم وفضائله وهدي قوميتهم ابتعادا مريعا، ولا تنس المدارس الأجنبية والتبشيرية الموجهة لغير الوجهة الإسلامية!!

وأنت تعلم أن المسلمين لم يرتفع مجدهم، ولم يتوطد سلطانهم، ولم تقم معاملتهم الدنيوية والأخروية، إلا على ما استمدوه من كتاب ربهم الكريم ودينهم الحنيف الذي أوصلهم إلى شأو بعيد من العدل والحرية والاشتراكية الروحية في ظل الإيمان والكمالات المادية والمعنوية، مما لم تبلغه أمة من الأمم الأوربية في أي عصر من عصور حضارتها ومدنيتها.

وتعلم أيضا أن الصحابة رضوان الله عليهم، والتابعين لهم كانوا يستنبطون أصول الدين وفروعه من القرآن، ومما ثبتت صحته من السنة ثم يحكمون العقل مع التسليم بفضل الوحي، في تفهمها وتطبيقها على شئونهم الدنيوية والأخروية، ويجتهدون ورائدهم الاستنباط والقياس معاً فيما لا يجدون فيه نصا صريحا أو حكما ظاهرا. وإن اختلفوا في شيء ردوه إلى الله ورسوله، كما أمرهم سبحانه وتعالى في قوله "فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا"

ثم جاء التابعون فأخذوا بهذه الطريقة، ثم تبعهم على ذلك الأئمة رضوان الله عليهم فدرجوا على هدي النبي وأصحابه في الأخذ عن الكتاب والسنة ثم

الاجتهاد وتحكيم العقل.

ولما تخلف المسلمون عن هذه الطريقة واستبدلوا النظر بالتقاليد والعلم بالجهل وفضلوا الهوى على الرأي واستحبوا العمى على الهدى: قل إيمانهم، وفترت همتهم، وضعف أخذهم بأحكام الوحي أو العقل وماتت فيهم الشجاعة الأدبية.

أعقب ذلك أن طوقهم نطاق هائل من سلطان المستعمرين وسلطتهم الدنيوية ومطامحهم الاستعمارية (وشيكاتهم) المالية هبة أو أجرا خبيثا. وما فتئ المسلمون لجهلهم وخمود قوتهم الذاتية ولضعف تمسكهم بدينهم: يساعدون الطامعين في بلاده على التحكم في رقابهم وأموالهم ويخربون بيوتهم بأيديهم!! حتى جاءت الحرب العالمية وكانت وعود ساسة الأوروبيين الخلابة وتعهداتهم الزائفة الشرقيين ومعاهداتهم المموهة التي لم يقوموا بشيء منها، وقد خدع المسلمون في عقر دارهم، وأسقط بأيديهم، وجيوش الاستعمار والتملك الإقطاعي تزيد في الإجهاز عليهم، مكافأة بالسوء على المساعدات التي بذلوها الله والدماء التي أريقت في سبيل إعانة الحلفاء على أعدائهم طمعا في نوال الحرية والحصول على نعمة الاستقلال، ولما لم يتم من هذا شيء قط.

ولما رأى المسلمون، بعد ذلك أن شيئا من ذلك لم يحقق وأن تلك المواثيق والتعهدات إنما كانت ضربا من الأكاذيب السياسية والخدع الاستعمارية، وأنهم غلبوا على أمرهم وانقسموا متحيزين لا يهتدون لوجه الخلاص، ولا يملكون لأنفسهم حرية في ديارهم ولا تصريفا لشئونهم:

استنقلوا نير الغرب واستبداده، وسئموا عهوده ومواعيده ومواثيقه واستفظعوا تقسيمه لبلادهم وإفطارهم وجعلها نهرا مقسمها بين دولة وأخرى؛ فاضطرم في قلوب المسلمين ثوران هائل، أيقظ في نفوسهم الأنفة الإسلامية

والعزة العربية، وإباء الذل والتي بعد ما نامت تلك الخلال الكريمة قرونا طويلة.

والمسلمون الآن يبلغ عددهم ٥٠٠ مليون نسمة وقد أبلغ أخيرا بعض المصادر الأوروبية عدد المسلمين في العالم إلى ٧٤٠ مليون نسمة، وهم منتشرون في جميع أنحاء الأرض وسائر أقطارها. وقد شاء ربك أن لا تخمد للإسلام جذوة، ولا تنضب له حياة ولا تدوم على العرب غفوة، فإذن قلب العالم الإسلامي يفور ويهتاج في فوران عظيم ويجيش بمختلف أفكار الإصلاح والنهوض، يريد أن يمزق رداء الخمول الذي ألبسه إياه الجهل والرضوخ للذل وينفض عن ظهره أثقال الاستعمار ويحطم أغلال المستعمرين والمسيطرين.

فاستجاب الله للعالم العربي الإسلامي تلك الهمة وشمل برعايته هذه الوثبة فانتدب الرسالة من مصر زعيمة العالم الإسلامي العربي في يوليه سنة ١٩٥٢، فريقا من أفراد قلائل ومن صفوة أبناء جيش مصر وجنوده البواسل، انطبق عليهم قول الله تعالى: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" فقامت على أيدي تلك الفئة القليلة من أبناء مصر الأحرار الثورة المناهضة التي بدأت بتحطيم قيود الاستعمار والتحريرين: الخارجي بإجلاء المستعمر، والداخلي بطرد بقايا الإقطاع التي جثمت على أنفاس البلاد واقتطعت أراضيها ولم تترك لأبنائها الأصليين من الأرض إلا قراريط ضئيلة.

ولا بدع فإن الله قد أراد أن ينهض الإسلام والعربة نهضتهما المجددة من مصر، وفي قلب مصر التي هي حصن الإسلام وموئل العرب في أيامنا وزعيمة النهوض العربي الدائم، وأخذت شمس الاتحاد والتضامن في العالم الإسلامي والعربي جميعا تظهر في سماء الشرق والغرب رويدا رويدا مظهرا جديدا يبشر بالآمال التي تضمنها كتاب الإسلام للمستقبل، وكانت أولى تلك البشائر أن اتحد أقوى وأعظم شعوب العرب تحت جمهورية موحدة هي الجمهورية العربية

المتحدة.

هذا وأما الإسلام فقد أخذ ينتشر انتشارا فائقا بين أمم أوروبا وأمريكا وغيرها من الشعوب، مبرهنا على أن جذوة حياته لن تخمد وينبوع قوته لم ينضب، وأنه لا ينافي في جوهره روح العلم والعقل والمدنية الصحيحة في كل زمان ومكان.

وقد أخذ المسلمون يثوبون إلى رشدهم ويدركون أن لا رقي لهم إلا باتباع مبادئ دينهم وتشريع رسولهم، وباتحادهم في الخير مع سائر أبناء الإنسانية، وإزالة الفروق والتعصبات من بينها. ووضع السلام والأمن في ربوعها، كما أمر بذلك كتاب ربهم وأوصى به نبيهم وما كان عليه سلفهم الصالح.

وفي طبيعة الإسلام واتساع مجال تشريعه، الصلاحية للدين والدنيا معا، وسيكون هو في المستقبل إن شاء الله شعار التطور والترقي والتمدن الحق والسلام العالمي في أنحاء الأرض جميعا، وما جئنا بشيء من عند أنفسنا فذلك كله متضمن في قول الله تعالى:

"قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون". وقوله: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله"..

الانقسامات بعد موت رسول الله

لما استقام للمسلمين الأمر في الملك بعد أن صارت الخلافة الدينية ملكا دنيويا عضودا وفتحوا البلاد والأمصار وصارت جيوشهم شرقا وغربا وكتب لهم

النصر، وعنوا بنشر دينهم بعد أن أقاموا دولة إسلامية عظيمة السلطان صارت جيوشها شرقا وغربا: من المحيط الأطلسي إلى حدود آسيا فغزوا وانتصروا وتملكوا، ولما استتب لهم الأمر واستقر بهم الملك توجهوا إلى القرآن يفسرون آياته ويتفهمون مفاهيمها ويتفقهون معانيها اضطرهم ذلك إلى استنباط أصول أحكامهم الشرعية وفروعها، وكذلك احتاجوا لتدوين الأدلة الأصولية ليستنبطوا منها الفروع العملية، وكانت قدوتهم في كل ذلك آيات القرآن وما صح عن الرسول من سنة أكيدة.

ولما كان القرآن مشتملا على آيات متشابهات فضلا عن الآيات المحكمات كان من شبه الطبيعي أن يختلفوا في تفسيرها إلى فرق، فمنهم من أخذ بظاهر التنزيل ومنهم من لجأ إلى التأويل وكانت لهم وراء ذلك بحوث دينية أخرى كالبحث في الصفات ومعانيها ومنها الكلام والجبر والاختيار والحكم على فاعل الكبيرة وغير ذلك من المسائل التي سنذكرها فيما بعد.

وبسبب هذه القضايا الكلامية وأسباب أخرى من التنازع على الملك وشرائط الخلافة وغير ذلك، انشق الخوارج على أثر الخلاف بين على ومعاوية وفي مقابلهم الشيعة الذين تشيعوا لعلى ضد معاوية والعثمانيين الذي تشيعوا لمعاوية مطالبين بدم عثمان، وعن الشيعة خرج القائلون بتحرير الفكر وبوجوب التأويل وهم المعتزلة كمعارضين لأهل الظاهر الآخذين بظاهر نصوص الكتاب دون تأويلها وتسمى الفريق الأول بالمعتزلة لاعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصري وسيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله.

ومن بين هؤلاء وأولئك، برز الأشاعرة كمعتدلين ومتوسطين بين الظاهرية والمعتزلة رحمة بجموع الأمة ومحافظة على إجماع صالح يكون له الرأي في كل خلاف ينجم بين المتمسكين بحرفية النصوص القرآنية والأولين لها أولئك الذين

تطرفوا حتى قالوا بخلق القرآن، ولما قامت الدولة العباسية على يد أول خلفائها المنصور وكان محبا للعلم وأهله، وقد عظمت الحضارة الإسلامية واعتنق الدين الإسلامي كثيرون من علماء الأمر وحكمائها واختلط العرب بعلماء الأعاجم واليونانيين، وجد العلماء في دراسة الثقافة النارية الإغريقية وعذرا بنقل كتبها إلى اللغة العربية فترجموا كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وجليانوس وسواه وأعملوا فيها شرحا واختصار أو تعليقا وشجعهم على ذلك أن كان الخلفاء العباسيون بالعلم شغوفين، مما حث المجتهدين من العلماء على النقل والترجمة وكان ضمن المشتغلين بالفلسفة مفكرون من رجال الدين الذين أرادوا التوفيق بين عقائده والنظريات الفلسفية بحجة الدفاع عن تلك العقائد بنفس منطق كل من أراد مهاجمتها من فلاسفة أو زنادقة أو دهريين، وكان من أولئك أيضا المعتزلة والشيعة والخوارج لأنه اختلفوا فيما بينهم كما تقدم وكأنه فرقوا دينهم شعا. وكان من جراء هذا الاختلاف أن خاف جمهور المسلمين من الفلسفة ومن التشيع معا، ووصموا كل من اشتغل بمثل هذه المسائل بالخروج عن سبيل جماعة المسلمين، وزاد الأمر تعقدا أن بعض الزنادقة والمشككين أقحموا أنفسهم في عداد أهل الفلسفة، واتخذوا من حرية الفكر الفلسفي وسيلة لنشر زندقتهم ومروقهم.

نقول قد انتهز أولئك الفرصة السانحة وارتكبوا كثيرا من الجهالات والمنكرات التي لا يقرها العقل ولا الدين فأساءوا إلى الفلسفة وإلى الدين معا، ولكن ذلك لم يمنع بعض أهل المواهب المعتدلين من المفكرين المسلمين أن يشتغلوا بالفلسفة فنبغ منهم من سيأتي ذكرهم في المجلد الثاني الخاص بالفلسفة إن شاء الله.

وأما الشيعة الذين اشتغلوا بالفلسفة فألفوا جمعية سرية سموها جماعة

إخوان الصفا ووضعوا باسمها جملة رسائل فلسفية مشهورة تحت اسم "رسائل إخوان الصفا"، وإزاء هذا وذاك قامت طائفة من علماء الشريعة للتطوع في الدفاع عن الدين ودعم عقائد المسلمين، فكان من الضروري لهم أن يدرسوا أصول المنطق ونظريات المذاهب الفلسفية، وأنشأوا له علما إسلاميا خاصا وسموه علم الكلام، وأولئك هم الذين سماهم الناس فيما بعد بالمعتزلة. ثم تفرع منهم بعد ذلك الأشاعرة كما تقدم وبعض المتصوفة، وكان من أشهر الذين ناضلوا عن أصول عقائد الإسلام بلغة الفلسفة والأدب وحاكم الشيعة وناقش المعتزلة ومال إلى الأشعرية، ثم انضم إلى أهل التصوف الحسن البصري والإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله عنهما. ثم نشأت طائفة أخرى تطرفت في مذهبها هم أهل الظاهر من الفقهاء وادعوا أنهم خشوا على الدين من الفلسفة فحملوا على أهل الفلسفة حملة عنيفة في الشرق والغرب حتى صار كل من مال إلى درس الفلسفة يفضل أن يدرسها سرا. واستمر الحال على ذلك حتى كانت غارة هولاكو (٦٥٦ هـ) وقد أسرف في قتل العلماء والأشراف والفلاسفة ودمر دور الكتب وجميع ما اشتملت عليه من علم فألقاه جميعا في نهر دجلة واتخذ منها جسرا يمر عليه الناس مشاة وركبانا.

هذا في الشرق، وأما في بلاد المغرب فقد انتقلت الفلسفة وانتقل العلم على أيدي العلماء الذين كانوا يرحلون إلى بلاد المشرق طلبا للمعرفة كالكرماني والقرطي الذي حمل إلى الأندلس رسائل إخوان الصفا وعرفوا بعد ذلك كتب أفلاطون وأرسطو فتبين منهم عدد عظيم كابن حزم الأندلسي صاحب كتاب الفصل بين أهل الملل والنحل، وابن باجة السرقصي المعروف بابن الصائغ، وابن الطفيل صاحب رسالة حي بن يقظان، ومن تلاميذه أبو الوليد مُحَمَّد بن رشد أشهر فلاسفة الأندلس وفقهائها، وفي الواقع أن القرآن كتاب المسلمين

جاء حاثا على المعرفة محترما للعقل والحرية وملزمة أهله بالتفكير في خلق السموات والأرض؛ فكان ذلك من الأسباب التي تحرم الجمود والتقليد على اتباع شريعة القرآن.

وقد نعى القرآن على المعتقدات الموروثة ووبخ على الجمود الفكري والديني تقليدا بغير ما تفكر أو تدبر أو استهداء بعقل أو وحي حتى قال فيهم: "وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون"، وبمثل هذا أو غيره من تأييد القرآن لأحكام العقل ومحاربته للجمود الفكري والتقليد الأعمى فتح الإسلام المسلمين أبواب التعقل والتدبير والحرية الفكرية الأمر الذي خالف به الإسلام كل دين قبله حيث أن رجال الديانات للديانات نفسها قد حظروا على اتباعهم عرفان أسرار الدين ومعانيه الخفية أو استعمال العقل في تفسير الكتب أو تأويل معانيها ومن يلقي نظرة ممعنة على آيات القرآن الدافعة على التدبر والتفكر يتضح له أن هذا الكتاب الكريم هو أول أسباب تغلغل التفكير الفلسفي في البيئات الحربية الإسلامية فيخال له أن القرآن قد فرض التفلسف العقلي على اتباعه فرضاً وأوجب عليهم التفكير في أسرار السموات والأرض وجوبا رغبة أن يتصلوا من هذا التفكير إلى معرفة الخالق الأعظم والمبدع الأول الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وتلك النتيجة التي صرح القرآن بأنها فطرية في الإنسان هي الأمر الأول الذي تحاول الفلسفة بالتفكير العقلي الوصول إليه بمذاهب ما وراء الطبيعة لأن النظر في الطبيعيات على مذهب القرآن بفكر مستقيم ومنطق سليم يؤدي حتما في نتائجه إلى وجوب النظر فيما فوق الطبيعة من أسباب المعرفة الحقة. وتكون النتيجة الثانية معرفة واجب الوجود ومبدعه وسببه الأول الذي لا شريك له

وذلك هو غرض الدين والفلسفة في وقت واحد. وفي الخبر "إن أول ما خلق الله خلق العقل . وقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال بعزتي ما خلقت أعز علي منك فبك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب". وفي الشريعة الإسلامية أنه إذا تعارض حكمان بين العقل والشرع أول ما في الشرع من نص لصالح العقل وذلك لقول الله تعالى "وما جعل عليكم في الدين من حرج".

ونكتفي في هذا المقام بنقل آية أو آيتين من آيات القرآن يستدل منها على كيفية تعظيم الإسلام للعقل وتحرير الفكر ليفكر حرا في خلق السموات والأرض حتى يتبين له الحق. وذلك مثل قوله تعالى "إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب". "أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب" "هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك الآيات لقوم يتفكرون". "وسخر لكم الليل والنهار والشمس والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون".

ولما كثرت الترجمة على يد المأمون العباسي تحت زعامة حنين بن إسحق نبغ في مكتب حنين مدير دار الحكمة المأمونية من ذكرنا ومن لم نذكر من المترجمين والنقلة.

اختلاف وجهات النظر في مدلولات قواعد الدين

أساس كل دين عقيدته وأحكامه، والإسلام – وقد جاء يعارض ويحارب عبادة الأوثان التي سادت العرب ويصحح الانحرافات والأساطير التي أضافها

كهنة الديانات قبله – كان علماؤه في حاجة ماسة إلى أن يبينوا للناس الأصول التي قام عليها وأوجه الدعوة التي حمل رايتها، ونجد الكتاب والسنة مليئين بالآيات والأحاديث الدالة على وجود الله وعظمته وتفرده وتوحده. والقرآن بوجه خاص يغدق على الباري صفات كثيرة يتصل بعضها بذاته ويحدد بعضها الآخر علاقته بمخلوقاته ويصفه بأنه والحي القيوم السميع البصير المنزه عن الشبيه والنظر.

ثم لم يكن يمضي على وفاة الرسول ﷺ ثلاثون سنة حتى انقسم المسلمون إلى طوائف باعدت السياسة بينها، وفرقت الأهواء كلمتها، فرأينا المرجئة والخوارج والشيعة مذاهب كانت وليدة للخلاف الذي شجر بين علي ومعاوية، وهذه الفرق وإن تكن سياسية في نشأتها لم تلبث أن تعرضت لبعض المسائل الدينية. ولعل أول ما أثير من ذلك الحيرة في مسألة التفريق بين المؤمن والكافر والطائع والعاصي، والعلاقة بين الإيمان والعمل، فكفرت طائفة قتلة عثمان، وكفرت أخرى الخوارج على الإمام علي، وقالت أخرى بإيمانهم، ورأت ثالثة التوقف عن الحكم عليهم لأنهم قد يكونون متأولين، والمتأول مجتهد إن أخطأ فأمره موكول إلى ربه. وإلى جانب هذه المشكلة الدينية في ظاهرها السياسية في صميمها نلحظ خلافا آخر يغلب على الظن أنه نتيجة مؤثرات خارجية ونعني به ذلك النزاع القديم الخاص بالجبر والاختيار الذي عرفه اليهود والنصارى قبل أن يعرفه المسلمون. وقد ترتب على النزاع القائم في العالم العربي ظهور طائفتين متميزتين إحداهما طائفة الجبرية، والأخرى طائفة القدرية. وبينما تنكر الأولى الحرية الشخصية، إذا بالثانية تثبت للمرء كسبا واختيارا مطلقين فيها يفعل. وأنصار هذه الطائفة الأخيرة من القدرية هم الذين مهدوا للمعتزلة وكانوا مقدمة لهم، كما أن الشيعة الذين تشيعوا لعلي كرد فعل لوجود الخوارج كانوا مقدمة

للطائفة الإسماعيلية التي لعبت دورا عظيماً في التاريخ الإسلامي بعد ذلك!

ولك أن تقول إن النزاع بين الشيعة والخوارج من جهة وبين علي ومعاوية من جهة أخرى، وبحث الخوارج والشيعة في أصول الإيمان والكفر وحدود الطاعة والمعصية والجبر والاختيار وحدود الخير والشر، هذا وذاك كله يمكنك أن تقول إن كل هذا كان هو البذرة الخفية لنشوء فرق المعتزلة وفرق الشيعة وبعض فروعهما من الشيعة القرامطة والباطنية الفاطميين، ثم الدروز كفروع للإسماعيلية، وفي عصرنا فروع الإسماعيلية تراها مقسمة بين بهائية وقديانية وإسماعيلية محافظين يرأسهم في عصرنا "أغاخان" بينما جعلت فلول الإسماعيلية لنفسها دينا خاصا على أنقاض الشيخ الباطني سمو الدين البهائي باعتبار أنه دين برأسه وليس فرعا من فروع التشيع. وفوق هذا وضع له عباس الملقب بالبهاء كتابا معارضا للقرآن سماه البيان جرحه مؤلف معاصر بكتاب سماه الحراب في صدر الإله والباب. وما زاد البهاء في كتابه وفي أسلوبه عن ما فعله مسيلمة الكذاب في عصر الرسول ﷺ من ادعائه أنه صنع قرآنا مثل الذي أنزل على مُحَمَّد فأخزاه الله وخذله في نبوته وقرآنه جميعا.

التوفيق بين الفلسفة والدين

الدين وحي إلهي وهو لغة السماء وغذاء القلوب ومصدر الأوامر والنواهي، فكيف نفرق بينه وبين الفلسفة التي هي من صنع الفكر البشري ومجال للأخذ والرد والبحث والتحليل؟.. كيف نوفق بين الحقيقة الدينية التي مصدرها الوحي الإلهي والحقيقة الفلسفية التي تبنى على الشك لتصل إلى اليقين بالترجيح، ثم قد تشك فيما رجحت بل قد يشك العقل في نفسه وفي قوة دليله أحيانا، كيف نوفق بين العقليات واليقينيات الصادرة عن مطلق الإيمان بذلك

العقل نفسه!؟ حقا إنها محاولة عسيرة جدا، ولكن يبدو أنها كانت ضرورية لقوم من أمم مختلفة عاشوا في العالم الإسلامي، واعتنقوا الإسلام، وكانت دراستهم بل حياتهم كلها خاضعة للجو المحيط بهم ولمختلف العوامل والظروف التي عصفت بحصرهم فلم يروا بدا من محاولة التوفيق بين معتقداتهم وأبحاثهم، فهدوا بذلك للفلسفة أن تنفذ إلى صميم الدراسات الإسلامية تلك الفلسفة اليونانية القديمة التي جل ما وصلت إليه: إما إثنينية العلة على يد أفلاطون (بالإله والمثل) أو أرسطوطاليس (بالهيولي والصورة) وخصصنا أفلاطون وأرسطو بالذات، (أولا) لأن عصرهما مضافا إليه عصر سقراط العظيم هو عصر الفلسفة الإغريقية الذهبي. و(ثانيا) لأن فلسفة أفلاطون وأرسطو مضافا إليهما الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، كانت المعين الأعظم الذي استقت منه فلسفة الإسلاميين والمسيحيين واليهود والرومانيين جميعا.

وكان مدار تلك الفلسفات إما على كفاية الحواس كما عند أرسطو، وإما على الخيال المثالي كما عند أفلاطون، وإما في مجرد الشعر والرتق والتلفيق كما عند أفلوطين فيشمل هذه الفلسفات. وعلى مثل هذه الصورة لا يمكن التوفيق بين هذا الخليط من التفلسف بين الإيمان المرتكز في الفطرة وفي الكون وبين القرآن وهديه الموحد إلا خسائر جسيمة من تراث الفطرة وهدي القلب والبصيرة والحقائق التابعة التي يعتمد عليها القرآن وإن كان بعد ذلك يعتمد أيضا على العقل والحس معا. ونحن حينما قلنا إن الدين والفلسفة خرجا من نبع واحد كنا نعني ما قصده القرآن لا ما قصدته فلسفة اليونان التي استقى منها أولئك المسلمون الموفقون بين الدين الإسلامي وفلسفة اليونان في عصر طفولة الفلسفة عموما، ويعد أبو النصر الفارابي أول من سلك سبيل هذا التوفيق وأظهره في شكل منسق مهذب، وإن كان الكندي العربي قد غرق إلى

رأسه في بحر الفلسفة اليونانية المتلاطم، ثم أتي من بعدهما (ابن سينا فاهتدى بهدي الفارابي ووسع طريقته وكمل ما فاته، وعقب عليهما فيما بعد (ابن رشد) الأندلسي بطريقة أوسع. إلا أن محاولة التوفيق التي قام بها أولئك الفلاسفة لم ترق لدى الغزالي فشن عليها الغارة ونقض أصولها وفروعها وأعمل معوله في هدم بنائها النخم بكتابه (تهافت الفلاسفة).

وبديهي أن التوفيق يستلزم على الأقل جانبين متقابلين وطرفين متنافرين ومهمة الموفق أن يبعد أسباب الخلاف ثم يقارب بين الشقين المتباعدين، وهذا ما لم يحاوله المتفلسفة المسلمون، ولا كان ثمة خلاف حقيقي إذا صحت الفلسفة ولم يكن أمامهم غير تراث الإغريق يغبون منه ويفيضون على قواعد الدين المنزلة ليصبغوها بصبغة الفلسفة الإغريقية التي نبتت في عصور طفولة الفلسفة ولم تكن منتجة.

وإن كان ما وصل إليه اليونان إذ ذاك هو صورة كاملة لما أنتجه العقل الإنساني في ذاك الزمان، وهو إنتاج محدود لا يعدو الظواهر ووحي الحواس؛ ففي فلسفة أرسطو نواح تتناقض مع أصول الدين كما أن في الإسلام تعاليم قد لا تتفق ظواهرها لا بواطنها مع أساليب الفلسفة الإغريقية فاحتال المتفلسفة المسلمون ليصبغوا المذهب الأرسطي بصبغة دينية إسلامية وأن يكسو الدين بثياب فلسفية إغريقية، ولهذا أخفق التوفيق وظل الإسلام إسلاما والفلسفة الإغريقية هي الفلسفة الإغريقية.

أما الفلسفة الصحيحة، وبعبارة أخرى النظر الصحيح والتفكر المستقيم الذي عناه القرآن، الفلسفة التي يسع منطقها وعلى معرفتها كفايات الفطرة من الذوق والبصيرة ونور القلب مضافا إليها استعمال العقل والحس في النظر إلى خلق السموات والأرض استدلالا على وجود واجب الوجود وعلته وسببه

الأول.

فلم يدرك أولئك الذين يريدون التأليف بين الدين والفلسفة أن غرض الدين هو نفس غرض الفلسفة الحقيقية، غرض واحد هو البحث عن علة هذا الوجود ومبدعه وإن كان قد سلك كل من الدين والفلسفة منهجا مغايرا لمنهج الآخر. وهذا لا ينفي قط أن تكون الغاية واحدة على كل حال، وهي التعرف إلى مبدع هذا الوجود، وهو غرض الدين الحق والفلسفة الصحيحة فلو صح الدين واستقامت الفلسفة لتلاقياكتوأمين متشابهين في صعيد الحقيقة المطلقة.

وأنا لا أعتقد مطلقا أن هناك فلسفة إسلامية بالمعنى الصحيح وإن وجد في العرب متفلسفة مسلمون مذ كان مستمد الدين الوحي وهو يهبط من سماه يقصر العقل بطبيعته عن التحليق إليها ومن كان مستمد الفلاسفة الإسلاميين – والإسلام شعاره التوحيد – إثنينية أفلاطون، وإثنينية تلميذه (أرسطو) ثم الشتيت المهمل من الفلسفة الوثنية واليهودية والمسيحية في الأفلاطونية الحديثة، تلك المذاهب المعددة للألوهية والتي تقول باستحالة الخلق والإبداع على الخالق الأعظم الذي جعلوه من الكمال الخارق على زعمهم، بحيث يستحيل عليه خلق الطبيعة ذات المادة المظلمة والمناقضة للكمال ومصدر الشرور كلها وسطروا المثل الروحية المتعددة بين الله ومخلوقاته بل جعلوها العلة الأولى للخلق الطبيعي جميعا (ارجع لنظرية المثل عند أفلاطون والعقول عند أفلوطين).

وفي الأفلاطونية الحديثة أن أول ما خلق العقل الكلي للجمع بين فلسفة أفلاطون وأرسطو، ثم العقل الأول خلق النفس الكلية والنفس الكلية خلقت نفوس الأفلاك، ونفوس الأفلاك أخيرا خلقت الطبيعة الدنيوية التي يستنكف الإله من انتسابها إليه ويتعالى في كماله عن أن يخلقها، ومادام الإله في الأفلاطونية القديمة مثال الخير الأعظم الذي لا عمل له إلا انشغاله بكماله وقد

ترك الخلق والإبداع، وجعل من عالم الأشياء أوهاما وأشباحا لا وجود لها:

وما دام الإله عند أرسطو أيضا هو المحرك الأول الذي حرك الهيولي والصورة في أول دفعة فقط ثم تركهما يتوليان مداولة شئون العالم خلقا وإبداعا بانضمام الصورة إلى الهيولي.

وما دام الإله في الأفلاطونية الحديثة كاملا كمالا متزمتا يرفعه عن خلق المخلوقات أو العناية بها؛ فهذا كله أي المذاهب الثلاثة الأفلاطونية القديمة والأرسطوطاليسية والأفلاطونية الحديثة وكلها ثانوية أو معددة تعدد العلل الخالقة، أول مادام هذا كل التراث الفلسفي الذي استقى منه المتفلسفة المسلمون ولونوا به دين التوحيد الذي جاء وغرضه الأول توحيد الله دون شريك أو مدين في الخلق والإبداع والعناية بمخلوقاته والذي يصرح في أول ما يصرح بأن لا إله إلا الله وتلك فلسفته بالذات فيما فوق الطبيعة. الدين الذي يقول لرسوله ولأتباعه "قل هو الله أحد الله الصمد .. الخ" لا يتفق بحال من الأحوال مع الفلسفة اليونانية الإثنينية أو المعددة وبعبارة أخرى الوثنية المشركة. ولا بدع بعد ذلك إذا اتفقت فلسفة القرآن مع الفلسفة الصحيحة التي يكون غرضها الاهتداء بكل كفايات الإنسان الحسية والعقلية والقلبية إلى الله مبدع الكائنات وعلتها كمبدأ أولي للوجود.

فلا ثمة فلسفة إسلامية بالمعنى الصحيح وخلال غابر التاريخ، إلا في القرآن، اللهم إلا إذا استثنينا الإمام أبا حامد الغزالي إذ كانت له فلسفه كاملة، ولكنه في أغلب الأمر رجل صوفي درس التشريع دراسة وافية ظاهرة وباطنة عقائد وعبادات ومعاملات وأراد أن ينافح مدافعا عن حوزة الدين الإسلامي فدرس الفلسفة اليونانية وكذلك التشيع والاعتزال والجدل الديني فألقم الجميع حجرا صلدا من حجته الدينية والعقلية التي أعانه الله بحسن نيته عليها.

وبعد فإن أريد وجود فلسفة إسلامية بالمعنى الصحيح فيجب أن تكون فلسفة واحدية منزهة لا تثني ولا تعدد ولا تجعل لمخلوق شركة مع الخالق الأوحد بحال من الأحوال، ولا تكون الفلسفة الإسلامية هكذا حتى يكون مستمدها الأعظم آيات الكتاب العزيز ويكون أساس قسمها المابعد الطبيعى، الميتافيزك وحدة السبب الأول للوجود وحدة خالصة منزهة لا شائبة فيها كما يقتضيه منطق العقل الصحيح ويتفق معه منطق القرآن الذي قال "وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" "وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم" ويكون قسمها النفس السيكولوجي مؤسسا على أن الروح الإنسانية هي سر الله في خلقه أوجدها الله للإنسان من نور روحه ليتعرف الإنسان بها إليه ويكون أساس قسمها فيها فوق الطبيعة وحدة السبب الأول للوجود وحدة خالصة منزهة لا شائبة فيها كما يقتضيه منطق العقل الصحيح ويتفق معه منطق القرآن الكريم الذي قال (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)، ويكون قسم النفسي السيكولوجى مؤسسا على أن الروح الإنسانية هي سر الله في خلقه أن يهبها الله الإنسان من نور روحه ليتعرف الإنسان بها إليه. ويدبر بما أودع فيها من حكمة وإلهام وتفكير شئون جسده وشئون عالمه الأرضي ويتعامل بما تملي عليه من نبل وفضيلة مع الخالق والمخلوقات.

ويكون أساس قسمها الطبيعي أن للمخلوقات خالقا أعلى هو الله وأن لقوانين الطبيعة مقننا أكمل وأسمى ومنها ومن كل ما أقلت الأرض أو حوت السماء من محس أو معقول وإن هي في مجموعها إلا عوالم إمكانية تعتورها يد الصيرورة فتنقلها عن حالة لتوجدها في حالة أخرى حتى يصير الأمر إلى ما أشار القرآن إليه "لمن الملك اليوم؟" ويكون الجواب "لله الواحد القهار".

وقد ظهرت آية الله وبعث هذا الرأي الحق ودلل عليه في عصرنا القرن العشرين ما تفيض به علوم الذرة التي تثبت أن الكيان المادي للطبيعة لا يرجع في أفعل أمره إلا أن يكون مجرد أطياف لا زالت تنتجها الطاقة الذرية ثم تؤول في النهاية بالتحول إليها، وأما ذاك الجرم المادي الذي كان يزعم وجوده في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وما قبل ذلك أو قل الحائط الموهوم بين ما هو مادي وما هو روحي قد انهار بفضل التشيع تماما في عصرنا الحاضر.

وهذا ما سنبينه واضحا ومؤيدا بالدليل العلمي إن شاء الله في المجلد الثالث الخاص بتطور العلم من أقدم عصوره إلى الآن، وقد ظهر بالقرائن العلمية أن وراء هذه الدار "عالمنا الدنيوي" دارا أخرى أرقى وأكمل يتلاقي فيها الناس على عدل ربهم أو عفوه أو حسن جزائه بفضله.

الشيعة

قد آثرنا الكلام عن الشيعة والتشيع في الإسلام قبل الاعتزال والمعتزلة والأشعرية وقبل التصوف وقبل الفلاسفة المسلمين أيضا لأن التشيع في الواقع أول فتنة نجمت في الإسلام، وكان مدارها اختلاف الآراء والأهواء التي نشأ عنها اختلاف الجماعة وانقسام الأمة الإسلامية وتعدد مذاهبها فالشيعة وفي مقابلها الخوارج، وفي مقابل العثمانية، أنصار الأمويين.. كل أولئك كانوا مظاهر عامة لدسائس خفية اشترك فيها فلاسفة الغرس وفلاسفة اليهود المتأسلمين وامتدت هذه الفتن منذ القرن الأول الهجري إلى عدة قرون حتى أن علماء الكلام المعتزلة ما قاموا في الملة الإسلامية إلا ليناضلوا تلك الفتن ويقارعوا الحجة بالحجة، يستمدونها من نفس الفلسفات والعلوم التي كانت نظرياتها أصولا لتلك الفتن.

والشيعة هي الحزب الذي التف حول علي ﷺ وساعده على نيل الخلافة وقد أيده ضد معاوية والخوارج إلى النهاية، ثم التف حول بنيه من بعد مقتله. ومعنى الشيعة الصحب والأتباع، وهم في العرف الشرعي أتباع على وبنيه، ويقال لهم شيعة أهل البيت – على أن غالب أهل البيت سنية أشعرية — وبذور هذا الحزب الشيعي كانت موجودة في الأمة بعد موت الرسول مباشرة وحين كان الخلاف على الخلافة ولبثوا يرقبون الحوادث والفرص حتى ولي الخلافة الإمام علي ﷺ بالفعل وإنما كان ظهوره الكامل حين انشق الخوارج على علي بعد حادثة التحكيم المشهورة ولم يقبلوا التحكيم قائلين "إن الحكم إلا لله"، واختاروا لزعامتهم عبد الله الراسي واستقر أمرهم على مغادرة الكوفة وإعلان الثورة وكتبوا إلى أنصارهم في البصرة يستحثونهم على اللحاق بهم، فقاتلهم علي في النهروان وشردهم بمختلف الأنحاء سنة ٣٨هـ وسموا بالخوارج لخروجهم على علي في التحكيم. وقد نشأ الخلاف أصلا على مسألة الإمامة والخلافة، وبما أن السلطة الدينية والزمانية كانتا ممتزجتين في الإسلام كانتا عنصر الإمامة أيضا، وكان للمذهب الخارجي ناحيته السياسية والدينية. وما زال الخوارج بعلي حتى قتل بيد ابن ملجم المراضي في يوم ١٧ من رمضان سنة ٤٠هـ فنشط بعد ذلك الشيعة متشيعين لعلي وأبنائه.

وحجتهم قتل علي زاعمين أنه بيد الخوارج أو بإيعاز من العثمانيين وانتشروا بتعاليمهم يبثونها خفية وجهرا. وكان في وجودهم وثورتهم فرصة للتألب على الإسلام وأهله سانحة لسائر أعداء الإسلام من فرس ويهود وغيرهم من أهل النحل المناوئة للإسلام. وظل الشيعة في تشيعهم وبقائهم إلى جانب أبناء علي في مناوءة بني أمية ويتشيعون لأهل البيت على تعاقب الأيام. كان كل ذلك من الضربات العظمى لتعاليم الإسلام، ومن مذهبهم أن الإمامة ليست

من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويفوض اختيار القائم بالأمر فيها إليها، بل هي ركن من أركان الدين لا يجب إغفاله، بل يجب تعيين الأمام بوصية ممن كان قبله، على أن يكون الإمام معصوما من الكبائر والصغائر وقالوا إن عليا هو الذي عينه النبي للخلافة من بعده بالوصية.

والشيعة عدة فرق أهمها الإمامية وهم الذين يأخذون علي أبي بكر وعمر أن أخفيا وصية النبي عن الأمة على زعمهم ولم يقدما عليا ويبايعاه طبقا للوصية، وسمي الفريق الأول منهم الإمامية لاشتراطهم معرفة الإمام وتعيينه. ثم الزيدية وهم لا يأخذون على أبي بكر وعمر شيئا ولا يطعنون في صدقهما مع الاحتفاظ بأن عليا أفضل، وهم يجوزون إمامة المفضول مع وجود الأفضل وهم أتباع زيد بن علي بن الحسن.

وقد اختلف الشيعة فيما بينهم في مساق الخلافة بعد علي فمنهم من ساقها في ولد فاطمة بنت النبي وزوج علي، بالنص على الإمام واحد بعد واحد وهم الإمامية. ومنهم من ساقها بعد علي إلى ابنيه الحسن والحسين خاصة، ثم أخيه مُحَمَّد بن الحنفية وهم الكيسانية نسبة إلى كيسان مولاه. فساقوا الإمامة من بعد مُحَمَّد بن الحنفية إلى أبي هاشم ابنه ثم افترقوا فساقها بعضهم إلى ابنه علي وزعم بعضهم أن أبا هاشم أوصى بالإمامة إلى مُحَمَّد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى مُحَمَّد بها إلى ابنه إبراهيم المعروف بالإمام وأوصى إبراهيم إلى أخيه الملقب بالسفاح وهو أول خلفاء بني العباس.

وأما الزيدية فساقوا الإمامة باعتبار أنها تقوم باختيار الأمة لا بالنص على واحد معين إلى علي بن أبي طالب فابنه الحسن فأخيه الحسين فابنه علي زين العابدين فابنه زيد، وهو إمام المذهب الزيدي عند الشيعة، وأوصى بالإمامة إلى مُحَمَّد بن عبد الله من ولد الحسن وهو المعروف بالنفس الزكية

وتلقب بالمهدي، وقال الزيدية أن الإمام بعده هو أخوه إدريس الذي فر إلى بلاد المغرب الأقصى واختط مدينة فاس وأسس دولة الأدارسة.

وأما الإمامية فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسن بالوصية ثم أخيه الحسين فابنه زين العابدين فابنه مُحَمَّد الباقر فابنه جعفر الصادق.

وقالت الاثنى عشرية بإمامة ابنه موسى الكاظم فابنه علي الرضي فابنه جعفر بن مُحَمَّد فابنه مُحَمَّد الحسن العسكري فابنه مُحَمَّد المهدي وهو الثاني عشر من هؤلاء الأئمة، ولذا سميت الفرقة بالاثنى عشرية، وتقول بأن خاتمهم مُحَمَّد المهدي لم يمت وإنما اختفى وسيظل مختفيا إلى آخر الزمان حتى يخرج ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما ويسمونه بالمهدي المنتظر!!

وأما الإسماعيلية الذين قالوا بإمامة إسماعيل الإمام ساقوا الإمامة بعده إلى ابنه مُحَمَّد المكتوم وهو أول الأئمة المذكورين "المختفين"، ثم ابنه جعفر ثم ابنه مُحَمَّد الحبيب تم ابنه عبد الله المهدي الذي فر إلى إفريقيا وملك القيروان وأسس دولة العبيديين وأسس بنوه دولة الفاطميين في مصر ويسمون أيضا بالباطنية نسبة إلى قولهم بالإمام المستور أي المختفي وبالعلوم المستورة أيضا والإسماعيلية من أكبر وأقوى فروع الشيعة ومنهم تفرعت فروع كثيرة، ثم لما قوي العباسيون ودان لهم الملك انقلبوا على أبناء عمومتهم من الفاطميين وأعملوا فيهم اضطهادا وتعذيبا وتشريدا فاضطر الشيعة إلى التستر واستعمال معاول الهدم واستغاثوا بالفرس لأن فارس مهد الشيعة الأول واتخذ الفرس بدورهم التشيع وسيلة إلى هدم الإسلام نفسه وإفساد عقائده. وكان أول من أشهر معول الدم عبد الله بن ميمون القداح وهو ابن فقيه الملحد من جنوب فارس، هو ميمون بن صالح إمام جماعة الملاحدة فأخذوا يزيفون الأحاديث وينشرون في العامة مبادئ الهدم

والإباحة ويظهرون في الوقت نفسه التشيع لأهل البيت ويتخذونه سترا لمقاصدهم السيئة فيفرقون دعاتهم خفية في الجهات الأطراف مستعملين السمياء والكمياء والشعوذة وصاروا يدعون كل طائفة بما يتناسب ميولها وعقليتها ويظهرون للعامة في ثوب الورع والزهد ثم نبغ عبد الله بن ميمون بن ديصان وقد نشأ منذ أيامه الأولى في جو من الإلحاد والإباحة متفقها في العلوم الفلسفية وبالأخص المادية وفي أكثر الديانات وكان شديد الإلحاد ثم ادعى اعتناق مبادئ الشيعة الإسماعيلية وزعم أنه وقف على أسرارها وعرف تعاليم الإمام المعصوم فذاعت دعوته في جنوب فارس حوالي سنة ٢٦٠ هـ وفي أواخر القرن التاسع الميلادي.

ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الحرة، ولكن اتخذهم من الثانوية المجوس ومن الوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية وعلمهم أن يبطنوا الحقائق ويظهروا للعامة ضروبا من الشعوذة والإباحة ملفلفة في ثوب الدين أو التفلسف أو التصوف ثم قام بعد ذلك رجل اسمه ذكراويه الملقب بقرمط وكان يزعم أن الصلاة المفروضة على الناس خمسين صلاة في اليوم وكان يأخذ من كل واحد من أتباعه دينارا للإمام المختفي وجعل منهم اثنى عشر نقيبا سماهم الحواريين. وأطلق على أنصاره قرامطة نسبة إلى قرمط، وأذاعوا بينهم تعليما يدعون أنه صادر عن الإمام المختفي أدلى به فرج بن عثمان داعية الهدى يقول فيه (من الهزر والهراء ما لايتصوره عقل عاقل) وإليك ذلك التعليم الخرافي فيما يأتي يقول:

"إن الفرج بن عثمان داعية المسيح هو عيسى وهو المهدي وهو أحمد بن مُحَّد بن الحنفية وهو جبريل وأنه قد رأى المسيح في المنام فقال له إنك الداعية وإنك الناقة وأنت الحجة وأنك الدابة وأنت زكريا وإنك روح القدس والقبلة إلى

بيت المقدس والجمعة يوم الاثنين لا يعمل فيه شيء والصورة والحمد لله بكلماته وتعالى اسمه المتخذ لأوليائه أعوانا وأوقاتا قل إن الأهلة مواقيت للناس ظاهرها ليعلم عدد السنين والحساب وباطنها، أوليائي الذين عرفوا سبيلي". الخ

وهكذا ومن مثل هذا الرجز السخيف، والتفكير الرمزي الكليل، وما كانوا في باطنهم وحقيقتهم إلا إباحيين لا يؤمنون بالله ولا يتخذون دينا!!

وسرعان ما تحول القرامطة إلى عصابة هائلة من السفاحين والأشقياء المغتصبين، وفي سنة ثمانية وخمسين وثلاث مائة هجرية افتتح جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي خليفة العبيد بين مصر وأسس مدينة القاهرة ثم قدم المعز إلى مصر بعد ذلك ونقل قاعدته إلى القاهرة ولا هدأت ثورة الفتاك وثبتت دعائم الملك استأنف الفاطميون الدعوة الإسماعيلية وتعاليمها الفلسفية وأنشأوا لذلك دار الحكمة كمدرسة عامة تفتح أبوابها لكل طالب. وكانت تعاليمها الدينية والفلسفية مشتقة من التعاليم الإسماعيلية تعاليم ابن ميمون السرية، وينقسم أهل ذلك العهد إلى قسمين العالم والجاهل, ويعتبر الدعاة من تلاميذ القسم الأول، وقسموا التعليم إلى درجات، فالدرجة الثالثة فيها مثلا يقولون إن الأحكام الصحيحة هي التي يقول بها الأمة الإسماعيليون لأنهم تلقوها عن الله وهم سبعة آخرهم مُحَمَّد بن إسماعيل.

وفي الدرجة الرابعة مثلا يقولون إن الأنباء الذين تقدموا على وشيعته سبعة هم: آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح ومُحَمَّد النبي العربي ثم مُحَمَّد بن إسماعيل الأمام.

وفي الخامسة يكشفون عن بعض نواياهم من الشيوع والإباحة قائلين إن هذا من شريعة الباطن التي تؤيد شريعة العقل ويدللون على أقوالهم بنظريات أرسطو وأفلاطون وفيثاغورث وأمثالهم من الفلاسفة ثم يلقن الطلاب تعاليم

الثانوية الفارسية اجتهادا منهم في هدم (التوحيد) وهي فكرة الإسلام الجوهرية بتعاليم الثانوية القائلة بألوهية النور وألوهية الظلام وهكذا أقام نظام التعليم السري الشيعي لا لهدم الدولة العباسية فقط ولكن لهدم المعتقدات الدينية الإسلامية أيضا..

بيد أن الذي نظم تعاليم الإسماعيلية الجديدة في طورها الجديد هو الحسن بن علي المعروف بالصباح، وهو فارسي من خراسان، وقد تعلم الفلسفة عن أبي نصر الفارابي مع زميليه الشاعر الفيلسوف عمر الخيام، ونظام الملك وزير السلطان ملك شاه، ثم انقطع لدرس الكيمياء والفلك والسحر الذي كان رائجا في عصره، ويقول الصباح بوجوب الدعوة التي لها إمام معلم، ويقول أن الناس فرقتان، الأولى قالت بوجوب الاستعانة في معرفة الله بالعلم الصادق ووجوب تعينه وتشخيصه ثم التعلم منه. والفرقة الثانية تقول بأخذ العلم عن كل واحد وأن الحق مع الفرقة الأولى فرأسهم يجب أن يكون رأس المحققين فبالاحتياج للمعلم عرفنا الإمام وبالإمام عرفنا مقادير ذلك الاحتياج كما عرفنا بالجواز طريق الوجوب ومقادير الواجب والجائز.

ويقول أن التوحيد هو التوحيد والنبوة معا حتى يكون توحيدا، وإن النبوة هي النبوة والإمامة معا حتى تكون نبوة، وقد كان الحسن الصباح متمكنا من الفلسفتين الغنوسية والمادية ومتشبعا بتعاليم ابن ميمون ثم فضل أن يستتر بالدعوة الشيعية وهو مؤسس طائفة الفدائيين واتخذ له جمعية سرية يغلب على الظن أنها جمعية إخوان الصفا وخلان الوفا. وكانوا يجتمعون للمباحثة في الفلسفة على اختلاف فروعها فيدرسون فلسفة اليونان وآراء الفرس وحكمة الجنود وأقوال فلاسفة الإسلام. وكونوا من ذلك مذهبا خاصا بهم وكانوا يعتمدون على آراء أرسطو في الطبيعيات وفيثاغورث في الرياضيات وفي مباحث ما وراء الطبيعة الأفلاطونية الحديثة، ووضعوا التعاليم المذكورة في اثنين وخمسين رسالة

سموها رسائل إخوان الصفا ثم حملها بعد ذلك من الشرق إلى الغرب والكرمان القوطي، وانتشرت هناك ثم ترجمت إلى عدة لغات، ومما جاء فيها (إن الشريعة قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها تجمع بين جادية الفكرة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال.

ويؤكد ظننا في تشيع إخوان الصفا أن أغلب الأسماء تدل على أنهم من الشيعة ويدل على ذلك الأسماء الآتية من أعضائها أبو سليمان مُحَمَّد بن معشر النسي وأبو الحسن بن على الزنجي وأبو أحمد المهرجاني والهوني وزيد بن رفاعة. وكذلك ما يجيء فيها من تعاليم الباطنية في مواضع كثيرة، وقد عثر المغول عند فتحهم قلعة الموت (معقل الحسن الصباح) على كثير من نسخ رسائل إخوان الصفا.

ويظن بعض المؤرخين أنها جمعية فلسفية محضة؛ فإن أضفنا إليهم تلاميذ الصباح الإسماعيلي الأكبر تأكد الظن بأنها جمعية إسماعيلية شيعية وقدمنا أن فروع الإسماعيلية في عصرنا البهائية المشتقة من البابية الإسماعيلية والقديانية في الهند وهي فرع من الإسماعيلية الأصلية.

المعتزلة

ليس هناك شك في أن جماعة المعتزلة هم واضعو علم الكلام الذي يبحث في العقائد الإسلامية، وقد تعهدوه منذ نشأته وصاحبوه إلى أن بلغ الكمال تقريبا وتوسعوا فيه بحيث أصبح أشبه ما يكون بفلسفة متعددة الفصول والأبواب تحت اسم علم الكلام. فكانت لهم فيه نظريات عميقة وأفكار دقيقة ليست من محض ابتكارهم، ولكنهم استقوا أغلبها من دراسات فلسفية ودينية

عقائدية أسطورية مختلفة المصادر كما قدمنا (بحجة مناظرة الخصم بلغته ومنطقه).

يرجع تاريخ المعتزلة إلى أوائل القرن الثاني للهجرة فقد كان الحسن البصري يجلس إلى جماعة من التلاميذ والأتباع يحدثهم أو يفسر لهم شيئا من الآيات القرآنية، أو يشرح لهم بعض المسائل الدينية والفلسفية، وكان من بين تلاميذه الأفذاذ واصل بن عطاء. فتعرض الأستاذ يوما للخوارج والحكم على دينهم ليتبين ما إذا كانوا كفارا أو مؤمنين فعارضه تلميذه وقال هم في منزلة بين المنزلتين. وكان الأستاذ قد حكم بإسلامهم فاعتزل واصل مجلس الحسن البصري، وهنا قال الحسن جملته المشهورة (لقد اعتزلنا واصل) ولما كان واصل حلقة أخرى غير حلقة الحسن سمي هو وتلاميذه بالمعتزلة. وكان الحسن أميل إلى التوفيق بين الفريقين وعدم تكفير أحد من طوائف المسلمين، فقال: "إن مرتكب الكبيرة مؤمن عاصي".

ومنذ ذلك الحين أخذ واصل يضع مبادئ الاعتزال ويحددها ويصوغ نظرياته في قالب علمي فلسفي، ولكنها لا تخرج عن أصول الاعتزال الجنسية التي سنكتفي بإيرادها هنا فإنها تدور حول الباري وصفاته وعلاقته بمخلوقاته وأفعال العباد وما أعد لهم من ثواب أو عقاب، وعليها مدار الأخذ والرد بينهم وبين مخالفيهم، وقد صرحوا بأنه لا يستحق أحد اسم الاعتزال إلا أن يقول بها (الأصول الخمسة).

ويعنون به توحيد الله توحيدا تجريدياً للذات عن الصفات، وفيه تفصيل لها فيقولون إنه واحد بلا شك قديم لا محدث، وهو منزه من جميع الجهات وعن سائر النعوت ولا كثرة في ذاته البتة، وهو خالق الجسم وليس هو بجسم، ومحدث الأشياء، وليس هو بشيء منها، ومنزه عن سائر صفات الحوادث. والمسلمون

موحدون على الإطلاق وفكرة الوحدة أوضح نقطة في عقيدتهم. وإنما اختص المعتزلة بالقول بأن الذات مجردة عن النعوت والصفات، وقد صدوا عن الإسلام غارة القائلين بالتعدد أو المماثلة من زنادقة وملحدين، على أن فكرة التوحيد الفطرية السهلة البسيطة قد صارت عندهم نظرية فلسفية متعددة النواحي والدلالات، فوحدة الباري تستلزم تجرده عن الجسمية والمكان، وما ورد في الكتاب والسنة من آثار تثبت أن له عرشاً أو وجهاً أو يداً أو نحوها يجب أن تأول تأويلاً يلائم هذه الوحدة المجردة تجريداً مطلقاً.

وإذا انتفت عنه الجسمية والجهة فلا سبيل إلى رؤيته (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ووحدته جل شأنه تقتضي ألا تكون له صفة زائدة عن الذات، وما جاءت به النصوص من صفاته الثبوتية مثل العلم والقدرة لا يفيد شيئاً خارجاً عن حقيقة الذات؛ فالله عالم وقادر بذاته، وهكذا وقد خالف السلفيون وأهل الأثر المعتزلة في كل هذا، فقبلوا النصوص الواردة بالجسمية والمكانية على ظاهرها بلا كيف ولا تشبيه وقالوا إن لله عرشا لا كالعروش ويداً لا كالأيدي، ونادوا بإمكان رؤية الباري في الآخرة محاولين إثبات ذلك بمختلف الأدلة. وقالوا بأن لله صفات متميزة عن الذات وإن كانت قائمة بها، كالعلم والحياة والسمع والبصر والإرادة.

وكان لصفة الكلام بوجه خاص شأن عظيم في هذه الخصومة فقد جرت إلى مشكلة خلق القرآن التي اتخذ منها المأمون ومن بعده وسيلة لتعذيب العلماء والمتمسكين بقدم القرآن حتى يقولوا بخلقه، وعلى الجملة بينما المعتزلة يؤولون النصوص ويفسرونها تفسيرا يتلاءم مع فكرة تجريد التوحيد إذ خصومهم من السلفيين وأهل السنة يقفون عند المدلول اللفظي للآيات والأحاديث آخذين بظاهرها ويفسرونها على مقتضى ذلك.

ونظرية العدل تكون مع التوحيد الأصلي والأمين اللذين عرف بهما المعتزلة، فسموا أنفسهم (بأهل العدل والتوحيد) والعدل صفة من صفات الباري جل شأنه تنفي عنه الظلم والجور، وتقتضي أنه لا يفعل شيئا إلا لغرض وحكمة فليس من العدل مطلقا أن يريد الشر أو يحدثه في العالم، بل كل أعماله ترمي إلى ما فيه خير العباد وصلاحهم، وما يبدو في الكون من شرور هو خير في الواقع وإن عز علينا تفسيره أحيانا.

وبديهي أن الخير لا يريد إلا الخير، وما دام الإله خيراً مطلقا فلا يمكن أن يصدر عنه الشر بحال، والأوامر والنواهي الدينية مطابقة للعقل تمام المطابقة، لأن العادل الكامل يستحسن ما استحسنه العقل ويستقبح ما استقبحه، ومن العدل أن يكون هناك حساب وعقاب على ما أتيناه من الأعمال في هذه الدنيا، ولكن من العدل أيضا ألا نحاسب إلا على ما اتجهت إليه إرادتنا وأنتجته أيدينا، فأفعال العباد مخلوقة لهم ونتيجة اختيارهم، وإلا بطل التكليف ولم يبق مجال للمدح والذم وإرشاد المرشد وإرسال النبي.

ويظهر أن المعتزلة افتنوا في توضيح هذه النقطة للرد على الجبرية الذين سلبوا المرء كل قدرة وإرادة، غير أن خصومهم من السلف استنكروا منهم أن يذهبوا إلى وجوب فعل والصلاح والأصلح على الله، ومعناه أن المعتزلة يؤخذ من أقوالهم أنه يجب على الله دائما فعل الصالح والأصلح.

وأنكروا عليهم القول، بالحسن والقبح العقليين، واعتبار العبد مصدرا لأفعال نفسه كلها، ومعناه أن الحسن ما حسنه العقل لا الشرع، والقبيح ما قبحه العقل أيضا في رأيهم، وهذه مسائل كما ترى بالغة الحدة في الدقة والعمق، وقد أثارتها الإنسانية من قديم ولا تزال تثيرها حتى اليوم. فموضوع الصلاح والأصلح ليس إلا صورة من صور مذهب التفاؤل الفلسفي ومسألة الحسن

والقبح ترجع إلى نظرية القيم التي تبحث عما إذا كانت قيم الأشياء حقائق ثابتة أو مجرد اعتبارات وهو بحث فلسفي قديم وحديث، وخلق الأفعال يتصل اتصالا وثيقا بمشكلة الجبر والاختيار وهي مشكلة فلسفية أيضا.

ويراد به أن الله صادق في وعده ووعيده لا مبدل لكلماته فلا يمكن أن يثيب العاصي أو يعذب المطيع، لأنه وعد بالثواب على الطاعات، وأوعد بالعقاب على العاصي. ولعلنا نلاحظ في هذا الأصل فكرة العدل التي أشرنا إليها من قبل، ولم يتردد مخالفو المعتزلة في أن قالوا أن ثواب الله فضل لا يتخلف، وعقابه عدل لا يتسامح فيه.

وهذا من أول الأصول التي عدل إليها المعتزلة، ومؤداه أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر؛ فهو في منزلة بين المنزلتين، وأساس هذا الحكم أن الإيمان في رأيهم اعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح، وخالفهم كثيرون فقالوا بمجرد التصديق القلبي مع الإقرار باللسان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كي يؤدى المسلمون أمانتهم وينشروا دعوتهم وعليهم أن يقيموا حكم الله ولو بالسيف على كل من خالف سواء كان كافراً أم فاسقاً، وقد أخذ المعتزلة أنفسهم بهذا المبدأ فناضلوا عن الدين نضالاً عظيماً، وأصبحوا شجا في حلوق المكابرين ومبعث رعب وخشية للزنادقة والملحدين وأسلم على أيديهم كثيرون ممن بهروا بحجتهم وأسروا بمنطقهم.

هذه هي أصول المعتزلة الخمسة وهي تشمل جميع عناصر علم الكلام الرئيسية لأنهم مؤسسو هذا العلم ومقيمو دعائمه، صاغوه صياغة عقلية ونظموه في صورة فلسفية تقوى على حملات الخصوم والأعداء، وقد قام المعتزلة بمذهبهم في الإسلامية آخذين بأحكام العقل ومنطقه ورادين إليه خبره كل حكم شرعي وكل نص منزل فاقتضى هذا أمرين:

الأمر الأول: أنهم أولوا الآيات المتشابهة في القرآن، وفي القرآن آيات محكمات وأخرى متشابهات فالمحكمة ما دلت على أمر ظاهر غير محتاج للتأويل بنقله من حقيقة اللفظ إلى مجازه أو من مجازه إلى حقيقته. ولهذا أول المعتزلة من آيات القرآن ما يشبه بالانتقال في المكان أو الزمان أو ما يشبه صفات المخلوقات أولوه من حقيقة اللفظ التي تدل عليها إلى المجاز، ومن أمثال ذلك قول الله تعالى "يد الله فوق أيديهم" والله يتنزه عن أن يكون له يد كأيدينا فيؤولون اليد بيد القدرة مثلا أو الإحاطة، وفي قول الله تعالى "الرحمن على العرش استوى" يؤولون ذلك إلى الاستيلاء بالقدرة على كل شيء واعتبار أن العرش أكثر الأشياء ولا يقبلون الاستواء بمعنى الجلوس تشبيها له بعباده.

وذلك في مقابل أن علماء الأثر الذين يطلق عليهم أهل الظاهر لأخذهم بظاهر ألفاظ نصوص القرآن لا يؤولون منها شيئا فكان وجود المعتزلة في الواقع كرد فعل لعدم استعمال أهل الظاهر لعقولهم قائلين له إن الله عظم العقل وخاطبه فلا يصح تعطيله.

الأمر الثاني: أنهم لا يأخذون بالأحاديث بحجة أن حصول الاختلاف فيها كثير جداً، بخلاف القرآن، ويؤخذ من مجموع آراء المعتزلة أنهم بناء على منطق أرسطو الذي نقلوه عن اليونان، وبنوا عليه علم الكلام يبالغون جداً في تحكيم العقل في نصوص الشرع، مع أن الشرع جاء به الوحي، والوحي يهبط من آفاق تعلو على إمكانيات مدارك العقل، وليس معنى هذا أن العقل لا قيمة له في الشرع، وإنما الأمر بالعكس، من حيث أن الدين الإسلامي هو أول دين ناصر العقل وحرره من التقليد الأعمى، وليس معناه الانتصار لأهل الجود والتزمت الواقفين على مجرد ظواهر الألفاظ وإن دلت على وجود الجهة الله أو على المماثلة للخلق في المجيء والذهاب والقيام والقعود.

فإن كان أهل الظاهر يقبلون هذه النصوص المتشابهة على ما هي عليه دون تأويل الظاهرة، ودون اعتبارها ألفاظ مجازية تدل على معان لحقائق أخرى وراءها، فإن المعتزلة يريدون أن يحكموا العقل مطلقا في أحكام الشرع مطلقا، وفي هذا افتئات على قضية أساسية في الإسلام هي أن القرآن جاء به وحي إلى روح الرسول الذي أمر أن يبلغه للخلق وأن الوحي خطاب الله العقل آت من الأعلى ليخاطب الأدنى.. وفي مبالغة أهل الأثر في التمسك بظواهر الألفاظ مبالغة أيضاً تؤدى إلى ضرب من الجمود على الظواهر.

وبينا نرى الآخذين بظواهر نصوص اللفظ القرآني يحكمون مقتضيات النقل فيما تقتضيه أحكام العقل، وهذا معناه إخضاع العقل للنقل دون شرط ولا قيد، وجعل العقل كالتابع الذي ليس عليه إلا مجرد التأييد للنقل ولو بالتقليد.

كذلك نرى من ناحية أخرى المعتزلة يجردون الحقيقة الإلهية من سائر صفاتها ونعوتها معتبرين أن الصفات موجودات غير الذات قائمة بجانبها كحقائق أخرى، والواقع أن الصفات مجرد خصائص للذات الإلهية ليست بخارجة عنها وإن كانت قائمة بها.

ثم بالغوا بناء على هذا في نفي صفة الكلام على الأخص مما أدى بهم كما رأيت إلى اعتبار أن القرآن مخلوق وهذا لشدة المبالغة في التجريد كما ذكرنا، ولم يقبلوا أن لله كلاما يقرأ ويسمع ما دعا إلى وجود فرقة ثالثة هي الأشاعرة تتوسط بين أهل الظاهر وبين المعتزلة.

والحق الذي يجب على المسلمين اعتقاده اعتبار أن الوحي أنزل ليخاطب العقل بالنقل، فالنقل رسالة، والمرسل هو الله، والمرسل إليه هو عقل الإنسان في الإنسان، فلا يجب تحكيم العقل بصفة مطلقة في النصوص التي تعلو أحيانا

مفاهيمها على نظر العقل، لأنها تهبط من آفاق قد يعجز العقل عن اكتناه كنهها، ويكون للعقل بعد ذلك حق الفقه والتفسير لما أنزل إليه من ربه، والتفريق بين ما هو حقيقة وما هو مجاز من معاني التنزيل، على أن يكون تأويلا بحسبان ودون شطط، وتكون وظيفة العقل حينئذ بالنسبة لما جاء به الوحي: وظيفة الكائن المخاطب المتفهم التفاهم الواعي المعتبر المفسر فيقدر الشرع الذي أنزل إليه حق التقدير دون أن يغيب عن تقدير نفسه هو أيضا باعتبار أنه الكائن المخاطب بالشرع من الله الذي جاء لعقل الإنسان في الإنسان!

وتكون وظيفة الدين أن يقوم مسلك العقل والحس عن طريق تنوير القلب، والأمر بالتزام صراط الشرع، لأن هذا هو غرض الشارع منزل القرآن في خطابنا بالقرآن، لاسيما وأن الإسلام عظم العقل وفرض له قسطا كبيرا من الحرية ليلقي عليه قسطاً آخر من المسئولية، والله أعلم.

الأشاعرة

وبسبب هذا التعارض بين المعتزلة وأهل الظاهر وجدت فرقة قصدها التوفيق وهم الأشاعرة، ولم يكن الأشاعرة أصحاب فكرة جديدة ولا مذهب مبتكر بل كان جل همهم أن يقربوا الآراء المتقابلة بعضها إلى البعض، وأن يقفوا منها موقفا وسطا، مهدئين حدة المعتزلة تارة ومكفكفين من غلواء أهل الظاهر من السلف تارة أخرى. وكان الجمهور الإسلامي أميل إلى هذه الآراء المعتدلة والحلول الوسطى فصادفت رواجا لديه واعتنقها إلى النهاية.

وتنسب هذه المدرسة إلى أبي الحسن الأشعري أحد رجال التصوف الأولين في القرن الرابع للهجرة، وقد كان تلميذا لأبي علي الجبائي المعتزلي، إلا أنه انفصل عنه بسبب نقاش شبيه بذلك النقاش الذي اعتزل من أجله واصل بن

عطاء مجلس الحسن البصري، ومنذ ذلك الحين أخذ أبو الحسن يكون لنفسه مدرسة مستقلة يعارض بها زملاءه وأستاذه من أنصار الاعتزال ويأخذ على أهل الظاهر استصغارهم لشأن العقل، ولقد كانت الظروف كلها مواتية له، لأنه هم بحركته على أثر الغلو الذي وقع فيه المعتزلة وكذلك خصومهم من أهل الظاهر، ونشر فكرته بعد أن تحامل المتوكل وخلفاؤه على أصحاب مشكلة خلق القرآن، ثم سار على نهجه بعض التلاميذ والأتباع الذين وضحوا آراءه وناصروا نظرياته وإن كانوا قد توسعوا فيها حينا، ونخص بالذكر منهم الباقلاني (١٠١٣ م) ميلادية وإمام الحرمين الجويني (١٠٨٥م) ميلادية وهو مثبت أركان منهج أبي الحسن الجدلي. ثم جاء الغزالي والشهرستاني حوالي سنة (١١٥٠ م) فأعانا الأشاعرة معونة كبيرة على كل من خالفهم من الشيعة والمعتزلة والفلاسفة ونستطيع أن نقول إنه منذ القرن السادس الهجري أصبح المذهب الأشعري شبه مذهب رسمي في أغلب الديار الإسلامية والمقلدون بوجه خاص اتبعوه ووقفوا عنده وقوفا تاما ولم يكن لهم إلا أن يرددوا أقوال أبي الحسن أو أحد أتباعه السابقين تعاليمهم. تعرض الأشاعرة لكل المشاكل التي أثارها المعتزلة من قبل، فتحدثوا عن وحدة الباري وصفاته وعدله وعنايته بمخلوقاته وفصلوا القول في تحديد قدرة المخلوقات واختيارهم وطاعتهم ومعصيتهم، وبحثوا عن أصل المادة والعناصر المكونة لها وكانوا في كل هذا متأثرين بآراء من سبقهم من السلف والمعتزلة في وقت واحد، فأحيانا يميلون إلى أحد الفريقين وكانوا في الغالب إلى السلف أميل وأقرب، وأحيانا أخرى يقدمون حلا وسطا للخلاف القائم بينهما (السلفيين والمعتزلة).

ولعل مشكلة الصفات بوجه خاص هي أهم المشاكل التي شغلتهم ودارت حولها معظم أبحاثهم، وقد وقف الأشعري في بعض أجزائها موقف الربان الموفق

الماهر، وخانه التوفيق في أجزاء أخرى فسلم بالصفات التي قال بها السلف، إلا أنه فسرها تفسيرا معنويا يقربه من المعتزلة، فأثبت الله صفات وجودية العلم والقدرة والإرادة على أنها معان أزلية قائمة بالذات، ولم يستطع أن ينكر أن لله عرشا ووجها ويدا وغيرها مما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة ومما ينكره على ظاهره المعتزلة وقد يقبل الأشعرية هذه الأقوال المشبهة بالجسمية والمكانية من غير كيف ولا تشبيه كما صنع السلف. وقد يجيز تأويلها على نحو ما فعله المعتزلة، وهذا يدل على تعلقه بالجانبين، وقد توسع كل التوسع في إيراد الأدلة العقلية والنقلية المثبتة لإمكان رؤية الباري في الآخرة جل شأنه بحيث يخيل للقارئ أنه يخالف المعتزلة تمام المخالفة، ولكنه لا يلبث أن يقرر أن هذه الرؤية لا تستلزم جهة ولا مكانا ولا صورة. بل هي ضرب من المعرفة والإدراك سبيله العين على صورة من الصور المألوفة منا اليوم، ولم يكن في موقفه إزاء صفة الكلام بأقل توفيقا منه في هذا الموقف، فقد ذهب إلى أن الكلام يطلق بإطلاقين فيراد به أولا المعنى النفسي القائم بالذات، ويقصد به ثانيا الأصوات والحروف التي تؤدي هذا المعنى في كلام الله قديم على الإطلاق الأول وحادث على الإطلاق الثاني، ولعل في هذا التفصيل ما يحل مشكلة خلق القرآن التي قامت في جزء كبير منها على خلاف لفظي حلا وسطا سهلا.

ورأينا في هذه المسألة أن الكلام صفة قديمة من صفات الخالق عز وجل فهي معنوية لا تحس ولا تلمس ولا ترى وأقرب الأمثلة لها كلام الإنسان الكامن في ذات نفسه كمون النار في الحجر قبل صدوره بالكلام المعروف ذي الصوت المتموج في الهواء الذي تطرق ذبذباته طبلة الأذن طرقا للدخول بعد إطراح الحروف والأصوات إلى ذهن السامع، والذهن شيء ذاتي معنوي أيضا وما الكلام المنطلق ألفاظا أو المكتوب أحرفا إلا معان تغلفها الألفاظ وتكون

الحروف ظروفا حاملة لها تتخلف عنها إذا تداعت معانيها إلى الذهن، ويقول الشاعر العربي في مثل هذا المعنى:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

وليس المقصود بكلام الله تلك الحروف المخطوطة بالحبر في الورق المنطوقة كألفاظ في الهواء إنما الغرض من الكلام معانيه ولبه سيما الكلام الإلهي المنزل بواسطة الروح الأمين على فؤاد رسول الله الناطق به لسانه في حوامل وظروف هي الألفاظ القرآنية، فإن كل ما يجيء على هذا النحو من ألفاظ مسموعة تحمل معانيها المعقولة فهو من هذا القبيل.

وقد شاء أبو الحسن أن يحل موضوع خلق الأفعال حلا وسطا كحلوله السابقة، بيد أن الحلول الوسطى لا تنجح دائما، والمعتزلة كما قدمنا يصرحون بأن أفعال العباد مخلوقة لهم ونتيجة لاختيارهم (فهم قدرية) في حين أن السلف يردون الأفعال كلها لله (ولذا يعتبرون جبرية) ولكي يتوسط الأشعري هذين الطرفين يرى أن للعبد قدرة واختيارا خاصين، بدليل أن الأفعال الاضطرارية كالرعدة والرعشة ميزة عن الأفعال الإرادية غير أنه يقيد هذه القدرة تقيدا تصبح معه وكأن لا وجود لها. فإنها في رأيه لا تؤثر مطلقا في مقدورها، وهي نفسها مخلوقة لله، وكل ما في المسألة أن الله أجرى سنته بأن يخلق القدرة على فعل الحادثة قبل حدوثها أو معها بالفعل الحاصل من العبد إذا أراده واتجه نحوه بقدرة خلقها الله فيه، وهنا نتساءل: علام يحاسب العبد وأفعاله كلها صادرة عن الله!!؟ أيحاسب لمجرد كسبه واختياره الذي هو خاضع أيضا لإرادة الله؟؟ وقد أحس تلاميذ الأشعري بما في رأي أستاذهم من ضعف وأخذوا يعدلونه ويقومونه؛ فذهب الباقلاني إلى أن قدرتنا الحادثة مؤثرة من ناحية أنها تحدث الأشياء على وجه خاص، فحدوث الأشياء من عمل الله وتخصيص هذا

الحدوث بجهة معينة من عملنا ومن كسبنا يقول إمام الحرمين بهذا غير ملاحظ أن القدرة في العبد عاجزة إلا أن يشاء الله والقدرة غير المؤثرة بذاتها بالضعف أولى. على أن قصرها على أثر معين تخصيص لا يقوم على أساس ولا يفهم سره، ولهذا يجاهر بأن فعل العبد نتيجة قدرته بوجه عام، وإسناد هذه القدرة إلى سبب خارج آخر وهذا السبب الآخر يرجع إلى سبب غيره داخل في سلسة الأسباب العامة وليس من موضوعنا حال. وهنا يقترب أحد تلاميذ الأشعري من المعتزلة والفلاسفة اقترابا عظيما.

ورأينا في هذه المسألة أن الخير أمر أساسي في الوجود، والله خلق العباد للخير وأما الشر فإنه أمر اعتبارى نسبي مجازي وهو في غالب أمره عدم الخير فهو سلبي واعتبارى من هذه الجهة ومن جهة أخرى أن الأشياء كلها صالحة التي سيرها للخير أو للشر والعبرة كل العبرة بالنية والملابسة، فلكي يقوم الله نوايا الإنسان الخير خلق الخير كأمر إيجابي وقدرة وخلق الشر كأمر سلبي وقدره، والسلب والإيجاب من الصفات الضرورية للكائنات الوجودية فلا إيجاب إلا وبجانبه سلب ضرورة، ولا سلب إلا ناشيء عن وجود إيجاب.

ونحن مأمورون في الشرع باتباع ما أمر الله بفعله وهو الخير والايجابية واجتناب ما نهى الله عن فعله وهو الشر والسلبي، والخير كل الخير في اتباع ما أمرنا به والشر كل الشر في اتباع ما نهانا عنه، وقانون الترقي العام الشامل لجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها يقوم على الإيجاب دون السلب، وتعتبر السلبيات ومنها الشر والجهل والوهم حوائل مانعة للترقي أو مؤخرة عنه، والله عز وجل بكل شيء عليم وحكمته دائما أرفع وأسمى وأوسع باعتبار أنه الخالق وعلمه أوسع من مدى عقولنا المحددة بالنسبة لحكمته (باعتبار أننا أبعاض من مخلوقاته) ولو أردنا أن نجرد الكائنات من الخيرية والشرية فكأنما أردنا أن

نرجعها إلى بساطتها في عالم القدرة الإلهية المجرد وأما إذا أردنا عالما مركبا من عناصر وأضداد لينتظم أمره فلن يكون إلا عالما مركبا عوامله صالحة وأعيانه لأن تكون خيرا أو شرا مختلطين متباينين ليدل وجود أحدهما على وجود الآخر كالظلام تعرف به النور والليل تعرف به النهار فإن بحثت في حقيقة الظلام أو الليل ترى أن الليل في الحقيقة إن هو إلا عدم شروق شمس النهار وإن الظلام إلا عدم النور وهكذا يكون السلب والإيجاب، وأوضح مثال لك من العلم تيار الكهرباء المركب من سلب وإيجاب ليتم الدائرة التي تحدث بها المنفعة من الضوء والحرارة وغير ذلك. ولست واجدا قط موجبا كهربائيا يكون له فاعلية واقعية دون أن يكون له سالب ينتج عنه. ولست بواجد قط سالبا كهربائيا إلا تابعا لموجب فيكون السلب في الحقيقة هو الإيجاب منطلقا ليعود إلى نفسه فتتم الدائرة الكهربائية ومعنى هذا كله كائن في شطر من بيت من الشعر دو بأضدادها تعرف الأشياء، فإذا لم يكن في العالم شر وهو سلب الخير فهل كان يمكنك أن تحصل خيرة عن مواقع الخير من مواقع الشر والحال أن الشر كله في معناه ومفهومه عدم ظهور الخير بارزا، أو عدم وجوده قاطبة فما عليك إلا أن تتجه للخير الذي له خلقت وهو مراد الله في خليقته وإن صادفك الشر الذي علمت أنه سلب الخير في طريقك فأعرض عنه فإن قلت إنك خلقت له فنقول وكيف علمت ذلك ولم تنته حياتك.. ومن أين جاء هذا العلم وأنت لا تعلم تقدير الله في شخص لك؟! وإذن فالخطة المثلى أن تعلم أن الله خلق الخير وقدره وأمر بفعله لأنه غرضه من الإيجاب وخلق الشر وقدره ليبحث به الخيرين إلى الخير وهو ليس من غرضه ونحن ملزمون باتباع ما به أمر واجتناب ما عنه نهى غير سائلين عن تقديره الذي لا يعلمه إلا هو سبحانه. والله أعطى الإنسان حرية محدودة واختيارا محدودا لأنه هو نفسه بالنسبة للكائنات التي خلقها الله أو بالنسبة للمعلومات التي علمها محدود أيضا وإذا ضربنا مثلا لمقدار حرية

الإنسان بالساعة فإنك ترى أن عقرب الثواني يكمل دائرة كاملة بحرية في دائرته النسبية وكل دائرته التي هو حر فيها محدودة بنقطة واحدة على المحيط هي نقطة الدقائق أو نقطة الساعات، والساعة أيضا مرتبطة بدورة الأرض حول نفسها وحول الشمس وهكذا إلى أن يعود الأمر إلى الله في النهاية.

الصوفية ونزعتهم الروحية

التصوف مناجاة القلب ومحادثة الروح، وفي هذه المناجاة طهارة في القلب والروح والنفس لمن شاء أن يتطهر، وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجز والدنس وفي ذلك عروج بالروح إلى سماء النور والتكامل وصعود إلى عالم الفيض والإلهام. وما هذا الحديث بالنجوى إلا ضرب من التأمل والنظر والتدبر في ملكوت السماوات والأرض بالعقل والقلب معا.

بيد أن الجسم والنفس متلازمان وتوءمان لا ينفصلان، ولا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة فلا بد له أن يحد من غلواء الشهوات وملذات البدن. فالتصوف إذن فكر وعمل ودراسة ورياضة وسلوك، واختلاف المتصوفة فيما بينهم راجع في الغالب إلى تغاير المنهج في السلوك وإن كانت الغاية واحدة، فبعضهم يرى أن سبيل الوصول إلى السعادة الحقة هو الدراسة والبحث ويرى آخرون أن سبيل الوصول إلى هذا هو التبتل والتزهد. وإذن يمكننا أن نقول بوجه عام إن هناك ضربين من التصوف: نظري، وعملي، قد امتاز كل منهما بمميزاته الخاصة وإن كانا غير منفصلين تمام الانفصال، لأن لا بد لصاحب المنهج العلمي النظري من العمل، ولصاحب المنهج العملي من المعرفة القلبية والعقلية وإلا فلا تصوف، ولا يمكن أن يخلو دين من دعامة للتصوف العملي في صلبه، والإسلام بما فيه من طاعات وقربات وأدعية وعبادات واردة في القرآن قد اشتمل على أكثر أسس التصوف، والتصوف الإسلامي على الأخص، لأنه لا ينفر من الدنيا ولا يحرم زينة الله التي أخرج لعباده ولا الطيبات من الرزق ولكنه يدعو إلى العمل للآخرة في الدرجة

الأولى وإلى تطهير الجسم والنفس من الرجس والدنس وفي مثل هذه الدعوة سلاح متين من أحكام الدين يعتمد عليه أهل التصوف باعتبارهم أهل الناحية الروحية المتعلقة بسائر نواحي الإسلام والتي تتطلب الإخلاص والخلوص والإنابة. فأولئك القوم الذين خصصوا أنفسهم لفهم روح الدين وتطبيق القول على العمل والحال على المقال بصدق وإخلاص مضافا إلى ذلك أن في لغة القرآن والحديث من العطف والحنان ما يلائم مهذبي النفوس والقلوب فإن تلك اللغة في أعلى آفاقها تصف الباري جل شأنه بأنه رحيم ودود، وأنه أقرب إلى عبده من حبل الوريد، وفيها ما يفسح مجال التقرب إليه للمتقين والعارفين الذين لا يحجبهم عن الله حجاب ولا يحول دون شهود حكمته حائل.

فالتصوف الإسلامي الحقيقي مبناه على الكتاب والسنة وعلى أحوال الرسول النبي العربي ﷺ، وإن تلونت تعاليم التصوف وتعرجت في بعض فروعه ألوانا عدة واتجهت تلك الفروع فيما بعد اتجاهات مختلفة ببعض مذاهب الداخلين المحدثين في الإسلام من هنود وفرس وإسرائيليين ومسيحيين ولا سيما في عصر الترجمة الذي شجع عليه المأمون ومن بعده من الخلفاء العباسيين فترجم المسلمون كتباً كثيرة من التصوف الهندي واليوناني والفارسي، وطعمت بعض فروع التصوف الإسلامي الخالص بما دخل عليها من النزعات الأفلاطونية الحديثة أو القديمة ومن بعض المذاهب الهندية والفارسية في التصوف (ولكل دين تصوفه طبعا).

وظل التصوف الإسلامي الصميم والذي مصدره الكتاب والسنة قائما على حاله في صدور رجاله وفي الكتب الإسلامية كالحسن البصري والقشيري وأبي طالب المكي والسهروردي والسراج والغزالي. الخ. وشذ عن ذلك أمثال الحلاج الذي قال بالحلول والقائل "أنا الحق أو ما في الجهة سوى الله"، ومحيي

الدين القائل "خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله" وبرأه من فكرة الحلول قوله بالسكر وغلبة الحال. وأكثر الصوفية الأعاجم خلطوا بين الفلسفة الفارسية القديمة أو الهندية وما قبسوه عن اليونانية والأفلاطونية الحديثة وبين تصوفهم الخاص.

وقد تأثر أمثال أولئك ببراهمة الهند والفرس في أزيائهم وطقوسهم واعتنقوا قدراً من أفكارهم، ولم يترددوا في استخدام نظريات الفلاسفة اليونانيين، وخاصة أفلاطون وأفلوطين لنصرة آرائهم الفلسفية وعلى هذا لا يكون من الصواب في شيء ما ذهب إليه بعض المستشرقين الأوروبيين من عد التصوف كله مجرد عدوى أجنبية سرت إلى العالم الإسلامي دون أن يكون في تعاليم الإسلام ما يهيئ لها ويعد المسلمين لقبولها. والحال أن ما يقرب من ثلثي آي القرآن وخصوصا ما يدعو إلى الورع والصبر والتقوى والإخلاص وما يذكر منها الموقنين والصابرين والمحسنين والصادقين والمخلصين كلها من صلب التصوف وكذلك من صلب آي القرآن ولكن التصوف الإسلامي المحض غير ما يعرف المستشرقون أو يفهمون لأنه إيمان ويقين وحال وعلم وعمل. فإذا تكلم المستشرقون عن التصوف المسيحي أو اليهودي فربما، وكذلك عن التصوف الهندي من برهمي وبوذي ويوجي، فنعم، وأما عن التصوف الإسلامي فلا.

ولماذا؟ لأن الله خصص طائفة من أهل الإسلام بنص أي القرآن بأنهم عباده وخواص أهل حضرته فقال سبحانه وتعالى للشيطان "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان" مع ملاحظة أن الكل مخلوقاته من إنس وجن ومسلمين ومسيحيين ويهود وهنود والكل من عباده عموما لأنهم من مخلوقاته الذين خصص منهم بضعة سماها عباده على التخصيص وحتى الشيطان نفسه وهو أيضاً من عباده قد خاطب الله عز وجل في تعبير القرآن بقوله "لأغوينهم أجمعين

إلا عبادك منهم المخلصين" وأيضا قد أمر الله رسوله مُحَمَّدا ﷺ بعد أن رباه وكمل خلقه وأتم عليه نعمته بأن يتصوف ويندمج في الصوفية بقوله "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه" وأن الله عز وجل قبل أن يرسل مُحَمَّدا برسالته الكبرى والملة العظمى أمره بدخول الخلوة (غار حراء) والتبتل والذكر والفكر وما ذلك إلا ليعده سبحانه ويهيئه لما أعد له من حادث جليل هو الرسالة حتى قال ﷺ "أدبني ربي فأحسن تأديبي".

هذا كله مفهوم، ولكن لماذا دخل الرسول الخلوة وتعبد وتحنث في الغار وفيه قدر أكثر من الذكر والاستغفار والاعتكاف خاصة رمضان وأوقات كثيرة من غيره وكذلك أتاه الله الرؤية الصادقة تأتي كفلق الصبح، فماذا بعد هذا النمط من العبادة الخاصة إلا أن نعده تصوفا إسلاميا رفيعا، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأ متدرجا في الكمال كمريد ثم تهيأ لحمل الرسالة ولذا وصفه الله في كتابه بقوله "إنك لعلى خلق عظيم". وحتى بعد أن حمل الرسالة وأصبح سيد المرسلين قد أمره الله في ذلك بأن يصاحب أهل الصفة، وذلك واضح في قوله "واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه" أي يا مُحَمَّد.

وجدير بنا أن نبحث عن أصول التصوف الإسلامي (بالذات) في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وليس في الصوامع الهندية والبيع اليهودية والأديرة المسيحية وتعاليم مدرسة الإسكندرية أو غيرها كما يريد المستشرقون أن يضعوا في أذهان المسلمين من جهة تصوفهم الإسلامي الخالص من تشويش وشكوك وشبه ليست بالواقع في الإسلام ولا أهل الإسلام عموما فإن لكل دين تصوفه وفلسفته وللدين الإسلامي كذلك تصوفه الخاص وإن ظل بعض الداخلين إلى الإسلام محتفظين معلومات تناسبهم كل عن دينه السابق أضافوها إلى التصوف

الإسلامي وأتبعهم فيها شواذ آخرون من المسلمين.

أدوار التصوف الإسلامي

مر التصوف الإسلامي بأدوار عدة وتواردت عليه في ظروف مختلفة إضافات أجنبية وقد نشأ لأول مرة كالإسلام نفسه عمليا بسيطا سهلا، يتلخص في العلم بفقه الدين أولا ثم بتطبيق العلم بالدين على العمل، وهذا التطبيق ينتج حتما إيمانا ويقينا خاصين بصاحبه وأمثاله وينتج أحوالا سنية. وبإضافة الأذكار بأسماء الله يشرق القلب بالنور الإلهي وتنتقي الآراء والأفكار من توافه الحياة الأرضية، ويوجه إلى الاشتغال بالمنجيات من الأفكار والأعمال الصالحة مع عدم الانقطاع كلية عن الأسباب الدنيوية حيث أن (لا رهبانية في الإسلام) ويمتاز التصوف الإسلامي ببعض العادات الجميلة والتقاليد الفاضلة المتصلة بالمسكن والملبس والطعام والشراب ونظام الحياة بوجه عام من حيث النظافة والطهارة واجتناب الفواحش والخبائث والمنكرات.

وكان التصوف الإسلامي في بدنه مقصورة على أفراد صفت قلوبهم وآنسوا من أنفسهم القدرة على النسك والتقوى، ثم اتجه بعض الصوفية لما اتسعت أسباب الحضارة إلى دراسات واسعة في السلوك وأحوال النفس ونظريات عميقة في الكون وفلسفته، والتف حول أعلامه أنبياء ومريدون فامتد نفوذه وتكون من المتصوفة طوائف عدة وفرق مختلفة. ولكن سنة الزمن في أحداثه وتطوراته التي مرت على الإسلام عدت على التصوف وهو فرع منه كما عدت على الأصل فانقلب في أكثره إلى شكليات لا يعني فيها كثيرا بالحقائق ومظاهر مجسمة ورمزية بعيدة عن أدب الروح ومناجاتها وتبتلها.

وإليك ملخص للأدوار التي مر بها التصوف من منذ نشأته: دور النشأة

والتكوين وهو يبدأ من القرن الأول للهجرة وينتهي في القرن الثالث، ثم دور النهوض والمال الذي امتد إلى نهاية القرون الأربعة التالية ثم دور الانحطاط والوقوف منذ القرن الثامن إلى اليوم.

دور النشأة

بدأ التصوف فعلا على صورته البسيطة مؤسسة على الكتاب والسنة وأخلاق الرسول منذ الصدر الأول للإسلام، فلوحظ على كثير من الصحابة والتابعين ميلهم إلى العبادة والتبتل والتزهد وإعراضهم عن الدنيا، بل لقد خطا بعضهم في هذا السبيل خطوات واسعة، وبالغ فيها مبالغة واضحة، فكان منهم من يصوم نهاره ويقوم ليله ومن يصطلي من الرمضاء ساعات من النهار أو يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيبه لروحه. وفي حياة عبد الله بن عمر وبلال المؤذن وسلمان الفارسي وأبي ذر الغفاري وأبي الدرداء اكبر مثل على ذلك. بيد أنهم لم يتسموا باسم خاص ولم ينتسبوا إلى طائفة معينة لأنهم صحابة وهي أشرف نسبة. ولم تطلق كلمة (صوفية) على جماعة حينها إلا في القرن الثاني للهجرة، فترى الحسن البصري يرأس متصوفة البصرة، وإبراهيم بن أدهم يقود متصوفة العراق.

وما كان الزهد والعبادة بمقصورين على الرجال، فإنه قد نشأ في هذا القرن أيضا أمثال رابعة العدوية وجويرية ورابعة الدمشقية وغيرهن أولئك اللواتي طمعن في وجه الله وأحببته لا رهبة من عقابه ولا طمعاً في ثوابه، ورغبن عن كل شيء إلا عن محبة الله ورضاه.

ولكي يكتمل لهذا الزهد وهذه العبادة كل مظاهرها أخذ المسلمون في بناء الزوايا وأمكنة العبادة ومدارس العلم، وتزيا بعض المتصوفة بأزياء خاصة،

فلبسوا الصوف وابتعدوا عن كل مظاهر النعيم والترف واشتقت تسميتهم من اسم الصوف أو الصفاء وما زال هذا النوع من السلوك ينمو ويزيد أنصاره إلى أن دونت بعض الأبحاث والنظريات والعلوم نتيجة للعمل والعمل كذلك وفي الغالب يكون نتيجة للعلم وتكون النظرية في الأكثر وليدة التطبيق إن نتج عنها غيرها كما أن التطبيق يكون وليدة للنظرية فهناك تلازم ولذا رأينا رجالا من منكري القرن الثالث الهجري وعلى رأسهم الحرث المحاسبي وذو النون المصري وابن أدهم العراقي يصفون أحوال النفس ومقاماتها، ويوضحون بعض المظاهر الصوفية مطبقة على العمل بالسلوك ومؤلفاتهم من أقدم ما كتب في هذا العلم.

الدور الثاني

ثم يتحدث أبو يزيد البسطامي عن حال الفناء التي هي أعلى درجات السلوك وهي نظرية في التصوف، ويكون التطبيق نتيجة للنظرية فينتج فعلا أعلى هو التقى، وبعد التقى الشهود وهي مرتبة يصل إليها المريد وفيها تنكشف له الحقائق الإلهية ويسمو إلى مرتبة الفيض والإلهام، وبذلك وضعت دعائم نظرية الوصول الصوفية التي دارت حولها أبحاث متصوفة الدور الثاني.

الدور الثالث

وفي الدور الثالث ألف "الهروي" المفسر كتابه "منازل السائرين إلى الله" وألف القشيري رسالته المشهورة التي تعتبر دعامة في التصوف وعوارف المعارف للسهروردي واللمع للسراج ثم في القرن الخامس الهجري ظهر إحياء العلوم للغزالي وكانت كلها كمعارف علمية تخص التصوف الإسلامي والصوفية المسلمين.

وقدمنا أنه في عصر الترجمة تلون التصوف وتعرج في مجراه وقبس بعض الصوفية الأعاجم والداخلين في الإسلام أقياسا عن الهند وفارس والمسيحية وغير ذلك.

ولكن ظل التصوف الإسلامي المحض سائراً في طريقه السوي معتمداً على الله ومتكئاً على كتاب الله وسنة رسوله مهتدياً بهدى القدوة الصالحة من المسلمين والمؤمنون وعباد الله المخلصين الذين قال الله تعالى في حقهم "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين" وقد قال القشيري في زمنه وفي مقدمة رسالته القشيرية يصف حال الصوفية بعده فقال شعراً:

أمـــا الخيـــام فإنهـــا كخيـــامهم وأرى نسـاء الحـي غـير نسـائها

وذكر في رسالته أيضا أبياتاً لم يحضرنا اسم قائلها.

كـــذبتك نفســـك لـــيس ذا ســـنن الطريـــق الســـابقة
حـــتى تكـــون بعـــين مـــن عنـــه العيـــون مغلقـــة
تجـــرى عليـــك صـــروفه وهمـــوم ســـرك مطرقـــة

وأكملنا معناه فقلنا:

تمســـي وتصـــبح عبـــده وتكـــون منـــه علـــى ثقـــة

هذا وإذا قارنا عصرنا بالعصور التي قيلت فيها هذه الأبيات التي تدل على الحذر والانتكاس والتعرج والشذوذ فلا نجد كلاما أو تعبيرا يفي بالمعنى ومن يصف الأمور الظاهرة للعيان يكون من الحمق بمكان وفقط نقول كما قال عبد الكريم الجيلي في كتابه: "الإنسان الكامل"..

ذهـــب الكـــلام فـــلا كـــلا م ولا أذان ســـــــــــــامعة

هذا مع أن المجال ليس مجال إفراد التصوف الكلام، وعلى من شاء أن يقرأ كتابنا "معالم الطريق إلى الله" المبني على تطبيق الطريقة على الشريعة، والطريقة على الحقيقة، وكتبناه على هدي من أضواء الإسلام والإيمان والإحسان، والذي يجب أن نفهمه أن التصوف في الإسلامية طور من الأطوار التي دخل فيها الإسلام بعد ذهاب رسوله الكريم إلى جوار ربه العظيم.

وبقي علينا في هذا المقام أن نتحدث عن بعض خصائص الإسلام

ينتهي بذلك المجلد الأول الخاص بتطور الديانات والملل من كتابنا وحدة الدين والفلسفة والعلم . وبهذا الصدد نقول:

بين الإسلام والتصوف من جهة

محور الإسلام وأهدافه

فإذا حللنا أصول الإسلام وقواعده المقصودة بالذات في كتابه وشريعة رسوله ﷺ بروح التعقل والإنصاف والمنطق السليم لوجدنا أن الإسلام يقوم في أركانه جميعا على أربع دعائم:

١. توحيد الله وتنزيهه نفياً وإثباتاً لا إله قط إلا الله الواحد الأحد وأن كل ما خطر ببالك من فكرة مصورة أو خيال مبدع ليضع له صورة أو تحيز في شخص أو شيء أو حدود أو زمان أو مكان أو مشابهة أو مماثلة لكان الله بخلاف ذلك جميعاً.

٢. شريعة الإسلام على أساسه معتقد وعمل قوامه إخلاص.

٣. ومعاملات للناس معيارها العدل والإحسان.

٤. مضافاً إلى كل ذلك تقاليد صالحة موروثة وعادات مرعية وسنن من الفطرة ونفحات من المروءة والنخوة والشجاعة والحرية إلى غير ذلك.

وعلى المبدأ الأول نقول إن التوحيد مبدأ فطري عام في الخليقة، تدل عليه سائر الكائنات بتوحدها خلقاً وألفة ثم محاولة ذلك التوحيد تطوراً نحو غايتها التي كانت مبدأها وتلك الغاية وذلك المبدأ سببه وحدة الله في أسمائه وصفاته وأفعاله، يشهد بذلك ويدل عليه توحيد نواميس الطبيعة نفسها وتجانس أعيانها مما يدلك على أن مبدعها ومنظمها والمسيطر على وجودها ومصيرها مبدأ واحد هو الله.

"سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق" "ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق" "وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى أللهِ خير أما يشركون أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون" "وهو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون".

وفي الإنجيل "هذه الحياة الأبدية إنك أنت وحدك الإله الحق".

وأول الكلمات التي أنزل الله على موسى "أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك إله آخر أمامي" وفي البند الثاني من الوصايا "لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما في السماء من فوق ومما في الأرض من تحت" إلى أن قال "أنا الرب إلهك إله غيور" الخ.

وعقب القرآن فقال "الا لله الدين الخالص ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون" "أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون" "وقل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون" والإسلام يعتبر أن سائر الرسل طبقة من طبقات البشر امتازت عن غيرها باستعداد إلهي يؤهلها لحمل رسالات ربهم إلى بقية الناس من بني جنسهم وكذلك دينهم دين واحد تدرج في أزمنة مختلفة بحسب تدرج العقل البشري صعدا وظلت الفطرة المنبثة فيهم واحدة بل وأكثر من ذلك أنهم كانوا عائلة واحدة كلهم من إبراهيم،

وإبراهيم من آدم، وآدم من تراب، إلا أن الله يصطفي لرسالاته ونبوته وولايته من يشاء من عباده .

هذا عن التوحيد والتنزيه وعن رسالة الرسل ونبوة الأنبياء وولاية الأولياء فالله واحد والغاية واحدة والمطلوب في الكل واحد هو الله الذي منه بدء الأمر وإليه يعود. فإن كان كل هذا إسلاما وإيمانا رقي بالضرورة متبعه إلى درجة الإحسان وهذا معلوم للمسلمين جميعا ونقول لهم بناء عليه إذ درجة الإحسان التي هي ثمرة الإسلام فالإيمان إلا التصوف الإسلامي في معناه ومبناه، وبعبارة أخرى – التصوف الإسلامي الحقيقي – لأن التصوف بشرط أن يكون إسلاميا محضا من الإسلام كخلاصة الشيء من الشيء أو كالزبد من اللبن أو قل بعبارة واحدة أنه روح الإسلام في الإسلام

وأما من جهة التشريع فلسنا في حاجة لأن نقول إن أكمل دستور للتشريع والتقنين العام هو القرآن بدون معارض أو منازع يضاف إلى ذلك آيات الحكمة وآيات التحرير للعقل وآيات الحث على التقدم بطلب العلم ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن تأتي بكلمة واحدة تدل على سمو شريعة الإسلام منحصرة في قول الله تعالى للمسلمين: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا". ومعنى وسطا أي وسطاء في الخير العام والعدالة الاجتماعية والنزعة الإنسانية. وقلنا إن التشريع الإسلامي يجمع بين معاملات مع الله ومعاملات مع الناس. أما معاملة كل من ينضوي تحت راية الإسلام مع الله فأساسها أمران:

١ – النية كمبدأ ٢ – الإخلاص كسند ووسيلة.

"إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى" حديث صحيح متواتر أما

معاملته مع الناس فأساسها أيضا أمران مذكوران في القرآن عند قوله تعالى: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان"، فالمسلم مأمور بأن تدور رحى حياته في التعامل حول هذين القطبين ويقرب من هذا القول بأن كب الإنسان لغيره ما عب لنفسه وأن يحكم على نفسه بما يحكم به على غيره وذلكم هو العدل وهو باسم آخر الإنصاف فإن أراد التقرب لله أكثر وكان المقام في المعاملة مما يجب فيه التسامح والعطف على الضعيف كان قانون المسلم في ذلك هو الإحسان زلفى إلى الله وقربى. وتلك هي الإنسانية الكاملة والدين العدل الذي جاء بالصراط المستقيم حقا والذي له أن ينتشر حتى يفهمه على حقيقته سائر البشر.

هذا وأما شأن الإسلام مع الديانات الأخرى التي جاء خاتمة لها فهو التسليم بها وبكتبها وبرسلها كما رأيت ما مر وما ذلك إلا لأنه لا يرى نفسه دينا من ثلاثة أديان سماوية أو أكثر متعارضة وإنما يرى الإسلام وله الحق أنه آخر أدوار التطور الديني للتسامي والتكامل بالتطور الديني. فهو بناء على ذلك يسلم بسائر الكتب ليس تعصبا لها أو عليها أو انحيازا لنفسه ولمتبعيه ولكنه يسلم بها جميعا لأنه يرى محيطه يحتوي كل صحيح وسليم جاء فيها وآية ذلك قوله تعالى "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً" وقد مرت بك. والإسلام بطبيعته التوحيدية عدو لكل باطل موضوع مما يكتبه الناس بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله. وسلام الله على من اتبع الهدى وصدق بالحسنى وكفر بكل ما سوى الله من معبود.

دور الكمال

أعد رجال القرن الثالث المبادئ الضرورية لدراسة صوفية كاملة ولم يكن على من جاءوا بعدهم إلا أن يتعهدوا هذه المبادىء وينموها ولا سيما وقد كان

في تقدم الثقافة العربية ونهوض الدراسات الإسلامية عامة ما يعينهم على التوسع في أبحاثهم فشاركوا المتكلمين في بعض مشاكلهم واقترضوا من الفقهاء قدرا من مصطلحاتهم وكذلك أخذوا عن الناسفة شيئا من نظرياتهم وقد خطا الجنيد في هذا السبيل الخطوات الأولى الفاصلة، فانتقل من حال الفناء التي قال بها البسطامي إلى فكرة الاتحاد وذهب إلى أن التصوف قد يصل إلى درجة يتحد فيها الروح اتحادا تاما بخالقها عن طريق الشهود، وذلك بالتجرد عن حول العيد وقدرته إلى حول الله وقدرته فيقوى بذلك وتتلاشى شخصية البشرية في الذات الإلهية عن طريق عدم رؤية العيد لنفسه واستمرار الشهود بغية الوصول إلى حق اليقين وهو شهود ملاحظة روحية وليس الاتحاد هنا كاتحاد شيئين متغايرين أحدهما بالآخر كما في الاتحاد البوذي أو الهندي أو المسيحي. وإنما هو اتحاد بالملاحظة، والملاحظة فقط ينشأ عن شهود عرفاني لله من طريق علم اليقين أو عينه أو حقه ويظل العبد عبدا ضعيفا مقصورا والرب ربا معبودا مشهودا معروفا مراقبا. ولكن فهم هذه النظرية فهما خاطئا أو مختلطا بمعتقد مغاير جعل لأمثال الحلاج سبيلا لأن يتغالى في نشر هذه النظرية لدرجة (الحلول) واتخذ من نفسه وسيلة لها. فكان يعلن أنه اطلع على الغيب وأن في مقدوره الإتيان بخوارق العادات ثم ذهب إلى ما هو أبعد من هذا بقولته المشهورة: من يدري أن الإله قد حل في جسم فرد من عباده. لهذا ثار عليه معاصروه ورموه بالسحر تارة والجنون أخرى وعذب عذابا أليما إلى أن مات في أوائل القرن الرابع، والله أعلم بحاله.

وكان من أثر الحلاج وجود من بالغ مبالغة قلت أم كثرت وهو شهاب الدين عمر السهروردي المقتول رئيس جماعة الإشراقيين ومحيي الدين بن عربي الأندلسي، وابن سبعين الصقلي، وهم من رجال القرنين السادس والسابع.

وتابعهم جماعة من شعراء الفرس أمثال جلال الدين الرومي وفريد الدين العطار وكلهم يرمي إلى أن يقيم التصوف على دعائم فلسفية أو فارسية وهندية أو يونانية ولم يراعوا أن التصوف الإسلامي أصلا وفرعا سليم في ذاته صحيح في نزعته لا يقبل إلا أفكارا إسلامية سليمة صحيحة.

في ختام هذا الدور جاء الغزالي فتوج بكتابه الإحياء ذلك الكمال الصوفي الإسلامي المحض.

الإمام الغزالي (١٠٤٨- ١١١١م)

هو أبو حامد مُحَمَّد بن أحمد الغزالي ولد بطوس من أعمال خراسان سنة ٤٥٠ هـ ومات بها سنة ٥٠٠ هـ أي بالغا من العمر ٥٢ عاماً بعد أن مثل دوراً مهما في الحركة الدينية الإسلامية الفلسفية في عصره.

بدأ يدرس العلوم الدينية على العلامة أحمد الزرقاني، وأتمها في نيسابور حيث تلقى علم الكلام على إمام الحرمين الجويني فأتقنه وبرز فيه على أقرانه.. ولما مات أستاذه خرج من نيسابور إلى المعسكر والتقى نظام الملك الوزير السلجوقي فأكرمه وسهل له سبيل العيش فعينه مدرساً في نظامية بغداد وهي الجامعة الشهيرة التي تأسست سنة ١٠٥٧م وكان عمر الغزالي إذ ذاك ٢٣ سنة، وقد ذكر في كتابه المنقذ أنه كان يلقي دروسه على ثلاثمائة طالب.

ولما هاله أمر المفكرين الأحرار كتب في الدفاع عن الدين الإسلامي، مؤلفاته الثلاثة: "إحياء علوم الدين" و"مقاصد الفلاسفة" و"تهافت الفلاسفة".

وكان له ميل شديد للتصوف فترك مهنة التدريس سنة ١٠٩٥م وودع مظاهر المجد والشهرة وخرج من بغداد موريا بالحج لكي لا يلحوا عليه بالبقاء،

وبينما هو في الطريق لابسا لباس التصوف رآه أحد أصدقائه فقال أهكذا يا إمام (ناظرا إلى بساطة ملبسه) فأجابه بهذه الأبيات:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما القلب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه دوما لأول منزل

تركت هوى ليلى وسعدي بمعزل وعدت إلى مصحوب أول منزل

ونادت بي الأشواق مهلا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل

غزلت له غزلا رفيعاً ولم أجد لغزلي نساجا فكسرت مغزلي

وهكذا ظل أحد عشر عاماً متنقلا من مدينة لأخرى فزار دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة المكرمة وأخيراً عاد إلى طوس باحثا عن الحقيقة طالباً للحياة الروحية في التأملات الدينية.

وكان يمضي الساعات الطويلة في أعلى منارة مسجد دمشق منفرداً بتأملاته العميقة إلا أنه رأى بعد تأليف كتاب إحياء العلوم في منارة دمشق أن يرجع إلى الناس لينفعهم بعلمه ويدلهم على الله بعد أن امتلأ بالمعرفة واهتم حينئذ بتقويم الأخلاق وتعليم الدين وتمجيد الإسلام حتى أنه لقب بزين الدين وحجة المسلمين.

وكان أكبر باعث على عودته إلى العالم العملي إلحاح فر الملوك الذي عرض عليه مهمة التدريس بنظامية نيسابور مظهرا له أن من الخطأ حرمان أبناء المسلمين من المعرفة التي وهبها الله له فقبل الرأي ولكنه لم يبق في التدريس طويلا بل عاد إلى طوس واعتزل في منزله حتى انتقل إلى جوار ربه ويقال أنه لما مات وجدت عند رأسه هذه الأبيات:

قـــل لإخـــوان رأوني ميتـــا ... فبكـــوني ورثـــوني حـــزنا

أتظنـــــون بأني ميـــــتكم ... لـــيس ذاك الميـــت والله أنا

أنا في الصـــور وهـــذا جســـدي ... كـــان بيـــتي وقميصـــي زمنـــا

أنا كنـــز وحجـــابي طلســـم ... مـــن تـــراب كـــان ضـــيقا وعنـــا

أنا در قـــد حـــواه صـــدف ... لامتحـــاني فنفيـــت المحنـــا

أنا عصـــفور وهـــذا قفصـــي ... طـــرت عنـــه وبقـــي مرتهنـــا

أحمـــد الله الـــذي خلصـــني ... وبي لي في المعـــالي مســـكنا

كنـت قبـل اليـوم ميتـا بيـنكم ... فحييـــت وخلعـــت الكفنـــا

وأنا اليـــوم أناجـــي مـــلأ ... وأرى الله جهـــاراً علنـــا

عـــاكف في اللـــوح أقـــرا وأرى ... كـــل مـــا كـــان تنـــأى ودنا

وطعـــامي وشـــرابي واحـــد ... وهـــو رمـــز فـــافهموه حســـنا

لـيس خمـراً سـائغة أو عسـلا ... لا ولا مـــاء ولكـــن البنـــا

فـــافهموا الســـر ففيـــه نبـــأ ... أي معـــنى تحـــت لفظـــي كمنـــا

واهـدموا بيـتي وفضـوا قفصـي ... وذروا الطلســـم يعلـــوه الفنـــا

قـــد ترحلـــت وخلفـــتكم ... لســت أرضــى داركــم لي وطنــا

لا تظنـــوا المـــوت مـــوتا إنـــه ... لحيـــاة وهـــو غـــايات المـــنى

حـي ذي الـدار تـؤوم مغـرق ... فـــإذا مـــات طـــار الوســـنا

لا تـرعكم هجعـة المـوت فمـا ... هـــو إلا نقلـــة مـــن هـــا هنـــا

وكان الغزالي ذا عقل ذكي ونفس كريمة وجل غرضه إظهار فضيلة الدين الإسلامي على سائر الأديان وعلى الفلسفة خصوصا. ولما درس علم الكلام والجدل والاعتزال ومذهب الأشعري جنح إلى التصوف الإسلامي معتقدا أن أهله هم أهل الفرقة الناجية كما جاء في الحديث النبوي.

مؤلفات الغزالي: إحياء علوم الدين – مقاصد الفلاسفة (الذي ترجم إلى اللاتينية بمعرفة بطرس لختنشتين وطبع في فيينا سنة ١٥٠٤م) – تهافت الفلاسفة – المنقذ من الضلال، وكثير غيرها.

فلسفته: دينية تصوفية حسب شريعة القرآن فلا يسلم بقدم العالم ولا بالانبثاق الفلكي الذي قال به ابن سينا عن أفلوطين ويقول بضرورة العلم وتحكيم العقل في الأمور العلمية بشرط أن تقي النفوس من أدران الغابات الشخصية والجمود المذهبي، وأن أحسن طريق للحصول على سعادة الدارين أن ينقطع لذكر الله إلى أن تفيض عليه الرحمة وينكشف له سر الملكوت.

أما علم الأخلاق الذي علم به الغزالي فهو مزيج من العقائد القرآنية والفلسفة الأخلاقية. والمذهب الصوفي الذي يعتنقه هو وفيه مزيج من علوم الشريعة وأسرار الحقيقة الإلهامية والرياضة النفسية. ويقول إن المعرفة الكونية تكتسب بواسطة الحواس والعقل، وأما معرفة الحكمة الإلهية فلا تنال إلا بإلقاء إلهي بواسطة الإيمان والمجاهدة في الوصول إلى انكشاف الحقيقة.

وإلى هنا ندع الغزالي يتحدث عن نفسه في كتابه المنقذ من الضلال حيث يقول: ولا شفاني الله تعالى من هذا المرض (مرض الشك) بفضله وسعة جوده وانحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

١– المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

٢- الباطنية: (الشيعة الإسماعيلية) وهم يدعون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣- الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤- الصوفية وهم يرون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة

فقلت في نفسي الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة فهؤلاء هم السالكون سبيل طلب الحق فإذا شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع والرجوع إلى التقليد بعد مفارقته محال، إذ من شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد فإذا عرف ذلك انكسرت زجاجة تقليده وهو شعب لا يرأب وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف، إنما يكون بإرجاع الزجاجة إلى النار لتذوب فيستأنف لها صيغة أخرى مستجدة. ولما علمت ذلك ابتدرت لسلوك هذه الطرق واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئا بعد الكلام ومثنيا بطريق الفلسفة ومثلثا بتعليمات الباطنية ومربعا بطريق الصوفية.

ثم قال: إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخليه القلب من غير ذكر الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر على من العمل، فابتدأت بتفاصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمة الله وكتب الحرث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي، وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه مقاصده العلمية وحصلت على ما يمكن أن يحصل من طريقتهم بالتعليم والسماع وظهر لي أن أخص خواصهم ما لم

يمكن الوصول إليه بالتعليم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. فكم من الفرق بين أن يعد الإنسان حد الصحة وحد الشبع وأسبابها وشرطها وبين أن يكون صحيحة وشبعان. وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل عن استيلاء أبخرة تتصاعد من الأعمدة على معادن الفكر وبين أن يكون سكرانا بالفعل وما معه من علمه شيء والصحاحي يعرف حد السكر واأكانه وما معه من السكر شيء.

والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد للصحة، فكذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد والتقوى، شروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد والتقوى وعزوف النفس عن الدنيا، فعلمت يقينا أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريقة بالعلم فقد حصلته ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعليم بل الذوق والسلوك. وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية إيمان يقيني بالله تعالى وبالنبوة وباليوم الآخر، فهذه الفصول الثلاثة عن الإيمان كانت رسخت في نفسي لا بدليل معين مجرد بل بأسباب وقرائن وتجاريب لا يدخل تحت الحصر تفصيلها. وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى. وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب بالدنيا وبالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب عن الشواغل والعلائق. ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمس في العلائق وقد أحدقت بي من الجوانب ولاحظت أعمالي وأحسنها التدريس والتعليم فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل

باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت فتيقنت أني على شفا جرف هار وأني قد أشرفت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال في أزل أن أفكر في ذلك مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد.

ولما أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له فأجابني الذي (يجيب المضطر إذا دعاه) وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب.

فأظهرت عزم الخروج إلى مكة وأنا أبطن في نفسي سفر الشام حذرا من أن يطلع الخليفة على قصدي، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم ألا أعود إليها أبداً واستهدفت لتقدير لأئمة أهل العراق كافة إذا لم يكن فيهم من يجوز أن يكون الأعراض عما كنت فيه سببا دينيا إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم ثم ارتبك الناس في الاستنباط وظن من بعد عن العراق أن ذلك كان الاستشعار خوف من جهة الولاة. وأما من قرب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والتصميم على إعراضي عنهم وعدم الالتفات إلى قولهم فيقولون هذا أمر مأوى وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العرفي شخصه، فغادرت بغداد وفرغت ما كان معي من مال العراق عدا ما هو مرصد الصالح لكونه وقفا على المسلمين، فلم أر في الدنيا ما لا يأخذه العالم لعياله أصلح منه. ثم دخلت الشام وأقمت به قريبا من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلت من علي الصوفية فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي. ثم دخلت منه إلى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها علي ثم تحركت في نفسي

داعية أداء فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله إن بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت إلى الحجاز ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه. وآثرت العزلة أيضا حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر.

"وكانت حوادث الزمان ومهمات العيال وضروريات المعاش تغير من وجه المراد وتشوش صفوة الخلوة وكان لا يصفو إلى منها إلا في أوقات متفرقة لكن مع خذلان كنت لا أقطع طمعي فيها فتدفعني عنها العوائق وأعود إليها ودمت على ذلك مقدار عشر سنين وانكشف لي في أثناء هذه الحلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذي أذكره لينتفع به أني علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون الطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أصوب الطرق وأخلاقهم أذكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسه من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. وبالجملة فإذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها طهارة القلب عما سوى الله تعالى ومفتاحها الجاري فيها مجرى الإحرام من الصلاة هو استغراق القلب بالكلية بذكر الله وآخرها الفناء بالكلية فيه.. ولا عجب في أن يرى الغزالي أن المعرفة الصحيحة هي التي تأتي عن طريق القلب وطريق الهداية الإلهية لأن للبصيرة القلبية اتصالا مباشرا بالحقائق الإلهية الخالدة والأسرار النورانية الخافية عن أعين خفافيش العلم الناقص وتلك المعرفة تجعل الصلة دائمة بين الخالق والمخلوق وبصفة لا تنقطع وهي مؤسسة على المحبة واستمرار الصحية وحسن الطاعة. هذا ولا بدع أيضا أن يعتنق الغزالي

التصوف، وقد تحقق أن أهل التصوف الصحيح هم الفرقة الناجية ولا غرابة أيضا في أن يكون الغزالي الدارس لسائر أحكام الشريعة وعلوم الكلام والفلسفة والتصوف لسانا ناطقا للصوفية وكاتبا عظيما قد سخر قلمه لنصرة التصوف الحق وتنقيته مما أدخل عليه من فكر لا يعرفها الإسلام وليست من أصوله أو فروعه في شيء.

والغزالي يعد من كبار أئمة الدين وكذلك يعده الفلاسفة من رجال الفلسفة، وقد وضعناه نحن في أهل التصوف كما ترى ولم نعده من الفلاسفة أو مجرد الفقهاء وكان لنا على ذلك شاهد ومؤيد من كلامه الذي مر بك في التصوف وذلك ليس بمانع له من أن يكون إماما في كل ما لابسه من علم

دور التراجع

وبالغزالي قد توج دور الكمال الصوفي المشروع الذي يحده من أعلام التوحيد الخالص ومن أدناه محاربة النفس والهوى ومن أوسطه التقوى التي تؤدي إلى حال الشهود اليقيني وهو غير الحلول كما لا يخفى.

بيد أن الحلول الذي قال به الحلاج وأصحابه ما كان ليرضي أهل السنة ولا أهل التصوف الإسلامي وذلك لأنه يؤدي إلى تحديد وتحيز ذات الباري جل شأنه، والقول بالحلول معناه إلحاق معنى المكانية والجسمية به تعالى؛ لهذا لم يتردد الأشاعرة في رفض الحلول الحلاجي وكذا الاتحاد الذي ظنوا به أنه إضافة مغاير لمغاير ولو علموا أن رجوع الشيء لأصله لا غبار عليه لما ارتأوا هذا. وفي اتصال الروح بالله الذي انبعث عنه أولا لا يقال فيه أنه اتحاد مغاير بمغاير معلنين أنه لا يمكن أن يتصور اتحاد أو امتزاج حقيقي بين الله ومخلوقاته، ولم يقبلوا من التصوف إلا ما دار حول التبتل وتربية النفس وإصلاحها. وقد أيدهم

الغزالي في هذا رعاية لعقائد العوام عدا اتصال الروح بالله وهذا جميل كما أيدهم في حملتهم على المعتزلة والفلاسفة، ولم ينكر على التصوف الحق شيئا كما رأيت كما رأيت بل قرر في كتابه "إحياء علوم الدين" أن هناك عالمين: عالم الظاهر وعالم الباطن، وإذا كانت الحواس وسيلة إدراك العالم الأول فإن الفيض والإلهام دون شك وسيلة الوقوف على حقائق العالم الثاني، غير أن هذا الفيض لا يتم عن طريق الحلول وإنما هو ضرب من الكشف الروحاني يحدث في النوم أو في حال اليقظة لكل من لهم استعداد وأعرضوا نوعا عن الدنيا وملاذها وتحلوا بأسمى الفضائل، ومن هنا انقسم المتصوفة إلى فريقين معتدلين ومتطرفين، سنيين ومبتدعين.

فتصوف الحلاج ومن جاراه قد جاوز دائرة الكتاب والسنة، في حين أن تصوف الغزالي ومثله أهل التصوف الإسلامي المحض الذي يلتئم مع كل تعاليم الدين وهكذا قدر لأهل السنة من النجاح في دائرة التصوف ما قدر لهم في ميدان علم الكلام. وما أن بدأ القرن السادس الهجري حتى أخذ التصوف السني الإسلامي يضعف من نفوذ التصوف المجلوب عن النحل الأخرى الباطنية الشيعية وغيرها، وفي هذا الوقت ظهر علمان من أعلام المتصوفة المعتدلين، وهما عبد القادر الجيلاني وأحمد الرفاعي اللذين قدر أن يكون لطريقتيهما شأن يذكر في الأجيال المقبلة.

ويغلب على الظن أنهما تأثرا بالغزالي واتخذا من (إحيائه أساسا لآرائهما الصوفية وتأثروا من قبله بالقشيري وأبي طالب المكي ولم يقف (أثر الإحياء) عند رجال القرن السادس بل تعداه إلى من جاءوا بعدهم وما زال يغالب شعب الصوفية الشاذة حتى غلبهم في نهاية القرن السابع. وأصبحت له السيادة التامة لاستعداده أصوله وأحكامه من محيط الشريعة المطهرة.

ويمكننا أن نقول أن الصوفية المتأخرين في ذلك العصر وليس في عصرنا نحن يتفقون جميعا مع الغزالي في أن التصوف قبل كل شيء دراسة السلوك السيرة الفاضلة ومتابعة الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله.

وإذن فلا حاجة به إلى نظريات أجنبية تخرج عن التصوف الإسلامي كالباطنية أو الأفلاطونية أو الهندوكية أو المسيحية أو اليهودية أو غير ذلك ولا بد لطالب التصوف المسلم من دراسة الفقه والحديث والتفسير، على أن بعض المتصوفة الذين اشتطوا تغالوا أيضا وأنكروا على الفقهاء أبحاثهم وكانت بينهم خصومات معروفة واتجهت عنايتهم إلى حلقات الذكر يديرونها مع إهمال العلم وتعددت طوائفهم، فرأينا بينها الشاذلية، والنقشبندية، والرفاعية، واتخذت كل واحدة الشعار الذي يميزها عن الطوائف الأخرى، وبالغوا في أحاديث كراماتهم الذائعة وما تم على أيديهم من خوارق العادات الشائعة ما حبب الخاصة فيهم، وما دفع العامة إلى الالتفاف حولهم. وعلى الجملة عاد التصوف في هذا الدور الأخير في صورة غير الصورة التي بدأ بها بسبب المبالغة والاعتداد بالمظاهر والشكليات وإن كانت كلها في الأصل عمل عن علم وعلم موصول عال يفضي إلى شهود وهكذا كان أمثال الرفاعي والشاذلي والنقشبندي الذي هو فرع من الشاذلية، والله أعلم بالحق والمبطل وهو الهادي إلى سواء السبيل.

بعض النظريات الصوفية

التصوف نزعة روحية ترمي إلى الوصول إلى الله، فواجب المتصوف أن يضع هذه النزعة في موضعها من أعماله ومن أعماله إلى أحواله وأن يبين الأسباب التي تساعد النفس على تقدمها ونمو حالها، وأبحاث الصوفية الأساسية تدور كلها تقريبا حول هاتين النقطتين؛ فهم يشرحون آداب المريد وما يجب أن

يتحلى به من سامي الخصال، كالصدق والإخلاص والقناعة والزهد، ويرسمون له وسائل النجاة من توبة وندم وتقوى وورع وصمت وتأمل وخلوة واعتكاف ويتحدثون عن درجات النفس ومقامتها وأحوالها كالأنس والشوق والحب والخوف والرجاء، والغيبة والحضور والغناء والبقاء وكلها معاني إسلامية ورد بها القرآن ويظل الرب ربا والعبد عبدا نفخت فيه أسرار روح الله وأما ما وراء ذلك من أبحاث قد لا يتفق مع التصوف الإسلامي الصحيح إنما تعرضوا له تحت تأثير عدوى المدارس الأخرى المحيطة بهم فانتقلوا من التصوف الصحيح إسلاميا إلى بعض المشاكل الكلامية والفلسفية المتشعبة أو إلى جعل المظاهر عوضا عن الحقائق في العصور الأخيرة ودون أن تتبع كل دراساتهم يكفينا أن نوضح هنا في اختصار فكرتين مهمتين من أفكاره، سبق إلينا أن أشرنا إليهما وهما الإتحاد ووحدة الوجود.

الاتحاد أعلى مقامات النفس وأسمى مراتبها بحس معه الواصل بالذوق، والذوق فقط كأنه والباري شيء واحد، فيرى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويشعر بغبطة وسرور لا نظير لها. ويخترق الحجب ويصعد إلى عالم النور والملائكة، فتتكشف أمامه المغيبات والأمور الخفية لذلك يخيل إلى جلسائه أنه حاضر معهم، والواقع أنه غائب عنهم، وأنه قريب منهم، والحقيقة أنه بعيد بروحه المنصرفة عن كل شئون الدنيا وعنهم وإن كان يدبر شؤون الدنيا بعقله وجسده وقد يسمى هذا ملاحظة وشهودا لنور الله. وقدمنا أن هذا الفناء فناء بالشهود الروحي دون اندماج أو اختلاط ولكنه اتحاد نقطة الماء بالبحر المحيط ولذا سمي اتحادا وهنا نقرر أنه ناشئ عن حصول علم اليقين في مبدئه وعين اليقين في وسطه وحق اليقين في آخره، ذلك اليقين الناشئ عن الإيمان الذي ينشأ عن العمل بالإسلام والمسألة مسألة أذواق فحسب، وعن ذلك قال

الغزالي:

كان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرا ولا تسأل عن الخبر

وفيه قد نادى الغزالي في حضرة الحق اتباعا لأوامر الشرع وهو ما يجب على كل صوفي حق. وفكرة وحدة الوجود الحقة تجعل وجودنا ظاهريا وعرضيا والله وحده هو الموجود الدائم الثابت وهذا ما لا شك فيه لدى الإيمان الصحيح والفلسفة الصحيحة والعلم الصحيح، وتقرر تلك الوحدة الموحدة لله أن الكائنات كلها مظهر لعلم الله وإرادته وفيض صدر عن صفاته مباشرة أو بالواسطة وهي نشاط تلك الصفات فوجودها مستمد من وجوده جل شأنه. ولا موجود بذاته إلا الله الواجب الوجود المستغني عن كل ما سواه. وهذا مقتضى الدين الحق والنهج الأعلى للفلسفة الصحيحة والله في منطق الحق موجود أزلا بنفسه ودون حاجة إلى موجودات أخرى وإلا امتدت السلسلة سلسلة الموجودات إلى ما لا نهاية (ويحصل الدور والتسلسل العقليان الممنوعان عقلا) وعن الله وبعبارة أخرى عن صفاته صدرت الكائنات الأخرى واستفادت منه الوجود والحياة فوجودها عرض لوجوده وبالتبع. وعلى هذا ليس ثمة إلا كائن واحد موجود حقيقة وضرورة. بل هو الوجود كله أما الكائنات الأخرى فلا تسمى موجودات حقيقية إلا بضرب من التوسع والمجاز. لأنها ممكنة يستوي فيها طرفا الوجود والعدم وإذا كان الله هو الموجود الحق فكل ما عداه ظواهر حائلة زائلة. هذه هي نظرية وحدة الوجود الصوفية المشروعة.

ووحدة الخالق الأعظم في الوجود الحق دون سواه مذهب القرآن ألا ترى إلى قول الله تعالى "هو الأول والأخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم" والضمير هنا عائد إلى الله وحده وأما وحدة الوجود الحلولية التي تجعل من الله

كائنا يحل في مخلوقاته الجزئية فهو مذهب هندي أو مسيحي وليس بإسلامي، استمده أهل الشذوذ في التصوف الإسلامي من الفلسفة البائدة وغذوا به مذاهبهم الشاذة بفكرة أفلاطونية وآراء بوذية وفارسية عن طريق الفارابي وابن سينا، والمتتبع لحياة الحلاج ومؤلفات السهروردي وابن عربي يرى أنهم تأثروا بالفلاسفة المسلمين الذين أخذوا عن الفلسفة الأفلاطونية والأفلوطينية، والأرسطوطاليسية، ومثل هذا التصوف لا يعتبر إسلاميا قط من حيث أن التصوف الإسلامي دائما مستمده الأعلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم".

والنتيجة أن وحدة الوجود الحق لا المجازي ولا الإمكان وتخصيصه بالله أمر يحتمه التوحيد الإسلامي ويؤيده القرآن وما عدا الوجود الإلهي الحق من وجود اعتباري، فظل زائل وكيان حائل لا ثبات له ولا استقرار لحظة من الزمان هذا، وأما وحدة الوجود الحلولية التي تجعل من المخلوق حيزا للخالق أو تخلط بين الكون الزائل والمكون الباقي فهي من بقايا المذاهب الهندية كالبوذية واليوجية أو من نظريات الفلسفة الأفلاطونية أو الأسينوذية وهذا مالا يعرفه الإسلام ولا تقول به شريعة القرآن. وكذلك الاتحاد أن جعل المعدوم من الخلق يتحد بالموجود الحق فهو باطل أيضا وأما صلة الروح بنافخها وشعاعة النور بمحيطها الذي انشعت عنه أو كما يتحد الثلج بالماء أو الماء بالمحيط الذي صدر عنه فهو أمر لا ينكره العقل ولا يرفضه الشرع والله أعلم.

الفهرس